جون جي براندن

صرخة في سوهو

ترجمة محمد يحيى

صرخة في سوهو

تأليف
جون جي براندن

ترجمة
محمد يحيى

مراجعة
مصطفى محمد فؤاد

هنـــداوي

صرخة في سوهو

جون جي براندن

A Scream in Soho

John G. Brandon

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٣ ٢٨٦٩ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٤٠.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

١- غريب في سوهو	٧
٢- المفتش المُحقِّق مكارثي يتحدَّث عن الناس والأشياء	١٣
٣- صرخة أثناء فترة التعتيم	٢١
٤- مكارثي يتبع «حدسه»	٢٧
٥- عندما تتعمَّق المأساة	٣٥
٦- ما بداخل المنزل	٤١
٧- «داني ذا ديب» يظهر	٥١
٨- المُفتش يُعاني من صدمة!	٥٧
٩- المفتش يتلقَّى صدمةً أخرى	٦٥
١٠- مكارثي يُستبعَد من القضية!	٧٣
١١- الدافع	٧٩
١٢- مقابلة بالصدفة	٨٩
١٣- ويذرز يُقدِّم بعض المعلومات المُثيرة للاهتمام	٩٩
١٤- في تشيركولو فينيتسيا	١٠٧
١٥- الأوراق المسروقة تُغير وجهتها	١١٧
١٦- مقتل فلوريلو ماسكاني!	١٢٥
١٧- «بيج بيل» يُجري بعض التحريات	١٣٣
١٨- تيسا دومينيكو ترتقي لأعلى	١٤١
١٩- مكارثي يكاد يُصيب مديره بالشلل من الدهشة	١٤٩
٢٠- مكارثي يُواجه مأزقًا غير متوقع	١٥٥

٢١- تبدل الأمور ١٦٣
٢٢- مداهمة مزدوجة! ١٧١
٢٣- المفتش يوضح الأمور! ١٨١

الفصل الأول

غريب في سوهو

جلس المفتِّش مكارثي وانتظر في أحد مقاهي منطقة سوهو؛ ذلك المقهى الصغير المريح بنحوٍ يفوق الوصف، الذي تمتلكه وتُديره تلك السيدة الإيطالية الوقورة، سنيورا لوتشيا سبادوجليا.

وكانت قد أعلنت دقات ساعة الحائط المعلَّقة بالقرب منه لتوِّها عن الحادية عشرة من ليلة ربما قد أدَّت مثيلتها إلى بيت الشعر الخالد لهينلي «حالكة السواد مثل الحُفرة من أقصاها إلى أقصاها»؛ لأنها من وجهة نظر المُفتِّش التي يعتدُّ بها، وكذلك بضعة ملايين من البشر الذين يتلمَّسون طريقهم في هذه اللحظة داخل العاصمة وضواحيها، هي حالكة السواد بشدَّة.

فخارج الجدران المُبهجة لواحة السنيورا هذه، كان الظلام كاسحًا، وعلى الرغم من قدوم وميض ضوء خافِت عبر السماء والذي قد يُفيد بعض الشيء في الشوارع الرئيسية الأوسع، فإنه لم يكن موجودًا في الشوارع الضيقة لمنطقة سوهو المُظلِمة الرثَّة. ففي تلك المنطقة المتنوِّعة الجنسيات بالفعل، كان الليل، مِثلما قال القسُّ الطيب أوهارا على نحوٍ مُعبِّر بحق، وهو يتجوَّل مُتأنِّيًا في زياراته الليلية للمَرضى والمتألِّمين، «حالك السواد مثل شياطين الجحيم!»

كان قد نال المفتِّش مكارثي ما اعتبره حصته العادلة من الظلام هذه الليلة. فهو خلال الساعات الثلاث الماضية، وبمُساعدةٍ غير مُجدية من مصباحٍ يدوي خافت، كان قد زار تلك المقاهي الرخيصة، وعلى وجه التحديد محلات الأطعمة الأجنبية الجاهزة، الموجودة في تشارينج كروس رود والشوارع الرئيسية المجاورة، والتي اعتاد اللاجئون النمساويون والألمان ارتيادها. وهم أناس مُسالِمون عانَوا من ظروفٍ بائسة تتخطَّى حدَّ التصديق إلى

حدٍّ كبير، كما أنهم كانوا يشعرون بالامتنان الشديد تجاه البلد الذي قدم لهم الملاذ في وقت الشدة. وكان لا يزال مكارثي ذو القلب الرقيق يشعر تجاههم بالشفقة، على الرغم من التحسُّن الواضح في أحوالهم منذ وصولهم إلى هنا.

لكن — وهي «لكن» ضخمة للغاية — كان هناك آخرون؛ تلك الخراف السوداء الصغيرة القبيحة التي تتسلَّل وسط كل قطيع، والتي، في واقع الأمر، تعمل فقط من أجل أغراضِها الخفية الخاصة. إنهم الرجال، ومما يؤسَف لقوله، النساء، الذين يُمكنهم التسبُّب في ضررٍ شديد إن لم يجرِ كشف أنشطتهم بسرعة. ولهذا السبب لاحظ عددًا من عملاء «الفرع الخاص»، الخبراء في اللغات، يختلطون على نحوٍ خفي بزبائن تلك الأماكن.

كان قد تلمَّس طريقه ببهجةٍ شديدة، تُشبه بهجة شخصٍ مُسلم مُخلِص وهو ينظر لأول مرة لجدران مكة، وهو يمرُّ عبر الباب الخافت الإضاءة لمقهى السنيورا سبادوجليا وانبهر بإضاءته الجيدة ودفئه ومُستوى الراحة فيه بوجهٍ عام.

وقد كانت السنيورا، كما كُتب في أماكن أخرى، مشمولة بحماية المفتِّش مكارثي. قبل أن يُستخدَم المكان كمَقهى، كان عبارة عن صالة لألعاب البينبول، والتي كانت المكان الذي تَلتقي فيه أعتى العصابات في سوهو. وقد أدارها في ذلك الوقت مجموعة من اليهود — الذين جمعوا بين عملهم في بيرويك ستريت القريب، وإدارة سباقات الخيول — وعلاوةً على ذلك، ووَفق ما أثبته المُفتِّش المُحقِّق مكارثي فيما بعد، نشاط فرعي في أعمال مَخفية على نحوٍ رائع ومجزية للغاية متعلِّقة بـ «التجارة في المسروقات».

وبعد أن ألقى المُفتِّش القبض على هؤلاء وقادهم بنجاح، في البداية للمثول أمام محكمة الشرطة في مارلبورا ستريت، ثم محكمة الجنايات المركزية «أولد بيلي» التي حكمت عليهم بالسجن لفترةٍ طويلة، أُغلق المكان وظلَّ لفترة طويلة موطنًا للعناكب كي تنسج فيه شباكها. وقد بدا ذلك أمرًا مؤسفًا، نظرًا لموقع المكان على ناصية شارعَين مُزدحمَين والذي يُعد بلا شك مناسبًا بشدة للنشاط التجاري.

وبعد أن ظلَّ على هذه الحال لعدة شهور، طرأت فكرة عظيمة للسنيورا سبادوجليا، التي نالت أطباقها الإيطالية المسائية من الإسباجيتي، والمكرونة، ومأكولات أخرى مصنوعة من الحبوب، شهرة واسعة من سوهو إلى كليركنويل، والتي أطلعت عليها المُفتش مكارثي المولود بالأساس في سوهو.

لقد أخبرته أنها امرأة مُقتصِدة، احتياجاتها الشخصية قليلة. وقالت له إنها تُفكِّر في تغيير ديكورات صالة البينبول هذه وفق طراز سوهو، وافتتاحها كمَقهًى من أجل

التجَّار المُحترمين في هذا الحي، حيث تقدم أفضل الأطباق، وأجود الخمور، بأسعارٍ تُناسِب ميزانيات جيرانها.

رحَّب مكارثي بالفكرة بكل حماس، وقابل مالك المكان بالنيابة عن السنيورا، وخفض قيمة الإيجار بمقدار النصف تقريبًا، بعد توضيحٍ مطوَّل بعض الشيء للرجل كيف أنه سيُصبح أمرًا رائعًا بالنسبة له أن يُدرك أنه يمتلك مكانًا واحدًا على الأقل ستُصنِّفه الشرطة بكل تأكيد على أنه شديد الاحترام. وهو ما كان يختلف للغاية عن أملاكه الأخرى في هذه المنطقة، والتي صنَّفتها السلطات تصنيفًا مختلفًا تمامًا، ويُمكن أن تتعرَّض بسهولة وفي أيِّ لحظة للمُداهَمة من الشرطة دون سابق إنذار.

كان لمُحاجَّة المفتِّش مفعول السحر. وفي خلال أقل من شهر بعد تلك المحادثة، اختفى أي أثر لصالة البينبول السيئة السُّمعة وفتح «مقهى ميلانو» (شركة لوتشيا سبادوجليا المحدودة) أبوابه بترحاب للزبائن.

لكن كان هناك أمر واحد يُعكِّر صفو مقهى السنيورا، على الرغم من أن المفتش المخضرم قد توقعه؛ فقد وجد الزبائنُ السابقون لصالة البينبول في مقهى السنيورا فرصةً رائعةً للحصول على وجبات مجانية دون حدود. لقد اعتبروا أن هذا المقهى بمنزلة هديةٍ لهم من السماء! فصاحبتُه امرأة، ولا يُوجَد حتى حارس واحد على الباب عليهم تخطيه، على الرغم من أنه كان سيَلقى معاملة قاسية جدًّا لو قام بأيِّ محاولة لمنعهم.

وفي ليلة الافتتاح جاء هؤلاء «الأشرار» بكثافة وسرعان ما كانوا سيبدءون في التحرُّك. أما الزبائن المحترمون الذين حضروا لمباركة الأمر، فقد راحوا ينظرون في تشكُّك؛ وانسلَّ بعضهم في هدوء وانصرفوا قبل بدء المشاكل. وقد واجهت السنيورا، على نحوٍ يُلائم امرأة تتَّسِم بالشجاعة وتحمُّل المسئولية، كل هذا بمُنتهى الثبات.

ثم وصلَت فجأةً مجموعة مكوَّنة من ستة عشر فردًا كي يتناوَلُوا العشاء، على رأسهم الزبون رقم واحد للمقهى، المُفتِّش المُحقِّق مكارثي. ولم يكن ضيوفه الذين اصطحبهم معه سوى مجموعة من أفراد شرطة نيو سكوتلاند يارد الذين بدا مظهرُهم صلبًا، وبالِغ القوة. ساد الصمت المُطبق حتى يكاد صوت ارتطام دبوس بالأرض يُسمَع بعد أن جلس المُفتِّش ومجموعته على مقاعدهم أمام طاولتَين حُجزتا لهم بجوار طاولة الحساب التي تَجلِس أمامها السنيورا.

ونظرًا لأن هؤلاء الأشرار في ذلك الوقت كانوا تحت قيادة الرجل المشهور والمُهاب عن استحقاقٍ مو إبرشتاين، فقد دعاه المفتِّش إلى غرفةٍ مُجاوِرة كي يتبادل معه بعض الحديث.

ولم يكشف أي من الطرفَين حتى الآن عما دار في ذلك الحديث على وجه الدقة، لكن مظهر زعيم العصابة أوحى بأنه لم يتَّفق في الرأي مع المفتش. لقد تورَّمت عيناه بشدَّة وكانت تظهر فيهما بسرعةٍ كل ألوان الطيف بينما كان يقوده المفتش نحو الباب كي يُغادر، أما بقية ملامحه التي لم تكن في واقع الأمر لطيفة، فكانت غير مُميزة تمامًا.

وقبل حلول منتصف الليل انتشر خبر عبر سوهو مفادُه أن أيَّ فردٍ من أفراد العصابات تصل به الحماقة لأن يكون أمام مقهى ميلانو، ناهيك عن الوجود داخله، يجب أن يستعدَّ للدخول في مشكلة شخصية مع المُفتش المُحقق مكارثي، والتي سيُعاني على إثرها على نحوٍ كبير ومُتزايد. وقد كان ذلك كافيًا للغاية؛ فمنذ تلك الليلة لم يُواجه مشروع السنيورا أبدًا أي مشكلات.

ظلَّ المفتش جالسًا لما يُقارب عشرين دقيقة الآن في انتظار وصول الشخص الذي لديه موعد معه لتناول العشاء، وقد أمضى هذه الفترة في تفحُّص الزبائن، سواء المُنتظمين أو العابرين منهم. وقد كان عدد الزبائن المُنتظِمين أقل من المعتاد، نظرًا، لأنه في تلك الأيام، لم تكن الأعمال مُزدهِرةً في سوهو مثلما كانت في الماضي، كما دفع الميل إلى تعتيم الأضواء أولئك الذين يُقيمون في الضواحي إلى العودة إلى منازلهم في وقتٍ مُبكِّر قدر ما يستطيعون.

وكذلك تأثَّرت التجارة غير المنتظِمة بسبب التعتيم الضروري؛ فالسير عبر شوارع سوهو سواء من أكسفورد ستريت أو شافتسبري أفينو إلى مقهى ميلانو الذي نال قدرًا جيدًا من الدعاية، والذي يقع في منتصف الطريق تقريبًا بينهما، كان أمرًا، في هذه الليالي، يجعل حتى أقوى القلوب يجفل.

كان بالمقهى، مثلما في أغلب الأماكن من هذا النوع، عدد قليل من أولئك اللاجئين، الذين معظمهم من النمساويين، الذين يَشربون القهوة المُغطَّاة بطبقةٍ لا بأس بها من الكريمة المخفوقة والتي يحبُّها أهل فيينا بشدة، كما كان على طاولتَين أو ثلاثٍ مجموعة من التجار الإيطاليين الذين يَشربون نبيذ كيانتي من قوارير مع وجبتهم المتواضِعة، والذين، حسبما تطرَّق إلى سمعه، كانوا يُناقشون بارتياح عميق حيادية الحكومة الإيطالية في الحرب.

وكان هناك أيضًا مجموعات قليلة من الألمان الذين بدا عليهم الحزن، وهم أناس يعرف هو على نحوٍ شخصي أنهم يُقيمون منذ فترة طويلة في هذا البلد، وقد أصبحوا إلى حدٍّ كبير مثل أبناء البلد الأصليين، كما أن تعاطُفَهم مع أهداف ومُعتقَدات ألمانيا النازية منعدمٌ تمامًا.

وبعد ذلك وقعت عيناه على رجل يجلس بمُفرده على إحدى الطاولات، وأمامه مشروبٌ كحولي هو، بالنظر إلى مشهد طاولته، آخر جزء من إحدى أفخم وجبات العشاء التي تُقدمها السنيورا.

لقد بدا مظهره كخليطٍ متفرِّد نوعًا ما من الألوان؛ فهو ذو بشرة زيتونية اللون أكثر منها داكنة، وشعر أسود لامع بدا كما لو أنه مُغطًّى بدهان مُلمع، وأسنان بيضاء على نحوٍ لافت والتي يظهرها بنحو دائم من خلال ابتسامة مُتعالية نوعًا ما. لم تكن أي من هذه الصفات الجسدية غير مُعتادة بأي حال من الأحوال في سوهو. ومهما بلغ مدى تميُّزها، فإن باستطاعة مكارثي أن يجد مئات مثلها خلال جولة مُدَّتها خمس دقائق. إذ لم يكن فيها شيء يجذب الانتباه. لكن عينَي الرجل كانتا أمرًا مختلفًا للغاية. فدرجة لونهما، بلا استثناء، كانت أخفَّ درجة من اللون الأزرق رآها المفتش حسبما يتذكر؛ كانتا تقريبًا بلون أزرق ثلجي، وقد بدتا من خلال الزاوية التي ينظر نحوهما منها أن بهما لمسة مخضرة.

وبينما كان يجلس الرجل، وهو على ما يبدو يُحدِّق في الحائط مُستغرقًا في التفكير، لم يبد على عينَيه أنهما تَحملان أي تعبير على الإطلاق. واسترعى انتباه المفتش أنهما ثابتتان للغاية، مثل عينَي ثعبان يُحدِّق عبر الزجاج بثباتٍ شديد في اتجاه زائر مُهتمٍّ لبيت الزواحف في حديقة الحيوان. وقد خلت عينا الرجل تمامًا من التعبير، لدرجة أن مكارثي تخيَّل للحظة أن الرجل أعمى.

اتسمت ملابس الرجل بالأناقة، على نحوٍ استثنائي خاصة عند المقارنة مع بقية الموجودين، لكن بالنسبة لرجل يتباهى بدرايته بالمسائل الخاصة بخياطة الملابس، فقد بدت ملابسه غير مشابهة لتفصيلات الملابس الإنجليزية بنحوٍ واضح. إذ بدا فيها ذلك الاختلاف المُتعذِّر التحديد ولكن الواضح جدًّا بين فنِّ أفضل الخياطين الإنجليز وذلك الخاص بنُظرائهم في قارة أوروبا.

التفت مكارثي باتجاه الشخص الساكن تمامًا وقال: «والآن تُرى أي الشياطين تكون.» وتابع: «أنت لستَ من مواطني سوهو، ولا تُقيم هنا بنحوٍ مؤقت حتى. أُراهن بعمري على ذلك.»

ثبت خطأ نظرية أن تلك العينَين، الغريبتَين المُحدقتَين الخاليتَين من التعبير تمامًا، غير مُبصرتين عندما استيقظ صاحبهما على نحوٍ مُفاجئ من حلم اليقظة العميق الذي كان مُستغرقًا فيه، ليستدعيَ واحدةً من النادلتَين الصغيرتَين اللتين أضافتهما السنيورا إلى فريق الخدمة بالمقهى. وأخذ منها الفاتورة، ودفعها مع ما بدا أنه، من خلال تعبير الابتهاج

الذي ارتسم على وجه الفتاة، بقشيش سخي. ثم نهض وأخذ معطفًا مُعلَّقًا على الحائط بجوار طاولته، من على مِشجبه.

كان رجلًا طويل القامة، قدَّر مكارثي طوله بستِّ أقدام وهو من دون حذاء، وقد اضطر للانحناء بقدرٍ كبير قبل أن تتمكَّن النادلة من وضع المعطف فوق مَنكبَيه العريضين. كما قدر مكارثي على الفور أيضًا أنه رجل ممشوق القوام، مُتناسق الأعضاء، وبالنسبة لعينَيه الغريبتَين، اللتين لا تتحركان، فهما، وفقًا لحُكمه، يقظتان بشدة.

وقد اتضح من خلال الانحناءة التي منحها للفتاة وهو يأخذ منها قُبعته، وكذلك الانحناءة العسكرية لجسده التي حيَّا بها السنيورا بينما يتَّجه نحو الباب، أنه رجل كريم الأصل. وقد كان هناك شيء في مشيته المتأنية، وهو يسير عبر الممرات المفروشة بالبُسُط بين الطاولات، يشي بالتكبر؛ كما لو كان يبتسِم بينه وبين نفسه بازدراء نحو المكان المُتواضِع الذي وجد نفسه فيه، وكذلك الناس البسطاء بنفس القدْر الذين يرتادونه. وتوقف للحظة فقط عند الباب كي يُخرج من جيب معطفه مصباحًا يدويًّا صغيرًا ويفتحه.

وبينما كانت تتحرَّك يده باتجاه مقبض الباب، انفتح الباب على نحوٍ مُفاجئ كي يدخل منه الشخص الذي كان المُفتِّش مكارثي في انتظاره، مفوض الشرطة المساعد، السير ويليام هاينس. ومن ثم تراجع الرجل ذو العينَين الغريبتَين بأدبٍ لخطوة واحدة إلى أن دخل السير ويليام، ثم خرج كي يحتويَه ظلام الليل.

الفصل الثاني

المفتش المُحقِّق مكارثي يتحدَّث عن الناس والأشياء

قال المفتش في تحية تحمل رائحة الاتهام: «اثنان وعشرون دقيقة بالتمام والكمال.»

صاح السير ويليام، بينما كان يخلع معطفه وقبَّعته ويناولهما إلى النادلة الصغيرة الأخرى: «ماذا؟!» وتابع: «أظن أنك تعني، اثنين وعشرين دقيقة من التأخير. يا عزيزي ماك، أنت محظوظ لأني لم أتأخَّر لمدة أربعين دقيقة. مع كل الاحترام الواجب للمسئولين عن الاحتياطات ضد الغارات الجوية، فإنَّ إجراءات التعتيم هذه مُتعِبة للغاية.»

نهضَت السنيورا من على طاولة الحساب التي تجلس عليها وذهبت لتقديم التحية اللائقة لزبونها المُميز الثاني.

فقال مُعتذرًا: «أتمنَّى ألا أكون قد أفسدت الأمور يا سنيورا، لكن المجيء من ... من مقر عملنا المُطلِّ على منطقة إمبانكمنت إلى هنا كان مهمَّةً شبه مستحيلة.»

قالت السنيورا وهي تبتسِم في طيبة وتتحدث بلغةٍ إنجليزية ركيكة: «كل شيء سيُصبح جاهزًا على الفور، يا سادة.» وتابعت: «في هذه الأيام أنا دائمًا أتحسَّب للتأخير بسبب التعتيم. إذ لم يعُد بإمكان الناس أن تأتي في مواعيدها المضبوطة.»

صاح المفوَّض المساعد: «حقًّا، إن هذه حقيقة.» وتابع: «إنهم سيكونون محظوظين للغاية إن استطاعوا الوصول إلى هنا من الأساس إذا كانوا يعملون في وظيفة مثل وظيفتنا. على أي حال أنا مستعد لتناول الطعام، عندما تُصبحين مُستعدَّة لتقديمه، يا سنيورا؛ أنا مُستعدٌّ بشدة.»

قال المفتش، مُتحدثًا إلى السقف أكثر من أي شخصٍ مُحدد موجود: «لقد كنت كذلك طوال العشرين دقيقة الماضية.» وتابع: «وأنا أحصل على الكثير من التعاطُف من أجل ذلك. إن الأمر هكذا دائمًا. إن المسكين هو الذي ...»

ابتسم المُفوَّض المساعد.

وقال: «الذي يساعد المسكين، أو ربما الذي «يتحمَّل الجزء الأكبر من الأمر» هذه المرة. إنه واحد منهما.»

ردَّ مكارثي بثبات: «بل كلاهما.» وأضاف: «هل لاحظت ذلك الرجل الذي خرج بينما كنت تدخل المقهى، يا بيل؟»

أومأ هاينس برأسه. وقال: «لم أستطِع منع نفسي من النظر إليه. إنه رجل ذو مَظهر غريب، نوعًا ما. وعيناه غريبتان – لقد ظننتُ للحظة أنه أعمى. من هو ذلك الرجل؟ هل هو أحد زبائن سوهو التابعين لك؟»

هز مكارثي رأسه نافيًا.

«حسبما أظن أنا لم أره من قبل في حياتي. لكن شكله بالتأكيد على أي حال مُختلف قليلًا عما اعتدناه. لقد كنتُ أتساءل فقط إن كنت قد صادفته من قبل. إن ويست إند تمتلئ ببعض الناس الغريبة في هذه الأيام.»

تنهَّد السير ويليام. ثم قال بحماس: «أتَّفق معك تمامًا.» وتابع: «لقد قضيتُ لتوِّي ساعتَين صعبتَين مع واحدٍ منهم في غرفتي. وهو رجل ضئيل الحجم أحضره إليَّ رجال الفرع الخاص كي أستجوبه.»

سأل مكارثي باهتمام: «هل هو أحد الجواسيس الصغار الحجم المرحين؟»

«أجل؛ وهو واحد من المُخضَرمين في هذا المجال. ولن تَسمع أبدًا مثل ذلك الهراء المُقنع الذي صاغه ونمَّقه، وأعدَّه من أجل الاستهلاك الإنجليزي. فوفقًا لأقواله هو رجل نمساوي يَنتمي للحزب الديموقراطي الاشتراكي وقد فرَّ من معسكر اعتقال إلى هذا البلد، وقال إنه ليس من شأن أحد معرفة ما تعرَّض له من تعذيبٍ جسدي. وكان الشيء الوحيد المعارض لتلك الرواية هو، بخلاف بعض الندبات القديمة، أنه لا يحمل أي علامة على وجهه، لكن قبل أن نُحدِّد موقفنا، خلع قميصه وعرض علينا ظهره. كان ظهره يحمل الكثير من العلامات التي تُؤيد أقواله، لكن، لسوء حظه، لم أكن بحاجة لأن أكون طبيبًا كي أعلم أنها علامات مرت عليها الكثير من السنين. على أي حال، تركته يسترسل ويسترسل في الكلام.»

سأل مكارثي: «مددتَ له الحبل ليشنق به نفسه؟»

قال هاينس: «لم نكن بحاجةٍ إلى ذلك.» وتابع: «إن كل ما احتجنا له، هو ذاكرتي، علاوة على نظام المَلفات المُميز لدينا. فهو لم يكن نمساويًّا على الإطلاق. لقد تصادف

أن ذاكرتي كانت أقوى من ذاكرته؛ فقد تذكَّرت أنني استجوبتُه وأصدرت حكمًا حاسمًا بشأنه في الحرب العالمية الأولى. وكان أصغر سنًّا آنذاك، بالطبع، وادَّعى أنه لاجئ بلجيكي من أنتويرب في ذلك الوقت. ولم تُنقِذه ادِّعاءاته آنذاك، ولم تُسعفه ثانية هذه المرة. وهو في هذه اللحظة يقف على محطة كانون ستريت، في طريقه إلى أحد معسكرات الاحتجاز.» وضحك ضحكة خافِتة عندما تذكَّر شيئًا من الواضح أنه أسعده.

سأله مكارثي: «ما الأمر الذي أضحكك؟»

قال السير ويليام ضاحكًا: «ليتك سمعتَه وهو يصبُّ علينا ترنيمة الكراهية الخاصة به عندما أدرك عدم وجود فائدة وأنه سيُسجَن.» وأضاف: «عجبًا يا رجل، إنْ تحقَّق كل ما توعَّدنا به فلن يتبقى شيء من إنجلترا خلال أسبوعين. سنُقصَف ونُمحى جميعًا تمامًا من على الخريطة، ولن ينقذنا التعتيم ولا الاحتياطات ضد الغارات الجوية ولا الدفاعات المضادَّة للطائرات. وستُغرِق الغوَّاصات الألمانية قواتنا البحرية، وكذلك سفن الأسطول التجاري، في قاع البحر خلال ستة أسابيع، وسيأخُذون البضائع إلى الموانئ الألمانية كغنائم لهم، بالطبع. وسيَأسرُون المدنيين على نحوٍ جماعي وينقلونهم كالعبيد إلى بولندا، كي يُعيدوا بناء تلك الدولة المُحطمة وهم يُجلدون بالسوط، و... ويعلم الله ماذا أيضًا. كان الأمر أشبه بأحد عروض السيرك.»

قال مكارثي: «لقد حصلتَ أنت على كل المُتعة بينما أجوب أنا الشوارع مع مصباحي اليدوي الصغير.» وأضاف: «مع ذلك، يا بيل، هناك الكثير من هؤلاء الرجال، والنساء — لا تنس النساء — الذين لا يُطلِقُون مثل هذا اللغو والهراء، رغم أنهم يُكِنون الكثير من الكراهية في صدورهم، ويُمكنهم فعل الكثير من الكوارث إذا أتيحت لهم الفرصة.»

قال هاينس بجدية: «هذا مما لا شك فيه.» وتابع: «وأسوأ ما في الأمر، يا ماك، أن أخطر العناصر فيهم من نوعية مُختلفة تمامًا ومُعَدُّون جيدًا لأداء مهامهم. فهم لا يتلصَّصون في الأنحاء، حتى يسترقوا السمع للحوارات التي تجري في المقاهي، أو الحانات التي يرتادُها الجنود. لكنهم أناس يَختلطُون بالأشخاص ذوي المناصب العُليا، الأشخاص الذين لديهم معلومات مُتفرِّدة حصلوا عليها من قلب الحكومة البريطانية في وايتهول وإدارة الخِدمة المدنية، بوجهٍ عام. وهم أناس لا تجرؤ على القبض عليهم بدون أن يُسارع بعض الأشخاص المُهمين بإعلان أنه يُعَد فضيحة، إن لم يكن جريمة، أن تجري مراقبة هؤلاء الناس المُميَّزين، ناهيك عن استجوابهم.»

قال مكارثي مع ابتسامة رِضا: «وهنا تَكمُن روعة «عملائي» الخاصين في سوهو.» وأضاف: «فإذا اعتقدت أن أيًّا منهم يتقاضى مبالغ طائلة مقابل هذا النوع من العمل،

فيُمكنك القبض عليه وإدخال الرعب في نفسه دون أن يُسارع أحد للشكوى في البرلمان، أو أي مكان آخر، كي يقول من أجله كلمة طيبة. وهو أمر، نظرًا لأن نصف مجموعتي سيبيعون أمهاتهم مقابل شلن، جيد.»

وبينما كان يتحدَّث انفتح الباب ودخل أحد مواطني سوهو الذين لا تُخطئهم العين.

لقد كان شابًّا طويلًا، ورشيقًا، لكن قويَّ البنية، يتراوح عمره بين السادسة والعشرين والثلاثين، ذا بشرة زيتونية داكنة، وعينين سوداوين برموشٍ طويلة، وشَعرٍ أسود فاحم أملس والذي يُشير بوضوح إلى أنه مُواطِن من سوهو ذو أصول إيطالية — على الأرجح وُلد في لندن لأبوين إيطاليين. وقد ارتدى ملابس أنيقة، على الرغم من وجود، بوجه عام، لمسة مبتذَلة في هيئتها، ساعد فيها القبعة السوداء المصنوعة من اللباد التي كان يَجذبُها لأسفل فوق عينيه على نحو يُوحي باستخدامها كقناع إذا دعَتِ الضرورة.

كانت هناك لمحة واضحة من الوحشية على العينَين السوداوين اللتين نظرتا على الفور نحو المُفتش، وضِيق حول فمه بدا وكأنه يُفصِح عن أن صاحبه، على الرغم من مظهره الثري، هو شخص ليس من الحكمة الدخول في صدامٍ معه. كان يَرتدي في أحد أصابع يدِه اليُمنى خاتمًا ذا ماسةٍ ضخمة برَّاقة للغاية، كما كان يَحمل دبوس رابطة عنقه ماسةً برَّاقة مُشابهة. على الأرجح إن الوافد الجديد ربما يُعَدُّ نموذجًا لرجل عصابات ويست إند في هذه الأيام، والذي اقتصر الجزء الأكبر من أنشطته النهارية على سباقات الخيل والأنشطة المُشابهة، بينما اقتصرت لياليه على أنشطة العربدة حول وداخل المقاهي وقاعات الرقص في سوهو.

وقد تابعه مكارثي بنظرةٍ سريعة من طرف عينَيه، ثم واصل تناول العشاء المتميز جدًّا الذي قدمته السنيورا.

ولكن، من الغريب بالقدْر الكافي أن هذا الشاب المفعم بالحيوية، على الرغم من أن نظرته الأولى كانت نحو الطاولة التي منذ وقتٍ ليس ببعيد أخلاها الرجل ذو العينين ذواتا اللون الأزرق الثلجي، توقف وبنحوٍ مُثير للانتباه، خلع قبعته ومعطفه، ثم علَّقهما بعناية على المشجب الذي لا يبعد إلا بقدم أو نحو ذلك عن مرفق المفتش مكارثي. وأثناء قيامه بذلك، سقطَت كرة صغيرة من الورق، والتي كانت صغيرة جدًّا لدرجة أنها ربما تكون ورقة سجائر مطوية، من يده على طاولة المُفتِّش، على بُعد بوصة واحدة من طبق ذلك الضابط. ودون أن يُلقيَ نظرة تجاهها، تحرك الشاب نحو الطاولة التي نظر نحوها في البداية بعينَيه؛ وبمجرد أن وصل إليها، كانت الكرة الصغيرة قد اختفت.

سأل المفوض المساعد بصوتٍ خفيض: «مَن هذا الفتى ذو المظهر الصلب؟»

أجاب مكارثي بنفس الصوت الخفيض: ««عميل» خاص.» وتابع: «وهو ليس صلبًا جدًّا كما يبدو عليه، يا بيل، إذا وصل الأمر حقًّا إلى مواجهة مباشرة — ما لم تكن بالطبع عصابته معه، فعندئذٍ بالتأكيد تصعب السيطرة عليه. ولكنه، مثل معظمهم، عند مواجهته بمُفرَده يُصبح مُسالِمًا للغاية.» وتابع المفتش قائلًا: «إنه عمل معقَّد، في الواقع، ما يُمكن أن تسميه مهمة بغيضة تمامًا. أنا لا أُحب استخدام مثل هؤلاء الأشخاص، ولا أفعل ذلك إلا بقدر ضئيل للغاية، ولكن هناك أوقاتًا يُصبح فيها من الضروري للغاية لأيِّ رجل في لعبتنا أن يحصل على معلوماتٍ عما يَهمس به الناس في أماكن ليس من السهل الوصول إليها. هذا على الرغم من أنه ليس هناك الكثير من الأماكن التي لا أستطيع دخولها ومعرفة ما أُريده على نحوٍ ودِّي.»

قال هاينس: «فهمت.» وتابع: «إنه واحدٌ من تلك «العصافير» التي غالبًا ما تذكر أنها تَنقُل الأشياء لك. فمن هو؟»

قال مكارثي: «إن اسمه ماسكاني — فلوريلو ماسكاني.»

تجهَّم وجه هاينس وهو يقول: «إنَّ هذا الاسم مألوف بالنسبة لي؛ إذ سمعته في مكانٍ ما.»

«إذا كان لديك أي انطباع بأنه له أي صلة بماسكاني — بيترو، أعتقد أن هذا هو اسمه الأول، لكنني لستُ متأكدًا — أخرجه من عقلك في الحال. ليس له صِلة به؛ فهو بعيد عنه تمامًا. أنا أشير، بالطبع إلى الشخص الذي قدَّم لنا «مدام باترفلاي»، وعروض الأوبرا الجميلة الأخرى. لا شيء من سمات الفَراشة ستجدُها في فلوريلو ماسكاني. إنه شقي خطر بعض الشيء. بطريقته الخاصة، هو شخص قَذِر مثل كلب مُتَّسخ قد تُصادفه خلال نزهة نهارية، ولكن هناك أوقات يُصبح فيها مُفيدًا بالنسبة لي، وهذا واحد منها.»

تساءل هاينس: «إنها لعبة خطرة بالنسبة له، أليس كذلك؟»

أجاب مكارثي بهدوء: «ليست الأكثر سلامةً في العالم، أقرُّ بذلك.» وتابع: «ولكن إذا كان الرجل قد وُلِد مُحتالًا وواشيًا مزدوجًا، فسيبيع معلوماتٍ قيِّمة لأي شخص، عاجلًا أم آجلًا، سواء كنتُ أنا هذا الشخص أم شخصًا آخر. ولكن يومًا ما، يا بيل، سوف يكشفون أمره ويجزُّون رقبته بكل تأكيد. حسنًا، في أسوأ الأحوال، سيُخلِّصنا هذا من آفةٍ لعينة، وفي أحسن الأحوال، سيُوفر على البلاد نفقات محاكمته وشنقه. وهو أمر يُناسِبني على نحوٍ رائع.»

«إنه لأمر غريب، يا ماك، أن الجريمة، وخاصة جرائم العنف، قد تراجعت فعليًّا لأدنى مستوياتها منذ اندلاع الحرب. فقط عدد قليل من رجال العصابات يَتشاجرون بعنفٍ خلال أوقات التعتيم، لكن لا شيء خطير. في هذه الظلمة الجهنَّمية، كنتَ ستظنُّ أنهم سينخرطون في الجريمة إلى أقصى درجة، لا سيما في هذا الجزء من المدينة.»

تلألأت عينا مكارثي. وقال على نحوٍ غريب: «إن معظم الشباب الأصغر سنًّا يتشاوَرُون حول أفضل طريقة للتجمُّع معًا وقتل السيرجنت ميجور.» وتابع: «أما البقية فيفكرون في حُججهم أمام المحاكم، عندما يظهرون كمُعارضين واعِين للعُنف من أي نوع أو صنف. إنه عالم غريب الأطوار، يا بيل، وهناك بعض القوم الغريبين للغاية الذين يعيشون فيه.»

«وهذا الجزء منه بالذات له نصيبه الجيِّد منهم.»

قال المفتِّش بابتسامة عريضة: «كواحد من سكان هذا الحي تحديدًا، حيث وُلِدتُ فيه وترعرعتُ في أنحائه، فإنني أعترض على هذه الملاحظة.» وأضاف: «إنه ليس أسوأ، ولا أفضل، من أي جزء آخر من لندن حيث يُوجَد سكان من أصول مُختلفة. هناك العديد من الأشخاص المحترمين تمامًا الذين يعيشون في سوهو كما هو الحال في ستريتام.» ثم عدل من حديثه قائلًا: «على الرغم من أنني مُلزَم بالاعتراف بأنهم لا يأخُذون الحياة على محمَل الجد هناك كما يفعلون هنا. وإذا كانوا ميَّالين جدًّا بعض الشيء إلى التعبير عن ذلك باستخدام السكين، بدلًا من الموسيقى، أو الزهور، فلا يجب أن تنسى أن هذا أمرٌ وراثي، وخاصية عرقية مُتأصِّلة بقوة. لا يُمكن إلقاء اللوم عليهم تمامًا في ذلك.» ثم اختتم كلامه بغِلظة قائلًا: «على أي حال، هذا يَجعل الشرطة المسئولة عن هذه المنطقة مُنتبهةً دائمًا، وهذا شيء جيد. انتظر دقيقة واحدة فقط حتى أقرأ رسالتي.»

ومن خلال تحريك أصابعه ببراعة والذي أظهر كيف كان مُعتادًا على تلقِّي رسائل من هذا النوع، ودون حتى إلقاء نظرة خاطفة على الأمر بينما كان يفعله، فتح مكارثي قطعة الورق الصغيرة التي أسقطها ماسكاني على المنضدة. وعندما فتحها ألقى نظرةً واحدة عليها، ليقرأ ويحفظ اسمًا وعنوانًا مُعيَّنَين. وبعد ذلك مزَّق القصاصة الورقية إلى قطع صغيرة لدرجة أنه حتى أكثر الناس اجتهادًا ما كانوا ليتمكنوا من تجميعها مرةً أخرى.

ثم قال لصديقه على نحو شبه حزين: «أجل، سيُصبِح هذا السبب في قتل صديقنا العزيز المنحرف فلوريلو يومًا ما. لا شيء مؤكَّد في العالم أكثر من ذلك!»

نهض المُفتش، وعلى ما يبدو، عبث بجَيب معطفِه الذي أخرج منه في النهاية علبة السجائر الخاصة به. وعندما جلس مرةً أخرى، وجَدَت ورقتان نقديتان طريقهما، كما لو كانت بخفة اليد، إلى جيب مِعطَف السيد فلوريلو ماسكاني.

كان الوقت عند منتصف الليل تقريبًا عندما شقَّ السير ويليام هاينس ومكارثي طريقهما إلى الخارج عبر الليل الحالك السواد مرة أخرى؛ وأطلق الأخير صفيرًا كي يَستدعيَ سيارة أجرة، ولكن دون جدوى.

فقال له شرطي كان في المكان: «لن تجد سيارة أجرة هنا، يا سيدي، للأسف.» وتابع: «يتطلب الأمر منهم كل ما يملكونه من مهاراتٍ لنقل الزبائن عبر الشوارع الرئيسية.»

قال المفوض المساعد، بابتسامةٍ ساخرة لم يستطع أحد رؤيتها: «إذن ليس أمامي سوى تلمُّس طريقي إلى بلومزبري.»

وأضاف: «هذا أسوأ ما في الخروج لتناول العشاء معك، يا ماك، كيفية العودة إلى المنزل بعد ذلك، في هذه الليالي.»

قال مكارثي بهدوء: «حمدًا لله أنَّ وضعي مُختلِف.» وتابع: «أنا لا أحب التفاخر ولا أعيش في قصرٍ في أحد ميادين بلومزبري. أنا أعيش بالقُرب من مصدر رزقي و«عملائي». وإذا وصلت الأمور إلى الأسوأ، يُمكنني دائمًا العودة إلى منزلي وسريري زحفًا على يديَّ وركبتيَّ.»

وتابع: «وبالحديث عن السرير، عندما أدخُل إليه في هذه الليلة، لن أخرج منه مرةً أخرى من أجل أي شخص. يُمكن للجواسيس أن يستمروا في التجسُّس ويمكن للقتلة أن يستمروا في القتل، ولكن في هذه الليلة سيَحصُل باتريك ألويشوس مكارثي على نصيبه العادل من النوم، كما لو كان لن يفعل ذلك مرة أخرى.»

قال السير وليام ضاحكًا: «هل يجب أن يُؤخَذ هذا على أنه يَعني أنك سترفض أداء أي مهمة خاصة بالعمل في حالة استدعائك؟»

«اعتبِرْ أنه رفض مُسبَق. طاب مساؤك، ولا تُعرِّض نفسك للتيه بين هنا وبيدفورد سكوير. فلن تستطيع سكوتلاند يارد تعويض تلك الخسارة أبدًا.»

الفصل الثالث

صرخة أثناء فترة التعتيم

اختلفت الآراء في ذلك الجزء المُحدَّد من سوهو الذي ارتُكبَت فيه الجريمة حول النوعية الدقيقة للصرخة الرهيبة التي انطلقت عند الساعة الواحدة وخمس دقائق، على وجه التحديد. حيث أكد الشرطي الذي رقم طَوقه ١٢٨٥ والتابع للقسم «سي»، الذي يعمل في دورية سوهو، والذي أجبره جزء منها على السير في الظلام من أكسفورد ستريت بطول دين ستريت إلى شافتسبري أفينو، أن الصرخة كان مصدرها امرأة؛ وعلى أي حال، جعلته يتجمَّد في مكانه. ولكي تجعل صرخة في الساعات الأولى من الصباح في سوهو، حتى وإن كان مصدرها أُنثى، شرطيًّا مخضرمًا مثله يتجمَّد في مكانه وهو الذي يعمل منذ سنوات في هذا الحي الذي يجمع أعراقًا مختلفة، لا بد أن تكون خارجة عن المألوف تمامًا، مثلما، في الواقع، كانت هذه الصرخة!

كان يمر عبر المدخل القصير المؤدي إلى سوهو سكوير في ذلك الوقت، وجاء الصوت من يساره؛ وهذا يعني من اتجاه الميدان نفسه. وسواء كان مصدرها ذكرًا أو أنثى، فقد خرجت الصرخة بلا شكٍّ من حَلق شخص في حالة رُعب مُميت، وبالحكم من خلال النبرة الغامضة التي انتهت بها، فقد كُتم صوت الصرخة من قِبَل شخصٍ آخر غير الذي أطلقها.

من ناحية أخرى، كان متأكدًا بشدةٍ المُحقِّق المفتش مكارثي، لكن بعد ساعة أو نحو ذلك من تركه السير ويليام هاينس، وفي اللحظة التي كان يُطفئ فيها نور غرفته قبل أن يخطو إلى الفراش، من أن الصرخة كان مصدرَها رجل. قد يُعتقد أن تلك الصرخة ليست مسألةً ذات أهمية كبرى، ولكن إذا كانت تلك الصرخة التي اخترقت ذلك الظلام السيميري تُنذر بجريمة قتل، كما بدت بالتأكيد، فقد يكون لها عواقب كبيرة.

فتح المفتِّش على الفور نافذة غرفة نومِه التي تطلُّ على دين ستريت، وألقى نظرةً في الاتجاه الذي بدا له أن الصوت قادم منه. لكنه لم يتمكَّن من رؤية أي شيء، تمامًا كما لو أنه قد أطفأ مصباح الغرفة ونظر تحت سريره.

ومن ثم ارتدى روبًا فوق ملابس النوم ووضع مسدسًا آليًّا على عجَلٍ في جيبه، وتلمَّس طريقه إلى الطابق السفلي وخرج إلى الشارع الرئيسي وهو يَرتدي في قدمَيه خفًّا منزليًّا قبل أن تَختفي أصداء ذلك الصوت المُروِّع تقريبًا. بالنسبة له، أيضًا، بدا أن الاتجاه الذي أتت منه الصرخة هو سوهو سكوير، فتلمَّس طريقه نحوه بأقصى سرعة يَستطيع أن يسير بها، وهو يسحب صمام الأمان في مسدسه الآلي بينما يتقدم. لكن الشيء الذي نسي إحضاره هو الشيء الأكثر ضرورة على الإطلاق – مصباحه اليدوي.

وفي هذه الأثناء فُتحت نوافذ الشقق والمساكن الأخرى الواقعة فوق المحلات التجارية في دين ستريت بسرعة، وكانت تخرج منها رءوس أصحابها الذين لم يعتادوا الانزعاج في الغالب من مثل هذه الأصوات. لا يعني ذلك أنهم كانوا يستطيعون رؤية أي شيء، أكثر مما يُمكن لأي شخصٍ رؤيته، ولكن من المفترض أنهم حصلوا على قدر مُعيَّن من الرضا من جهودهم غير المُجدية لاختراق ما لا يُمكن اختراقه. وهو ما أكَّد أكثر على النوعية الرهيبة لتلك الصرخة عندما، حتى في حي مثل هذا ليس من الغريب فيه سماع صرخات في منتصف الليل، اعتُبرت هذه الصرخة بدون تردُّد كمرافقة، وربما تكون مقدمة هي أفضل كلمة، لجريمة قتل.

تذكَّر في هذه اللحظة بجدية كم مرة خلال مسيرته المهنية تفاخر مكارثي بأنه يستطيع اجتياز سوهو في أي ساعة من النهار أو الليل معصوب العينَين، أو وسط أعنف ضباب. الضباب كان أمره مُختلفًا، وهو سيِّئ بما يكفي في شوارع سوهو المزدحمة لإثارة اضطرابٍ أي شخص. لكن أمر هذا التعتيم اللعين أصاب الحياة في الليل بالشَّلل! لكنه كان ضروريًّا من أجل سلامة الناس، حسبما افترض؛ ومن ثم لا بد من تحمُّله، لكن كيف من المفترض أن يذهب أي رجل بسرعة ليتتبَّع مسار جريمة مُرتَكَبة في ظلِّه، كان شيئًا لم يكن مُستعدًّا للإجابة عليه.

كان اصطدامه الأول بعمود إنارة والذي تلقَّى الصدمة دون همهمة؛ أما اصطدامه الثاني فكان بشخصٍ عبر عن سخطه بطريقة لا يُمكن بالتأكيد أن تنطبق عليها كلمة «همهمة».

من خلال الشعور بالشخص الذي اصطدم به، أدرك أنها سيدة إيطالية سمينة للغاية والتي لعنته بطلاقة بألفاظٍ ميَّزها مكارثي على الفور على أنها كانت بلهجة أهل نابولي التي كانت تتحدث بها أمُّه المتوفَّاة. وقد تداخلَت مع العديد من الدعوات إلى السيدة العذراء، والعديد من القديسين الآخرين المعروفين أكثر في وطنها الأم. وبعد أن نطَق بنفس لُغتها بعض الكلمات المهذَّبة المُهدئة التي، كما قيل لنا، تزيل الغضب، والتي تعرفت فيها السيدة على الفور على صوت المفتش المُحقق مكارثي الذي أصابه الذهول، هدأت. فاعتذرت بأدب وتركَت المفتِّش يُواصل طريقه وهو يرى على نحو عابث أن فتيان المافيا أو مافيا كامورا عادوا لنَشاطهم مرة أخرى!

في الزاوية المُؤدية إلى الميدان نفسه، اصطدم مكارثي أيضًا بالشرطي الذي كان رقم طوقه ١٢٨٥ والتابع للقسم «سي» والذي، مع أخذ كل الأشياء في الاعتبار، كان يُظهِر أيضًا تزايدًا معقولًا في السرعة. تعرف على صوت المُفتش على الفور، بمساعَدةِ ربما نوعية بعض الصفات التي كان يستخدمها.

سأل مكارثي بسرعة عندما تعرف، بدوره، على صوت من اصطدم به: «أين مصدر الصرخة؟»

«بدا لي أنها قادمة من الميدان يا سيدي. يا إلهي، لقد كانت صرخة مروعة!»

تحرك الاثنان ببطء، داخل الميدان وحوله، ليجدا نوافذ تلك المساكن التي لا تزال مفتوحة هناك، ومن المُفترَض أنها مليئة بالجمهور المُتعجِّب والمُرتجِف. وبالنسبة لبقية الميدان، فقد بدا كمساحةٍ كبيرة من المخمل الأسود، الذي لا يُمكن رؤية شيء فيه.

في تلك اللحظة حدثت واحدة من تلك الوقائع التي اعتاد المُفتِّش على الإشارة إليها بمصطلح «حظ آل مكارثي». على الرغم من ذلك، في تلك اللحظة ووسط هذه الظروف، ربما بدت له كتجلٍّ للعناية الإلهية الكريمة، لكن بالنِّسبة للأشخاص الآخرين المَعنيين بالأمر، مثل مالك المبنى، والسُّلطات المسئولة عن الاحتياطات ضد الغارات الجوية، وإدارة فرقة الإطفاء، فعلى الأرجح قد بدت لهم من منظورٍ مختلف تمامًا. فهذه الأشياء تعتمد جميعها على الوجهة التي يُنظَر من خلالها إلى الأمور.

على أيِّ حال، وبدون أدنى إنذار، اندلع لسان من اللهب على نحوٍ مفاجئ من سطح إحدى العمارات العتيقة القليلة التي لا تزال موجودة بالقرب من الميدان، رغم أنها تبعد عنه قليلًا. وقد اتضح فيما بعد أن أحد مُستأجِري الغُرَف العلوية بالمنزل، استيقظ من نومه على صوت تلك الصرخة المُفزِعة، ونهض من سريره مرتبكًا بنحوٍ أو بآخر وارتطم

بمصباح كيروسين والذي، على الرغم من محاولات إطفائه الحثيثة، أشعل ألسنة اللهب في المكان. وعلى الرغم من أن رجال الإطفاء قد تمكنوا من منع انتشار الحريق إلى المباني المجاورة، فإنَّ النيران قد أتَت على المبنى في نهاية الأمر، وقد أدَّى هذا الحريق إلى إضاءة الميدان، وتمكَّن الذين هُرعوا إليه من رؤية المكان كما لو كان في ضوء النهار. وقد أدهَش المُفتِّش وجود عدة مئات من الناس الذين تمكَّنوا من الوصول إلى الميدان، وحسبما أطلق عليهم الأفراد الذين أطلوا من نَوافِذِهم العلوية المحيطة؛ فقد كانوا بمنزلة فيلق من الجنود.

في ذلك الوقت أنبأ وقع الأقدام الثقيلة على الأرصفة والصفير المُستمر لصافِرات الشرطة كُلًّا من مكارثي والشرطي عن أن المزيد من المساعَدة الرسمية كانت في طريقها إليهما. وخلال اللحظات القليلة التالية عزَّزت قواتهما بسيرجنت جاء مُسرعًا يلهث وبصُحبته شرطيَّان في زيِّهما الرسمي؛ وشهدت الدقيقة التالية زيادة العدد بالمزيد من القوات في الزي الرسمي أو بملابس مدنية. فتولَّى مكارثي قيادة المجموعة على الفور.

فأصدر أوامره قائلًا: «فتِّشوا الميدان تفتيشًا دقيقًا.» وتابع: «ولا تُضيِّعوا الوقت. فخلال دقيقة أو اثنتَين ستأتي فِرَق الإطفاء إلى هنا وسيَدهسُون في طريقهم كل ما قد يُمثِّل دليلًا في مسرح الجريمة، وما سيُفلت من أقدامهم ستُخفيه مياه خراطيمهم! اقبضوا على أيِّ شخصٍ تشتبِهون فيه ولو قليلًا، واحتجزوه من أجل التحقيق.»

وعلى الرغم من تنفيذ أوامره بخفَّة فائقة وبدقَّة مُتناهية لدرجة أنه لم يُفلِت تقريبًا أي شيء وقع على الرصيف من الملاحظة، وعلاوة على ذلك أن هذا جرى قبل وصول أول سيارة إطفاء إلى الميدان، فإنهم لم يجدُوا أيَّ علامة تدلُّ على وقوع جريمة قتل بأي نحوٍ أو هيئة.

غمغم مكارثي مُحدِّثًا نفسه: «حسنًا، هذا أمر مُحير للغاية.» ثم قال للسيرجنت: «سنُفتِّش مدخل الميدان.» وتابع: «لقد انطلقت الصرخة من هناك، أنا مُتأكِّد من ذلك تمامًا.»

رد الضابط ذو الشعر الرمادي في حيرة: «وأنا أظن ذلك بالفعل.» وتابع: «هذا على الرغم من أنني، دعْني أُذكِّرك أيها المُفتِّش، كنتُ عند تقاطع أكسفورد ستريت مع سوهو ستريت عندما سمعتُها. لكنني قلتُ لنفسي إنها انطلقت من هناك.»

وعلى الضوء المُتوهِّج لألسنة اللهب التي أخذت في التزايُد الآن، فتَّشوا كل المداخل الواقعة على يسارهم، لكنَّهم لم يجدوا شيئًا حتى وصلوا إلى المدخل المُختفي للغاية لآخر

المنازل التاريخية المُتبقِّية من زمن كان فيه سوهو سكوير مكانَ إقامة رائجًا مثل بيركلي سكوير اليوم، حيث صادفوا علامات لا لبس فيها لما يسعون إليه.

كانت تُؤدِّي درجتان من سُلَّم عتيق وبالٍ إلى مدخلٍ محفور على نحوٍ رائع ومزوَّد بأعمدة، والذي تُوجَد أعلاه كوَّة مروحية مُزخرَفة، وقد حُفر في منتصفها العام ١٧٠٢. وقد طُلِيَت العتبات والأعمدة الداعمة لظلَّة الباب باللون الأخضر الداكن، لكن الباب نفسه قد طُلِي بالأبيض الناصع، باستثناء الأماكن التي كانت فيها ألواح العتبات والألواح السُّفلية ملطَّخة بشدة بالدم، والذي لا يزال بعضه يسيل لأسفل ببطءٍ على طبقة المينا السميكة التي طُلِي بها الباب الخشبي! وقد بدا الدم على ضوء النار وكأنه حبر أسود، ولكن ليس للعيون الخبيرة التي فحصتْه فحصًا دقيقًا.

تحوَّلت الحفرتان الباليتان الموجودتان في وسط درجتَي السُّلم الحجري العتيق فعليًّا إلى بِركتَين صغيرتَين من الدم الذي تناثر حتى السياج المزخرف، المُواجِه لدرجات سُلَّم حجري والتي تؤدي مرة أخرى إلى قبو. وعندما تفحَّصَها السيرجنت بمصباحه، أطلق مكارثي شهقة، وقبل أن يُدرك أي شخص ما يَنتويه، انطلق إلى أسفل السُّلَّم كي يلتقِط بحذَر شديد خنجرًا مُدببًا طويلًا ذا ثلاث حواف، غطَّت الدماء نصلَه بكثافة!

لقد كان متأكدًا من أن السلاح أجنبي الصُّنع. وبالقُرب منه، انشبكت في قطعة من شبكة سلكية مُعلَّقة فوق جزء من القبو لغرض ما، قطعة صغيرة مُربعة من الكتان، محاطة بدانتيل سميك، ولكنه ناعم للغاية؛ والتي كانت عبارة عن منديلٍ نسائي. تلطَّخ هو، أيضًا بالدماء بشدة. لكن ضحية ما كان من الواضح أنها جريمة مُروِّعة ومُتعطِّشة للدماء لم يكن لها أي أثرٍ على الإطلاق!

الفصل الرابع

مكارثي يتبع «حدسه»

بحلول الوقت الذي توصَّل فيه المُفتش إلى هذه الاكتشافات المروِّعة، تدافع سيل حقيقي من الناس، الذي اجتذبه الحريق بقدر ما اجتذبتْه الشائعة المثيرة والسريعة الانتشار الخاصة بجريمة القتل، أو على الأرجح المزيج المُسلِّي للغاية لِكِلا الاثنَين، وتوافَدُوا على الميدان من كل حدَبٍ وصوب. وعلى الرغم من الجهود التي بذلها رجال الشرطة، والتي عُززت الآن بقوة، فقد توجَّب عليهم القيام بجهدٍ كبير لإبعاد الفضوليِّين بنحوٍ مرَضيٍّ عن تتبُّع حتى مكارثي نفسه. وقد نادى مكارثي على السيرجنت.

وقال له بهدوء: «لا تجعلهم ينشغلون للغاية بذلك، أيها السيرجنت.» وتابع: «ليس من المُستبعد أن يكون الشخص المسئول عن هذا وسط تلك المجموعة. ليست هذه هي المرة الأولى التي يختلط فيها الشخص الذي ارتكب عملًا من هذا النوع مع الجمهور لمشاهَدة الأحداث. فقط أَبعِدهم عن نطاق عملي وهذا سيَفي بالغرض. فأنا أُراقب ما حولي بحذَرٍ شديد.»

لكن مع وجود كل الأدلة الواضحة للعيان على وقوع جريمةٍ مروِّعة، كان هناك شيء واحد بدا غامضًا للغاية أمام مكارثي. هنا على السُّلَّم والباب الفِعلي لهذا المنزل العتيق، والذي قُسِّم الآن، بالمناسبة، إلى مجموعاتٍ من المكاتب، يَستخدمها في الغالب مُحامون ووكلاء أعمال للمستوردين الأجانب، تُوجَد كل الآثار التي تدلُّ على وقوع جريمةٍ فظيعة. ولكن هذه الآثار توقفت عند هذه النقطة؛ فعلى الرصيف نفسه لم تكن هناك قطرة دمٍ واحدة.

همس السيرجنت قائلًا: «يبدو الأمر تقريبًا، يا سيدي، كما لو أنَّ من ارتكب جريمة القتل قد فتح الباب وسحب الجثة إلى الداخل.»

فقال مكارثي: «أنت لن تُمانع إن ذكرتُ حقيقة أننا «نفترض مُقدمًا» حدوث قتل، أيها السيرجنت.» وتابع: «كي نؤكِّد حدوث جريمة قتلٍ حقيقية، يجب أن تُوجَد لدينا جثَّة؛ يجب أن تظهر الجثة في أي مراحل لاحِقة، وحتى الآن لا تُوجَد علامة على وجود جثة.»

قال السيرجنت على نحوٍ قاطِع: «هناك كل العلامات التي قد أحتاجها.» وتابع: «هذا بالإضافة إلى تلك الصرخة.»

قال مكارثي: «وما الذي يُدريك، فربما أن أحد المُتوحِّشين الأشرار قد استبدَّت به رغبة القسوة وقطع عنق كلبٍ فنتَج عن ذلك كل هذا القدْر من الدماء، ثم وضعه في حقيبةٍ وحمله بعيدًا؟»

جادل السيرجنت بعناد: «أحد الأسباب أن الكلب لا يصرخ مثل رُوحٍ مُعذبة، ولا يستخدم مناديل دانتيل باهِظة الثمن مثل ذلك الذي وجدتُه على هذا السلك.»

أومأ مكارثي برأسه. ثم قال: «صحيح، صحيح. مثل هذه الأدلة التي أمامنا تُوحي بوجود امرأةٍ في القضية. وهكذا الحال، حسبما تعتقد، بالنسبة لتلك الصرخة. أنا لستُ متأكدًا من ذلك. لكني ما زلتُ أؤكد لك أنه حتى نَعثُر على جثة فنحن نفترض مُقدمًا وقوع جريمة قتل. رغم ذلك، مرة أخرى، أنا على استعدادٍ لأن أعترف بأن مثل هذه الأدلة التي لدَينا هي كلها لصالح الفكرة التي تقولها.»

ألقى السيرجنت نظرة سريعة عليه. فعلى الرغم من أنه كان يعرف المحقِّق المفتش مكارثي فعليًّا منذ أن ترك الخدمة في قوة الشرطة من أجل العمل كمُحقق في سكوتلاند يارد، فإنه لم يعمل معه عن قُرب أبدًا في قضيةٍ ما. وتقول الشائعات إن المفتش، على الرغم من براعته الشديدة وترشُّحه للترقِّي على نحوٍ سريع خلال الفترة القادِمة، لم يكن غريب الأطوار بشدة فحسب، بل مُعتادًا على المزاح تحت أيِّ ظرفٍ من الظروف. ومع وجود الأدلة الدامغة على وقوع جريمة قتل بوضوح أمام عينَيه، ناهيك عن تلك الصرخة التي لا تزال ترنُّ في أُذنَيه، وجد السيرجنت نفسه يتساءل عما إذا كان ذلك الحسُّ الفكاهي المُعتاد الذي سمع عنه قد عاد للعمل مرةً أخرى، وقد وقع هو ضحيته.

ولكن ما تمكَّن من رؤيته على وجه المفتش الذي لم يكن واضحًا للغاية في ظل تلك الظروف لم يُظهِر أي علاماتٍ على أي شيءٍ سوى الحيرة العابسة؛ بالتأكيد لم يكن هناك شيء من الفكاهة باديًا عليه في تلك اللحظة على وجه التحديد.

تابع المفتش مكارثي بتأمُّل: «ونحن أيضًا نعتبر على نحوٍ مسلَّم به أن القاتل هو رجل، وذلك أساسًا لأنه في هذا الجزء المبهِج من العالَم عند ارتكاب أي جريمة قتل، يُصبح

الرجال بنحو عام هم من ارتكبوها والنساء عادةً هنَّ الضحايا. مرة أخرى، إن دليل المنديل هذا هو بالكامل لصالح هذا الاستنتاج. ومع ذلك فقد يُضلِّلنا تمامًا.»

سأل السيرجنت: «كيف يُمكن أن يفعل ذلك، أيها المفتش؟» وتابع: «هناك المنديل والخنجر ...»

صحح مكارثي الكلمة قائلًا: «الخنجر المُدبَّب.» وأضاف: «إنه ليس سلاحًا شائعًا في سوهو. إن السكاكين هي الشائعة بوفرة، وهو أمر ليس لديَّ أدنى شكٍّ أنك وبقية الرجال في القسم «سي» تَعلمونه مثلما أعلمه. وأنا لا أشك في أنك قد اضطُررتَ للتدخُّل في عدد لا بأس به من المشاجرات بالسكاكين أثناء خدمتك.»

أجاب السيرجنت على الفور: «كثيرًا.» وتابع: «وهي مهمَّة بغيضة أيضًا، عندما تغلي الدماء في عروقهم ويأخذون الأمر بجدية شديدة.»

أومأ مكارثي برأسِه موافقًا؛ فقد حاز على نصيبه العادل من تلك التسلية غير اللطيفة أيضًا.

وتابع: «لكنِّي أشكُّ كثيرًا إذا كنتَ قد رأيتَ سلاحًا من النوع الذي وجدته هنا في أيدي أي منهم، أيها السيرجنت، أليس كذلك؟»

«نعم، لا أستطيع أن أقول ذلك. يبدو الأمر غريبًا بالنسبة لي.»

قال المفتش: «إن الأمر هكذا بالفعل.» ثم أضاف: «خنجر مُدبَّب من هذا النوع، صغير، ثلاثي الحواف ومُستدق الرأس، هو بلا شك نوع السلاح الذي تُخفيه السيدات في صدور ثيابهن. وهذا لا بأس به طالَما أنهن لم يطعنَّ به شخصًا آخر، وهو ما يحتمل أن يفعلنَهُ بنفس القدر، إذا ما غضبن بنحوٍ كافٍ بسبب علاقة غرامية اتَّخذت مسارًا سيئًا، أو غَيْرة مسعورة أو أيٍّ من الأمور التي تجرح الروح من هذا النوع. إنه نوع السلاح الذي يُمكنهن الاحتفاظ به بسهولة في صدرياتهن أو بلوزاتهن أو أيًّا كان ما يُسمُّونها. لقد عرفت حتى قبل زمن طويل أنهن يخرجنه بنحوٍ مفاجئ من أربطة جواربهن.»

قال السيرجنت، بنبرةٍ ضعيفة: «لم أُفكِّر في ذلك قط.» وتابع: «وقد خطر بذهني الآن أنه سلاح مُناسِب للمرأة أكثر منه للرجل.»

تابع مكارثي: «نأتي بعد ذلك إلى الدليل الثاني، وهو المنديل. لماذا لا يكون ملكًا للقاتل وليس للمقتول؟ إنَّ الاحتمالات متساوية، خمسين خمسين، مع وجود احتمالٍ أكبر قليلًا لصالح أنه يخصُّ القاتل؛ القاتلة في هذه الحالة، بالطبع.»

نخر السيرجنت قائلًا: «اللعنة عليَّ إذا كان بإمكاني فهم ذلك.» إذ إن استنتاجات المفتش كانت تزداد غموضًا بعض الشيء بالنسبة له.

«ببساطة لأن تسعةً وتسعين من أصل مائة جريمة قتْل ترتكبها امرأة، تكون جريمة عاطفية، والمرأة، أثناء ارتكابها للجريمة، يَفقد عقلها التركيز في أي شيءٍ آخر. ومن المُرجَّح أكثر بكثير أن تترك وراءها أدلةً دامغة على جريرتها أكثر من أيِّ رجل. فهو بصرف النظر عما قد يكون الدافع وراء ارتكابه للقتل، يُفكر في نفسه أولًا، وأخيرًا، وطوال الوقت؛ وهو بنحوٍ عام يُدان بعد العثور على خطأ غبيٍّ من خلال بحثٍ وتحقيق مُستفيضَين. ومع ذلك، أنا لا أسعى لتقديم محاضَرة عن ذلك؛ أنا ببساطةٍ أوضِّح لك أنه حتى نعثر على الجثة، فكل الاحتمالات واردة.»

لم يُبدِ السيرجنت أي رد، لكنه أدرك أنه ليس هناك الكثير من «غرابة الأطوار» التي تُشاع عنه والتي يُمكن ملاحظتها على المُفتِّش وهو يُفسِّر استنتاجًا.

استعار مكارثي المصباح اليدوي الخاص بالسيرجنت مرةً أخرى، ووجهه نحو مقبض الباب.

«ستُلاحظ، أيها السيرجنت، أنه لا تُوجَد علامة على مقبض هذا الباب تُشير إلى أن أي شخصٍ اشترك في هذا الأمر المُخيف قد فتحه؟»

قال السيرجنت مُقترحًا: «ربما جرى تنظيفه.»

هزَّ مكارثي رأسه نافيًا. وقال: «لو وقعت عليه قطرة من الدم وجرى مسحُها، كانت سيظلُّ لها أثر، لكن في الواقع، إنه نظيف تمامًا؛ إنه باهت قليلًا فقط نتيجةً للاستخدام اليومي. ومع ذلك، لن نُجازف، فقد تُوجَد عليه «بُقَع دقيقة» عندما يُفحص بنحوٍ جيد.»

ومن ثم أخرج منديله، ولفَّه حول المقبض وحاول فتح الباب. لكنه كان مقفلًا.

«أعتقد أنني على صوابٍ عندما أقول إنه لا يُوجَد حارس لهذه المجموعة من المكاتب على وجه التحديد؟»

قال السيرجنت: «أجل، لا يُوجَد.» وتابع: «هناك امرأتان عجوزان تأتيان في حوالي الساعة السادسة مساءً وتُنظفان المكان. وتُغلقان الباب من بعدهما. وهناك شابٌّ يصلُ إلى هنا في حوالي الساعة الثامنة صباحًا، ليفتح المكان، ويضع البريد في أماكنه المناسِبة قبل وصول الآخرين. وبقدْر ما أعرف، هؤلاء هم كل العاملين الموجودين هنا.»

وجه مكارثي المصباح اليدوي على ثُقب المفتاح وتفحَّصه باهتمام.

وقال: «لن أجزم على نحو قاطع، لكني متأكد إلى حدٍّ ما من أن هذا لم يُلمَس قط مؤخرًا.» وتابع: «إنَّ الطريقة التي رُفِع بها الشخص، أو أيًّا كان ما قُتل، من الأرض في الفترة الزمنية التي يجب أن تكون قد استغرقتها، تُحيِّرني بشدة. هناك طريقة واحدة فقط يُمكنني التفكير فيها في الوقت الحالي، وهي السيارة.»

هز السيرجنت رأسه نافيًا.

وقال: «أشكُّ في أنه كانت لديهم فرصة لنَقلِ أي شخصٍ من هذا السُّلم إلى سيارة والخروج من الميدان بين وقت سماع تلك الصرخة ووقت وصولنا إليه. ليس هذا مُمكنًا خلال حالة التعتيم ودون أن يُسمَع.» وأضاف: «ولا تنسَ أنَّ الرجال خلال دوريتهم في هذا الجزء بالذات من أكسفورد ستريت، وكذلك تشارينج كروس رود، سمِعوا الصرخة، وكانوا سيكونون في حالةِ ترقُّب لأي شيءٍ يخرج من الميدان. ومع وجود صوتٍ كهذا في آذانهم، كانوا سيُجازفون ويستوقفون أي شيءٍ يسير على عجلات.»

بينما كان يستمع المفتش له، أخذت عيناه تتجوَّلان على نحوٍ عشوائي واضح وسط الحشود التي تجمَّعت والتي أظهرتهم نار الحريق. كان مُعظمُهم من سكان منطقة سوهو، والجزء الأكبر منهم من أصولٍ أجنبية، ولكن كان هناك أيضًا عدد قليل من الرجال العائدين في وقتٍ مُتأخِّر الذين سارعوا إلى الميدان من الطرق الرئيسية لإرضاء فضولهم.

كان مُعظمهم معروفين لدى مكارثي، وكثير منهم أشخاص شُرَفاء، يعملون بجدٍّ، وأغلبهم من موظَّفي المطاعم والفنادق في ويست إند. ولكن هناك أيضًا آخرون تشي نظراتُهم الجامدة والماكرة عن طرق مختلفة جدًّا لكسب العيش؛ كان يعرف أنهم رجال عصابات ولصوص من أشنع الأنواع. وعندما انتبهوا إلى أن عينَيه كانتا عليهم، تحوَّلت نظراتهم بسرعة وابتعدوا عن الأنظار دونما تردُّد.

ولكن، على نحوٍ ما، شعر بأن ليس لهم يدٌ في هذا الحادث. إن جريمة القتل هذه، إذا ثبت أنها كذلك بالفعل، دُبرت بمكرٍ شديد يفوق قدرات أيٍّ منهم. كان الحادث برمَّته غير مُعتاد للغاية، وقد نُفذ بذكاءٍ شديد لدرجةٍ تجعله لا يشكُّ في أنهم من ارتكبوه. إن أساليبهم كانت شريرة للغاية بكل تأكيد، ولكن لم تتَّسم أبدًا بالذكاء. وإلى جانب ذلك، لم يكن هذا الخنجر المُدبَّب شيئًا يمكن الحصول عليه مقابل بضعة شلنات، أو بضعة جنيهات بحيث يمكن استخدامه في مسألة كهذه؛ إنه لن يتفاجأ على الإطلاق إذا اكتشف أنه سلاح قديم ذو قيمة كبيرة جدًّا، بينما إذا لم يُخبره أحد الخبراء في مثل هذه الأمور

أن منديل الدانتيل هذا من نوع باهظ الثمن، يفوق ميزانية سيدة عادية من سوهو، فقد جانَبَه الصواب للغاية.

وكان هناك آخرون، أيضًا، ممَّن انجرَفوا إلى الميدان ليس لسبب آخر سوى الحريق والهمس الذي جرى تناقُلُه حول جريمة القتل. لم يكونوا بالتأكيد من سوهو أو من أيٍّ من الفئتين السابق الإشارة إليهما. فهم رجال في ثياب السهرة المُغطَّاة بالمعاطف، وبعضهم برفقة نساء؛ وهم طلاب عائدون على نحوٍ مُتأخِّر من بعض حفلات الشراب الخاصة التي يُحضر معه فيها كل ضيفٍ زجاجة خمر أو على الأرجح، من بعض النوادي الليلية «السرِّية» التي كانت لا تزال مُزدهرة، رغم التعتيم أو الجهود الجادة للسلطات.

وبينما هو على وشك الالتفات إلى الباب مرةً أخرى وقعت عيناه على شخصٍ يقف عند زاوية الميدان الفِعلي نفسه؛ شخص أصابَهُ وجوده هناك بصدمةٍ كبيرة، على الرغم من أن السبب وراء ذلك كان أكبر مما يمكن أن يشرحه لنفسه أو لأي شخصٍ آخر. إنه الرجل ذو العينين ذواتَي اللون الأزرق الثَّلجي الذي غادر مقهى ميلانو في نفس اللحظة التي دخل فيها بيل هاينس. وعلى نحوٍ فريد للغاية، بدت هاتان العينان الجذَّابتان بنحوٍ غريب، في التوهُّج المُثير المنبعث من النار، أفتح أكثر من أيِّ وقتٍ مضى؛ لقد برَزَتا عن وجه الرجل الجامد تقريبًا مثل عينَي قطة في الظلام.

وعلاوة على ذلك — ورغم اعترافه بأن ذلك ربما كان مجرَّد تصوُّر خيالي من جانبه — فقد بدا فم الرجل، على الرغم من أن بقية وجهه بدا وكأنه لا يُعبِّر عن أي شيء على الإطلاق، كما لو أن ابتسامةً مُتغطرِسة قد ارتسمت عليه. بدا الأمر كما لو أنه كان يقول لنفسه، وهو يشاهد جهود مكارثي والسيرجنت: «انظر إلى هذَين الأحمقَين الجاهلين؛ ما الذي يعتقدان أنهما سيُنجزانه؟»

رأى بطرف عينه الرجل يقترِب من الشرطي الذي كان يسعى لإبقاء الحشد في الخلف عند زاوية الميدان ويَطرح عليه ما بدا أنه سؤال. واستطاع مكارثي أن يرى أن الشرطيَّ قد أجابه على نحو مهذَّب، وبإيماءة عرفان مُقتضَبة استدار السائل وتحرَّك ببطء، وبمشيته شِبْه الوقحة، في اتجاه تشارينج كروس رود. وهذا كان آخر ما رآه مكارثي منه؛ إذ في تلك اللحظة اندفعَت سيارة شرطة من نفس الاتجاه إلى الميدان ووقفت على بُعد بضعة أقدام منه، فحجبت عنه رؤية الرجل. ونزل منها مدير مكارثي، برفقة كبير المُفتِّشين، وبما أن جرائم القتل في القسم هي من اختصاص الأول، كان مكارثي مُستعدًّا كي يتولَّى مديره التحقيق، في التوِّ واللحظة.

وبإعطاء هذا المسئول المُرهق عرضًا موجزًا ولكن مفصلًا لما حدث، اختتم تقريره بالقول إنه نظرًا لأن المدير سيَرغب بلا شك في تولي القضية، فإنه، شخصيًّا، سوف يعود إلى سريره ويسعى لتعويض هذا الوقت الذي فقَدَه.

لكن المدير بورمان هزَّ رأسه نافيًا. وقال: «لا أعتقد ذلك، يا ماك.» وأضاف: «نظرًا لأنك حضرت القضية منذ البداية، يُمكنك أيضًا تولي التحقيق فيها. على أي حال، سأُغادر لحضور مؤتمر غدًا، ولن أدع هذه القضية أو أي شيءٍ آخر يتعارَض معه. لذلك يُمكنك المضي قدمًا في هذه القضية وأنت مُتيقن من أنك لن تحصل على أي تدخُّل مني.»

كان هذا، في رأي المُفتِّش مكارثي، خبرًا جيدًا؛ جيدًا جدًّا بكل تأكيد. كان المدير رجلًا محبوبًا ومُهذبًا، لكنه رجل ذو أساليب عتيقة ومتقيد للغاية بالروتين واللوائح. وإذا كان مكارثي هو المُحقق المسئول عن قضية من بداياتها، فستُصبح قضية تتطلَّب شيئًا مختلفًا تمامًا عن الأشياء الروتينية التي يُطبقها المدير بورمان على القضايا ليس بنفسه فحسب، ولكنه يُلزِم، إذا طُلبت مشورته، الضابطَ المسئول بأن يُطبقها هو أيضًا.

لذا سأل بسرعة: «أنا سأتعامل مع هذه القضية بأسلوبي الخاص، أليس كذلك يا سيدي؟»

نظر إليه المدير بشيء من الشك للحظة. وقال: «ضمن الحدود المعقولة، يا مكارثي، أجل، بالطبع.» وأضاف بصرامة: «لكني آمُل ألا تَستخدِم أيًّا من أساليبك المنفردة تلك، والتي، في تسع مرات من أصل عشرة، تكون غير قانونية مثل أي شيء فعله المجرمون الذين تُطاردهم.»

أجاب المفتش بلُطف: «لن أفكر في القيام بأيِّ شيءٍ من هذا القبيل، يا سيدي.»

سأل المدير، متفاجئًا بنحو راضٍ بهذه الإجابة المريحة: «حسنًا، هل هناك أي شيء يمكننا فعله؟»

قال مكارثي بسرعة، بنبرةٍ مختلفة جدًّا في صوته: «أجل!» ثم أضاف: «أصدِر أمرًا بإخلاء هذا الميدان وأَعِرني سيارتك لبضع دقائق.»

قبل أن يكون هناك أيُّ رفض ممكن للطلب الأخير، ركب مكارثي داخل السيارة، وأمر سائقها بأن يتحرك، فسار بها ببطءٍ وصعوبة وسط الزحام في طريقه نحو تشارينج كروس رود.

وقال لسائق سيارة الشرطة: «قُدْ بهدوءٍ وتمهُّل.» وتابع: «هناك رجل معيَّن غادَرَ لتوِّه الميدان وأريد أن أجده وأُراقبه دون أن يشكَّ على الإطلاق في كونه مُراقبًا، هل فهمت مقصدي؟»

سأل السائق بحماس: «هل هو مُشتبه به في هذه القضية، أيها المفتِّش؟» على الرغم من أن عمله الرئيسي كان قيادة تلك السيارة بأيِّ سرعة، سواء كانت قانونية أو غير ذلك، يَطلُبها أي من يركب السيارة معه، فإنه يُصبح مُتحمِّسًا للغاية لمشاركته في تحقيقات جريمة قتل مهمَّة بنفس القدر الذي يكون لدى الرجل الجالس بجانبه الذي يَرتدي الزي الرسمي.

ولكن على الرغم من تحلِّيه في الغالب بروح الدماثة مع الجميع على اختلافهم، ولا سيما من هم دونه في الرتبة الرسمية، لم يُجب المفتش على السؤال، في الواقع، كان يسأل نفسه سؤالًا آخر وثيق الصلة جدًا بالموضوع.

لقد سأل نفسه بحدة: «والآن لماذا بحق الجحيم أتتبَّع هذا الرجل؟» وتابع: «بخلاف أنني قد رأيته مرة واحدة قبل الليلة ولفتَ شكله اهتمامي، أنا لا أعرف شيئًا عنه. وفي نفس اللحظة التي يتطلب فيها واجبي أن أتفحص تلك المنطقة وأحاول التوصُّل لمعلومة مفيدة من خلال الخنجر المُدبب والمنديل اللذَين أحملهما في جيبي، ها أنا أترك كل شيءٍ وأنطلق في هذه المطاردة التي لا طائل منها. هذا أمر غير منطقي؛ إنه مجرَّد «حدس» لعين لا معنى له، والذي ربما سيُؤدِّي إلى أي مكان، وعلى الأرجح لن يؤدي إلى أي مكان. إنه الشيء ذاته الذي حذَّرني رئيسي للتو من فعله، وها أنا ذا أفعله تقريبًا قبل أن يُخرج الكلمات من فمه! إن مثل هذا «الحدس» الجهنمي الذي يتملكني سيتسبَّب في سقوطي.»

الفصل الخامس

عندما تتعمَّق المأساة

على الرغم من هذا التنبُّؤ الكئيب، استقرَّ المفتِّش في السيارة وراقب عن كثبٍ جانبي تشارينج كروس رود. وإذ اعتادَت عيناه على الظلمة، رأى فجأةً الرجل الذي يُريده يسير غربًا عبر أكسفورد ستريت. لكن مكارثي لاحظ أنه على الرغم من سيره على نحوٍ مُتأنٍّ في ذلك الوقت، فلا بدَّ أنه قد سار بسرعةٍ جيدة للوصول إلى هذا المكان في الوقت الذي وصل فيه إليه.

فجأة — كان ذلك بعد أن اجتاز بيرنرز ستريت مباشرة — توقفت طريدته عن السير وتلفَّت حوله بنحوٍ حاد، وأخذ يُحدق في الطريق. لم يكن هناك شيء يُمكِن رؤيته سوى الضوء الخافت لسيارة أُجرة مُتأخِّرة وسيارة الشرطة التي، بناءً على تعليمات مكارثي، أُبقِيَت في منتصف الطريق. أخذ الرجل ينظر نحو الأخيرة باهتمام للحظة.

قال مكارثي كما لو كان يُحدِّث الرجل: «الآن، أتساءل عما إذا كانت عيناك الغريبتان قد رأتا هذه السيارة تأتي إلى الميدان؟» وتابع: «إنهما تبدوان من النوع الذي لا يفوتُه الكثير، رغم أنهما تبدوان مُحدقتَين مثل عينَي جثة. إن كانتا قد رأتها، فليس من الجيد إضاعة وقتي في مراقبتك من داخلها، وعلاوة على ذلك، سوف تُثير الشكَّ فيك، وهذا آخر شيء أريده.»

استأنف الرجل سيره مرة أخرى، وترك مكارثي في مأزق. كان سيُتابع مهمة المراقبة سيرًا على الأقدام، لكن نظرًا لأنه يَرتدي روبًا وخُفًّا منزليًّا، فإنه بالتأكيد لن يذهب بعيدًا دون أن يُدرك الرجل من الذي يَتبعه. وطوال الوقت، كان الشعور العميق والمُقلق يَتزايَد لديه بأنه لا يوجد أي حجَّة يمكن أن يُقدِّمها لتُبرر بأي نحوٍ إضاعة المزيد من الوقت على هذا الرجل المجهول تمامًا.

لكن مكارثي كان رجلًا عنيدًا للغاية، ونظرًا لأنه بدأ في اتِّباع حدسٍ ما؛ فقد كان يكره بالفعل تغيير خطته. ومع ذلك، وفي ظلِّ هذه الظروف، لم يرَ شيئًا آخر يدعو إلى استمرار المُراقبة، وكان على وشك أن يُخبر سائقه أن يَستدير ويعود إلى سوهو سكوير وإلى اتباع الروتين المعتاد عندما لاحظَتْ عيناه شخصًا غامضًا يتسلَّل من أكسفورد ستريت إلى زقاقٍ يؤدِّي إلى خلف صفٍّ مُعين من المحلات. في لحظة اخترقت عينا مكارثي الشبيهتان بعينَي النَّسر الظُّلمة بدرجة كافية لتحديد الشكل غير المُحدَّد. وحتى في ظلِّ هذه الظروف الصعبة، ما كانت لتُخطئ عيناه أنه واحد من «عملائه» المعتادين. وهنا بالفعل كانت المساعَدة المرسَلة من السماء.

فهمهمَ مُبتهجًا لنفسه: «آه، صديقي العزيز غير الموقر، «داني ذا ديب» (أي: «داني النشال»). إنه في رحلة البحث عن مكانٍ ما نسيَ أصحابه مشكورين وضع القفل على الباب الخلفي!» ثم أمر السائق بحدة: «توقف هنا»، وفي لحظةٍ خرج من السيارة إلى ظُلمة الزقاق. وبعد لحظة كان قد وضع يدَه على كتف اللص. وقال ناصحًا بلطف: «تعالَ، يا دانيال.» وتابع: «أنا شرطي طيب!»

كان السيد دانيال ريجان يعرف هذا الصوت جيدًا — في واقع الأمر، على نحو أفضل بكثير في الوقت الحاضر — مثلَما يعرف نبرات صوت والدته.

فقال شاكيًا: «أنا لم أفعل شيئًا، أيها المفتش.» وتابع: «لقد كنت أبحث فقط عن مكان للنوم. فأنا مُفلس تمامًا!»

قال المفتش: «إنها جريمة أن تكون مُفلسًا، يا دان، إنها واحدة من أسوأ الجرائم!» وأضاف: «لذلك أخشى أنه لا يُمكنك الخروج من الأمر بهذه الطريقة.» وأضاف وهو يدفع الجسد النحيف تجاه أكسفورد ستريت: «لكنِّي ربما أتغاضى عنه هذه المرة إذا وافقت على أداء مهمة صغيرة من أجلي.»

فردَّ على الفور: «سأفعل أي شيء، أيها المفتش!» وتابع: «لا أريد أن أعود للسجن مرةً أخرى – ليس الآن. لقد أخبرني القاضي في محكمة الشرطة في مارلبورا ستريت أنه في المرة القادمة التي سيراني فيها، سوف يُحكَم عليَّ «بعقوبة مضاعفة» وأنا لم أفعل شيئًا! حقًّا، لم أفعل! ما الذي تُريد منِّي فعله، يا سيدي؟»

قال مكارثي، مُشيرًا في اتجاه الشخص الذي يَسير أمامهما الآن على بُعدٍ كبير: «هل ترى ذلك السيد هناك؟» وتابع: «لا يُمكنُك، أنا أعلم، لكنه يُوجَد هناك رغم ذلك.»

«إذا كان هناك فسأَجدُه، يا سيدي. لا تَقلق بشأن ذلك. سأتبع صوت قدمَيه. يُمكنُني سماع صوت القطة وهي تسير في الظلام؛ فقد اعتدتُ على ذلك بسبب عملي.»

«أريد منك أن تُراقبه مثل ظلِّه حتى يذهب إلى المكان الذي يبيت فيه يا دانيال، وأريد إنجاز المهمة بنحو صحيح، وألا تتركه بمجرد دخوله إلى أيِّ مبنًى قد يَخرُج منه مرةً أخرى بعد خمس دقائق، عندما يَعتقِد أنه قد تملَّص منك. وما لم أكن مخطئًا كثيرًا، فأنت تُراقب رجلًا مُخادعًا للغاية، شخصًا سيتملَّص منك في الفرصة الأولى التي ستَسمَح له فيها بذلك. والآن، عليك أداء هذه المهمَّة من أجْلي وإتمامها بنجاح، ثم تُحضر لي تقريرك، أو الأفضل من ذلك، أبلغني به عبر الهاتف في وقتٍ مُبكِّر من صباح الغد وسوف أغفر خطاياك، في الماضي والحاضر، وليس هذا فقط لكنك ستَحصُل على عشرة شلنات أيضًا.» وأضاف على نحو مُشجِّع: «وربما أجعلها جنيهًا كاملًا إذا قمتَ بعملك على أكمل وجه.»

قال «داني ذا ديب» مُلتمِّسًا بتضرُّع: «هل يُمكنني أن أحصل على شلنَين كي أبدأ المهمة، أيها المفتش؟» وتابع: «فقط لشراء كوب من القهوة إذا سنَحَت فرصة أثناء المهمة؟ فأنا أتضوَّر جوعًا لدرجة أن أحشائي اللعينة تبدو وقد هبَطَت نحو ركبتيَّ؛ إنها تُؤلِمني بشدة.»

اقترض مكارثي من سائق سيارة الشرطة الشلنَين اللذَين قدَّمهما لصاحب المعدة الخاوية الذي انتزعهما بلهفة؛ وقد أظهرت النظرة الجائعة في عينَيه لمكارثي أن «داني ذا ديب» المخادع لم يكن يتلاعب به، لكنه كان بالفعل «مُفلسًا».

صاح مكارثي بسرعة، بينما بدأ الرجل الجائع يقتفي أثر الشخص الذي يسير بمفرده في مكانٍ ما على الجانب الآخر من الطريق: «هل تعرف رقم الهاتف؟» وتابع: «أعني، رقم هاتفي؟»

«لا أظن، أيها المفتِّش. أنا أعرف رقم هاتف سكوتلاند يارد.»

أعطاه مكارثي رقم هاتفه الخاص بسرعة، ثم غاب «داني ذا ديب» بعيدًا عن الأنظار في الظلام. تنفَّس مكارثي الصعداء عندما عاد إلى السيارة وأمر السائق بالعودة إلى الميدان عبر سوهو ستريت.

ثم قال في أسًى: «وها هو جنيه قد ضاع من راتبي الذي أكسبُه بشقِّ الأنفس! لماذا أفعل هذا بحق الجحيم لهو أكثر مما يمكن أن أُخبرك به.»

قال السائق مواسيًا: «حسنًا، يا سيدي، ليس عليك إعطاؤه هذا المال إذا لم يجلب لك شيئًا يستحقُّ عليه المكافأة.»

وافق مكارثي على ذلك قائلًا: «أنا ليس عليَّ ذلك، لكنني أعلم جيدًا أنني سأفعل ذلك! فأنا رجل طيب القلب.» واختتم كلامه بهدوء: «أتعْلَم، أنا أعرف جيدًا ما يَعنيه أن تجد نفسك مُفلسًا، وجائعًا.»

عندما عاد المفتش إلى سوهو سكوير وجده قد أخلي فعليًّا من الجماهير؛ إن الأساليب الاستبدادية، ولن نقول القمعية، للمُدير بالإضافة إلى ثقل وجود دزينة آخرين أو نحو ذلك من رجال الشرطة الذين يَرتدون الزي الرسمي، أقنعا بسرعة المجموعة الكبيرة للغاية أنه كلما ابتعدوا عن الطريق في أقرب وقت، كان ذلك أفضل بالنسبة لهم.

بالنسبة لأولئك الذين كان يرى مكارثي أنهم أشخاص مُنخرطُون في مَساعٍ، على أقل تقدير، مشبوهة، فإن نظرةً واحدة نحوهم من عينَي المدير بورمان الباردتَين والرماديتَين كانت تُعتبَر كافية للغاية. لقد انصرفوا في اتجاه الجحور التي يَسكنونها، قبل أن يُقرِّر أنه يُلقي باللائمة عليهم فيما يتعلق بشيء أو آخَر؛ والذي ربما كان شيئًا ما منذ فترة طويلة، وبالنسبة إليهم، كاد أن يُنسى. كان حكمُ مجرمي سوهو على بورمان هو أنه يبدو أنه لا ينسى أي شيء أبدًا؛ لا يُمكنك أن تأمن جانبه أبدًا.

حتى الجمهور في النوافذ العلوية قرَّر على ما يبدو أنه لن يحدُث أي شيءٍ آخر يُثير الاهتمام في تلك الليلة. كل ما استطاع مكارثي أن يراه بنحوٍ خافِت على ما تبقى من توهُّج النار عندما خرج من سيارة الشرطة، كان نصف دزينة أو نحو ذلك من المُتفرِّجين المُثابِرين الأكثر تصميمًا على معرفة ما يَحدُث في الأركان البعيدة للميدان، والمدير (الذي كان غاضبًا نظرًا لبقائه في انتظار سيارته)، وكبير المُفتِّشين، والسيرجنت واثنين من رجال الشرطة كانا سيَبقيان في الخدمة في موقع الجريمة أثناء الليل.

ومن ثم زمجر المدير قائلًا: «لقد تأخَّرتَ وقتًا طويلًا جدًّا، يا ماك.» وتابع: «ماذا كنتَ تفعل؟»

قال مكارثي برزانة: «ليس بالقدْر الذي كنتُ أتوقَّعُه»، ولم يُعلق على السؤال الذي وُجه إليه بعصبيةٍ نوعًا ما، ولكن له ما يُبرِّره تمامًا. فقد اكتشف منذ فترة طويلة أنه كلما تهرَّبتَ من أسئلته، قلَّ احتمالُ أن يسألك.

فاستطرد بورمان: «لا أرى أن هناك الكثير مما يُمكنُك القيام به هنا قبل حلول الصباح.» وأضاف: «سيَبقى هذان الرجلان في الخدمة طوال الليل ليتأكَّدا أنه لا يُوجَد أي تدخُّل في مسرح الجريمة. إنه لأمرٌ غريب بالنسبة لي كيف جرى التخلُّص من الجثة في الوقت الذي مر بين سماع تلك الصرخة ووصول الشرطة إلى هنا.»

وافق مكارثي على ذلك بقوله: «إنه أمرٌ غريب بالتأكيد.» وتابع: «لقد كنتُ أنا وشرطيُّ الدورية في مكان الحادث خلال دقيقتَين من وقوعه؛ حيث وصلنا في نفس الوقت تقريبًا. وهو تحرك سريع جدًّا عندما تأخُذ في اعتبارك عملية التعتيم وأنني كنتُ على وشك الخلود إلى النوم عندما انطلقت الصرخة. وبخصوص فعل أي شيءٍ هنا خلال هذه الليلة، أو، على وجه الدقة، تلك الساعات الأولى من الصباح، فأنا أتَّفق معك في أنه لا يُوجَد الكثير مما هو ممكن فعله. ومع ذلك، سأُلقي فقط نظرة للتأكُّد. على أيِّ حال، سآتي هنا قبل وقتٍ طويل من ظهور أيٍّ من شاغلي هذه المكاتب، وبالمناسبة فإن إلقاء نظرة فاحصة عليهم لن يُسبِّب أي ضرر.» ثم أضاف بسرعة موجهًا حديثه للسيرجنت: «بالمناسبة، هل وُضِع أيُّ شخصٍ للحراسة على المدخل الخلفي لهذا المكان؟»

قال له ذلك الضابط الكفء: «لقد فعلتُ ذلك، يا سيدي.» وتابع: «لقد وضعت رجلًا هناك لديه أوامر بالالتزام بمهمَّته تمامًا حتى يحلَّ وقت راحته ويُستبدَل آخَرُ به.»

أشاد مكارثي بذلك قائلًا: «هذا هو أسلوب العمل المثالي.» وأضاف: «ليس هناك من يُضاهي القسم «سي» في معرفتهم بعملهم، وأدائهم له!»

قال المدير: «حسنًا، سأُغادر المكان.» وتابع: «أَعلِم كبير المُفتِّشين بمجرَّد التوصُّل لأي شيء ملموس. طاب مساؤك.»

قال مكارثي وهو يهزُّ رأسه بغرابةٍ بينما تقلُّ السيارة رؤساءه خارج الميدان: «هذا هو الوضع، أيها السيرجنت.» وتابع: «دع كبير المُفتِّشين يعلم بمجرَّد أن تتوصَّل لأي شيءٍ ملموس في قضية لا يُوجَد فيها حتى يقين مُطلَق بوقوع جريمة قتل! بعبارة أخرى، اكتشف شيئًا مُحددًا، والذي لا يبدو أنه موجود، اسمح لي أن أعرف أي شيءٍ مُفيد وسأُقدِّم لك نصيحتي اللطيفة حول كيفية المُضيِّ قدمًا! تبًّا لهذا! عليك أن تَمتنَّ لكونك شرطيًّا ولستَ مُضطرًّا لأداء المهام التي لا تستهوي رؤساءك، وأن بإمكانك النوم عند الانتهاء من عملك. حسنًا، فقط ألقِ نظرة على رَجُلِك في الخلف. كيف تصلُ إليه؟»

أشار السيرجنت إلى زقاقٍ ضيق أبعدَ قليلًا عبر الميدان والذي يؤدِّي على ما يبدو إلى زقاق آخر، يمتدُّ موازيًا لذلك الجانب من الميدان، ويَستخدمه الكنَّاسون ومن هم على شاكلتِهم. وأثناء مرورهما عبره، رأى مكارثي على ضوء المصباح اليدوي للسيرجنت أن جدارًا مُرتفعًا يمتدُّ على طول جانب المنزل القديم. وهذا، في الزقاق المتقاطع، أدَّى إلى ظهور جدارٍ آخر أقل ارتفاعًا بكثير.

تمتم السيرجنت بغضب: «عجبًا أين هاربر بحقِّ الجحيم؟» وأضاف: «كان يجب أن يسمع خطواتنا ويخرج ليرى من يقترب، وأن يفعل ذلك بسرعة، في مهمةٍ مثل هذه.»

وقد خطرت الفكرة نفسها إلى مكارثي أيضًا. فذكر ذلك الضابط الغاضب قائلًا: «لقد تحركنا بهدوءٍ شديد، أيها السيرجنت.» وتابع: «مِن المُمكن أن الصوت لم يَخترق هذه الجدران السميكة؟»

قال الآخر بحدة: «ليس من المفترض أن يكون خلف الجدران. إن أوامري هي أن يُراقِب البوابة فقط وليس أي مكانٍ آخر. إنه ليس «مُبتدئًا» لا يَفهم الأوامر عندما تُعطى له.» وزمجر قائلًا: «سوف يَسمع منِّي تعنيفًا يخترق جُمجمته السميكة. لقد أكدتُ عليه بنحو خاص أن يُصبح في حالة تأهُّب لأي شيء.» ومن ثم أخذ مصباحه اليدوي وسلَّطه على طول الزقاق، حيث استقرَّ شعاعه على جسد الشرطي المُتكئ على عمود البوابة، وبالحُكم من خلال موقفه، المُستغرق في النوم!

شهق السيرجنت قائلًا: «حسنًا، سوف ...!» ثم قال: «إنه «نائم»! سأنهي خدمته من أجل هذا!»

وسارع مُتَّجهًا نحو الجسد الثابت.

وقال باستهجان: «ما هذا بحقِّ الجحيم، يا هاربر؟» وتابع: «أنت تستحقُّ العقاب، من أجل هذا! سأُحطمك ...»

قال مكارثي بصوتٍ هادئ: «اهدأ!» وأضاف: «أشكُّ إذا كنتَ سوف تُحطمه أنت أو أي شخصٍ آخر، أيها السيرجنت. انظر إلى وجهه؛ إنه ليس نائمًا. إنه «ميت»!»

الفصل السادس

ما بداخل المنزل

إنَّ القول بأن المُفتِّش المُحقِّق مكارثي قد فقد رباطة جأشِه وثباته المُعتادَين بسبب هذا الاكتشاف المُروِّع يُعتبَر تقليلًا تامًّا من مدى قُدرة هذا الضابط على التحكُّم في مشاعره، عندما أدرك الموقف على نحوٍ كامل. لقد احتاج الأمر إلى فحصٍ لمجرَّد لحظة على ضوء مِصباح السيرجنت اليدوي ليُقرِّر على نحوٍ قاطع أنَّ الشرطي المسكين لم يُقصِّر بأي حالٍ من الأحوال في أداء واجباته. بل على العكس، فقد طُعِنَ بلا شكٍّ ولقيَ مصرعه على الفور من قِبَل شخص لا بدَّ أنه تسلَّل بهدوء مُطلق خلفه، وعلى ما يبدو من الباب الخلفي للمنزل. في الواقع، لو لم يكن الشرطي هاربر قد ركز عقله بالكامل على الزقاق الذي أُمِرَ على وجه التحديد بمراقبته، لكان من المُحتمَل أن يَلتقِط صوت القاتل وهو يتسلَّل خلفه.

من الأشياء غير العادية في ذلك الحادث أنه لم يقَع على الأرض عندما اخترق النصلُ قلبَه، كما كان حدث بلا شكٍّ على الفور، ولكن، بطريقة غريبة، وغير واضحة في الحال، لا بد أن كامل وزن جسدِه قد ارتكن على نحوٍ جيد مُقابل عمود البوابة الصلب، الذي دعمه في وضع رأسي.

كما أنه لا جدال على الإطلاق في طريقة قتله؛ حيث أوضحتْها النظرة الأولى على ظهره بما لا يدع مجالًا للشك. إذ يُوجَد ثقب صغير على شكل مُثلَّث في ظهره العريض، مباشرة خلف قلبه، والذي لا يزال الدم ينزف منه ببطء، وكثافة. لا بدَّ أنه مات على الفور بدون أن تَرتعِش منه عضلة، ولم يظهر على وجهه، الذي تحوَّل إلى اللون الرمادي بفعل الموت؛ أي مظاهر للألم.

صدرت تنهيدة حزن من شفتَي مكارثي.

وقال: «يا لي من أحمق ملعون لأني لم أُدرك احتمالية استخدام ذلك الباب الأمامي كمهرب.» وأضاف: «لكن مظهرُه جعَلني واثقًا من أنه لم يكن كذلك. كان ينبغي أن يُصبِح

أول تصرُّف لي هو إرسال رجُلين لحراسة الباب الخلفي والتأكُّد من عدم اختباء أيِّ شخصٍ داخل المنزل.» تابع بحزن: «لو كنتُ قد فعلت ذلك، لما فقد هذا الرجل المسكين حياته.»

قال السيرجنت، بصوتٍ هامس بعض الشيء: «يبدو الأمر تقريبًا كما لو أنَّ جثة الشخص المقتول قد سُحِبَت إلى الداخل في نهاية الأمر. ليس بإمكاني إدراك أي طريقةٍ أخرى للتخلُّص منها في الوقت الذي أُتيح للقاتل.»

قال مكارثي: «يبدو الأمر كذلك بالتأكيد.»

ومن ثم أخرج مُسدَّسه الآلي من جيبِه وسحب صمام الأمان، ثم وجَّه المصباح اليدوي نحو الباب الخلفي. لقد كان الباب مُواربًا.

وغمغم قائلًا: «بناء على المعلومات المُتوفِّرة، ليس هناك الكثير من الشكِّ حول كيفية هروب القاتل.» وتابع: «منذ متى بالتحديد أرسلتَ هذا الرجل المسكين إلى هنا، أيها السيرجنت؟»

رد السيرجنت: «بعد ما يقلُّ عن دقيقة واحدة من انطلاقك في سيارة الشرطة، يا سيدي.» وأضاف: «كنتُ أعلم أن هذا هو ما كنتَ ستفعله بنفسك إذا ... إذا لم يكن لديك شيء آخر يدور في ذهنِك في تلك اللحظة تحديدًا.»

تأوَّه مكارثي قائلًا: «ذلك الحدس اللعين الذي دفَعَني لمراقبة ذلك الرجل.» وتابع: «في هذه الحالة، أيها السيرجنت، أيًّا كان مَن قتَل هاربر لا بدَّ أنه قد غادر المنزل، وارتكب الجرم وسار بهدوء عبر ذلك الزقاق إلى سوهو سكوير، بينما كان المدير بورمان، وكبير المفتشين وأنت تتشاورون عند الباب الأمامي. أظنُّ أنه لم يَمضِ على قتل هاربر عدة دقائق؛ إن يدَيه ليستا باردتَين حقًّا بعد.»

قال السيرجنت مُوافقًا: «لا بدَّ أن هذه هي المدة بالفعل.»

ومَضَ خاطر في ذهن مكارثي على الفور، وهو: أنه أيًّا كان من ارتكب جريمة القتل الثانية هذه، فمن المؤكَّد أنه ليس الرجل ذا العينَين ذواتي اللون الأزرق الثلجي. في الواقع، إنَّ سبب ارتباطه بالقضية بأيِّ نحوٍ أو هيئة، لَهوَ أمر يَصعُب على المفتش للغاية شرحه لأي شخص. ومع ذلك، فمن المؤكد تمامًا أنه ليس له صِلة بهذا الجزء الثاني المروِّع منها.

فقال: «علينا تفتيش المكان كله، أيها السيرجنت.» وتابع: «هذا على الرغم من أنني أخشى أننا لن نجد شيئًا.»

قال السيرجنت بعناد: «هناك احتمال كبير للغاية بأن نجد الجثَّة الأخرى في مكانٍ ما خلف ذلك الباب الأمامي.» وتابع: «على الأقل، أعتقد أن هذا الاحتمال موجود.»

قال مكارثي، مع قليل من الضجر: «ربما أنت على حق.» وأضاف: «لقد كنتُ مخطئًا بشأن فتح الباب؛ ربما أكون مخطئًا في ذلك أيضًا.»

ومن ثم، تقدم الطريق عبر ساحة صغيرة مرصوفة نحو ذلك الباب المُوارِب، وفتحه على مصراعيه ووجه المصباح اليدوي إليه. وبسبب شكله، كان من المستحيل الرؤية عبره حتى الباب الأمامي مباشرة، على الرغم من عُرضه؛ لأن السُّلَّم المؤدي من الردهة كان عريضًا على نحوٍ خاص ومحفورًا على نحوٍ رائع، وكذلك كان أيضًا الجزء الهابط منه نزولًا إلى قبو. وعبر الردهة كان هناك أيضًا عمودان يدعمان قوسَين مما ساعد كذلك على حجب الرؤية.

قال السيرجنت بينما يخطوان إلى الجزء الخلفي من الردهة: «ستُلاحظ، يا سيدي، أن هذا الباب الخلفي له قفل زنبركي.»

قال مكارثي: «هذا أفضل بكثير.» وتابع: «أغلِقه من بعدك. إذا كان هناك أي شخصٍ مُختبئ في القبو، بأيِّ حالٍ من الأحوال، سيُعيقه ذلك بعض الشيء عن الإفلات منا. على أي حال، سنبحث فيه أولًا، بعد أن نتأكد من وجودِ أو عدم وجود، حسبما قد يُحتمَل، جثةٍ في الردهة.»

وجَّه المُفتِّش المصباح اليدوي نحو الأرضية، بينما أخذت عيناه تبحثان عن بُقَع دم على المشمَّع القديم والبالي، وتقدم الطريق نحو الباب الأمامي العريض للغاية. لم يكن هناك أي علامة يمكن رؤيتها لأي شيءٍ خارج عن المألوف، وبالتأكيد لا شيء كان يُشير إلى أن ضحية أي مأساة قد تكون قد وقعت في الخارج، قد أُدخِلَت إلى داخل المنزل. لم تكن هناك قطرة دم واحدة يمكن رؤيتها، إلا في مكان واحد: على الحافة الخارجية من مِمسَحة الباب الغائرة، التي تمتدُّ أمام الباب وتحته قليلًا. من الواضح أن ذلك الدم قد نزل من الجانب الخارجي للباب وشقَّ طريقَه تحته.

سأل مكارثي بهدوء: «حسنًا، هل أنت راضٍ الآن عن فرضية إدخال الجثة إلى الداخل؟»

على ضوء المصباح اليدوي، حدَّق السيرجنت وهو غير قادر على الرد في ممسحة الباب العريضة، وفي ذلك الجزء من الردهة الذي يقع بينها وبين السُّلَّم. كانت الأدلة التي رأتها عيناه لا تقبل الجدل؛ بالتأكيد لم يدخل أي شيء، أو أي شخصٍ كان ينزف، كما لا بد أنه كان عليه الحال، من خلال هذا الباب.

قال مكارثي، لكن بدون صلف: «أرأيت، أيها السيرجنت، فليكن درسًا لك ألا تجزم أبدًا بوقوع أي شيءٍ دون أن تراه بعينَيك، عندما يتعلق الأمر بجريمة قتل. لقد كنتُ

متأكدًا من أن الباب لم يُفتح أبدًا، على الرغم من أن سبب تأكُّدي كان أكبر مما يُمكنني أن أُخبرك به في الوقت الحالي. لكنني كنتُ متأكدًا، وكنتُ مخطئًا. وأنت كنتَ متأكِّدًا تمامًا من أن الجثة قد أدخلت من خلاله؛ وأنت، أيضًا، كنتَ مخطئًا. يُمكنك أن ترى بنفسك كيف كان من المستحيل تمامًا فعل ذلك دون ترك، على الأقل، بُقعة دم أو علامة تدلُّ على ما حدث أو ما شابه.»

ثم أولى اهتمامه للقفل الصندوقي العتيق الضخم للباب؛ الذي بدا مِن حَجمِه وثقلِه، بنحو عام، أنه ربما هو القفل الأصلي الذي جرى تركيبُه عندما بُني المنزل. لا بد أن مفتاحه كان ضخمًا، لكن لم يكن هناك أي أثر له على الرغم من أن الباب كان مغلقًا. كما ثُبِّت الباب بمزلاجَين حديديَّين كبيرَين، الأول بالأعلى والآخر بالأسفل، وكلاهما كانا مُغلقَين. كان هناك قفل زنبركي مُثبَّت فوق القفل القديم.

علق المفتش قائلًا: «كنا سنَجِد صعوبةً في اقتحام المكان هنا.»

قال السيرجنت مُوافقًا: «كنا سنجد بالفعل صعوبة، وهذه حقيقة، وكان سيتحتَّم علينا الدخول عن طريق إحدى النوافذ.» ثم قال مُصحِّحًا لنفسه: «رغم أنه، بالطبع، سيكون هناك الباب من تلك المنطقة حيث وجدت السكين والمنديل.»

قال مكارثي: «كنا سنجدُه مُغلقًا بإحكام مثل هذا، بلا شك.» وتابع: «على أي حال، نظرًا لأننا هنا، فمن الأفضل أن تُنادي من خلال ثقبِ المفتاح على الشرطي المناوب بالخارج، وتجعله يطلُب إرسال الطبيب الشرعي وعربة الإسعاف لنقل جثة هاربر إلى المشرحة. من الأفضل أن يطلُب من مفتِّشك إرسال المزيد من الرجال إلى هنا في نفس الوقت. أخبره أن يأمرهم بأن يحضروا إلى الباب الخلفي بأقل قدْر مُمكن من الجلبة — وأن يؤكِّد عليهم، أنه لا يجب على أيٍّ منهم، تحت أيِّ ظرفٍ من الظروف أن تطأ قدَمه داخل تلك البوابة الخلفية حتى تُتاح لي الفرصة أن أفحص هذه الأرضية في وضح النهار.» وأضاف بسُرعة بينما كان السيرجنت ينحني ليفتح غطاء فتحة بريد كبيرة إلى حدٍّ ما لاستخدامها في نقل تعليماته: «وعلاوة على ذلك، ومن أجل الرب، أخبره بأن يُبقي يدَيه بعيدًا عن الباب، وأن يَحرص على عدم السماح لأي شخصٍ آخر بلمسه. فقد يُنبئ فحصه أيضًا عن شيءٍ عندما تسنَح لي الفرصة لذلك في وضح النهار.»

وبعد أن نقل هذه التعليمات بدقَّة، وفي الواقع بلهجة قتالية تقريبًا، عبر الصراخ من خلال ثقب المفتاح للرجل في الخارج، استدار السيرجنت مرةً أخرى إلى مكارثي.

وسأل: «ماذا بعد يا سيدي؟»

كان المُفتش يولِي اهتمامه لقفل بيل الحديث تمامًا الموجود في الجزء العلوي من الباب.

وقال: «كان هذا هو طريقة الدخول، بالطبع.» وتابع: «إنَّ القفل الكبير، في جميع الاحتمالات، لا يُستخدم على الإطلاق؛ إنه أداة خرقاء، وعتيقة تمامًا.» وأضاف: «على الرغم، بالطبع، من أن هناك احتمالًا أن يقفل كنوع من الحماية الإضافية كآخِر شيء في المساء من قبل عامِلتَي النظافة عند مغادرتهما. وربما تخرجان من ذلك الباب الخلفي، والشاب الذي تحدثت عنه يدخل من نفس الباب.»

لكن السيرجنت هزَّ رأسه نافيًا.

وقال، وهو مُتأكد للغاية: «كلَّا، يا سيدي، كلتا الخادمتين تُغادران من الباب الأمامي لأنني رأيتهما، ورأيتُ أيضًا الشاب يدخل من الباب الأمامي في الصباح.»

قال مكارثي بتأمُّل: «حسنًا، في هذه الحالة، ليس من المحتمَل استخدام هذا القفل الكبير وهذَين المزلاجَين على الإطلاق. لذا يبدو أن الوضع، في ظاهره، هو كالآتي. إذا مرَّ الرجل الذي ارتكب الجريمة في الخارج من هذا الباب، فلا بد أنه دخل بواسطة مفتاح القفل، ثم استخدم هذا المفتاح في فتح القفل الكبير، وأغلق المزلاجَين. والسبب في ذلك واضح وهو لكسب الوقت إذا حاولَتِ الشرطة، عند وصولها بسرعة فور سماع الصرخة، الدخول إلى هنا بالقوة. وعندما وجد أنها لم تصِل، وأن لدَيه الوقت للتصرُّف على نحوٍ هادئ، ظلَّ هادئًا في مكانه، حتى ظن أنه من الآمِن الخروج والهروب من الباب الخلفي ثم عبر ذلك الزقاق.

إن الاحتمالات هي أنه كان هناك سبب آخر جعلَه يَنتظِر قليلًا قبل أن يغامر بالخروج. ففي ذلك الوقت، كان الوهَج من النار في ذُروته وربما ظنَّ أنه من الحكمة أكثر أن يَختفيَ لبعض الوقت كي لا يتعرَّف عليه أحد في الوهَج. وعندما وجد أخيرًا الفرصة سانحة للهروب، اكتشف وجود هاربر في الخدمة عند البوابة الخلفية. ولكي يخرج تَوجَّب عليه أن يقتله؛ وهو أمر ليس صعبًا للغاية بالنِّسبة لرجلٍ ماهر في استخدام السكين، مثلما تُظهِر الأدلة أنه كان كذلك. بعد ذلك يُصبح من السهل نسبيًّا الابتعاد عن هذا المكان، أو حتى الاختلاط بالحشود ومشاهدة الأحداث.»

اعترض السيرجنت قائلًا: «لكن ... لكن هاربر لم يَمُت قبل أكثر من دقيقتَين أو ثلاث دقائق من عثورنا عليه.»

قال مكارثي: «تقريبًا، لكن رجلًا في عجلةٍ شديدة من أمره يُمكنه أن يبتعِد لمسافة طويلة خلال هذه الفترة. من الوارد تمامًا أنه تسلَّق السياج على الجانب الآخر من الزقاق، وهرب بهذه الطريقة.»

قال السيرجنت، وهو يتصوَّر خريطة الحي في ذهنه: «هذا ممكن.» وتابع: «إن بإمكانه النزول والذهاب إلى تشابل ستريت إذا كان على دراية بالمكان.»

قال مكارثي: «أظن أننا يُمكن أن نُسلِّم بأنه قد فعل هذا.» وتابع: «سوف نتفحَّص المكان.»

لقد وجدا الغُرَف في الطابق الأول كلها مُغلقة، وذلك وفق ما توقَّع مكارثي؛ وبدا أن الغرفة التي على يمين الداخل من الباب الأمامي مباشَرةً هي غرفة إدارة المكان. وهذه، أيضًا، كانت مغلقة.

قال مكارثي: «وأظنُّ أننا سنجد جميع الغُرَف في كل الأدوار التالية مُغلقة كذلك.» وتابع: «إذا كانت هناك لوحة للاحتفاظ بنُسَخٍ احتياطية من مفاتيح المكاتب، أو حتى مفتاح رئيسي، فستكون في هذا المكتب، وما لم نكسر جميع الأبواب، وهو ما لا أقترح فعله، فليس أمامنا المزيد لفعله، بخصوص هذه المكاتب.» وأضاف، مع الْتماعةٍ في عينَيه: «لسوء الحظ، لم أُحضِر معي طفاشتي الصغيرة.»

قال السيرجنت، على نحوٍ غير واثق: «يُمكننا كسر باب هذا المكتب ونرى ما إذا كان هناك مفتاح رئيسي.»

قال مكارثي على نحوٍ حاد: «نكسر باب مكانٍ بدون الحصول على إذن رسمي!» وتابع: «أنا مُندهِش من قولك هذا، أيها السيرجنت! ومُندهِش أكثر من أنك تتحدَّث عن مكانٍ لا تبدو عليه علامة واحدة بأن جريمة قد ارتُكِبت فيه. هل ترى أي بُقَع من الدماء، أو ثقوب رصاصات عبر الباب أو أي شيء آخر يُبرِّر القيام بمثل هذا التصرف؟»

رد السيرجنت في إحراج: «كلَّا، يا سيدي.»

هز مكارثي رأسه، كما لو كان حزينًا للغاية من مجرَّد التفكير في مثل هذا الانتهاك.

وقال مُحذرًا: «عليك أن تكون حريصًا في تصرُّفاتك، أيها السيرجنت.» ثم أضاف: «بعد واحدة أو اثنتَين من هذه الهفوات الصغيرة، ستسوء سُمعتك مثلما ساءت سُمعتي لدى رؤسائك. سنجرب تفتيش القبو؛ لا أظن أنه سيكون مُغلَقًا بإحكام.»

وبعد نزول السُّلَّم وجدا مجموعة من الغُرَف والتي لا بدَّ أنها فيما مضى كانت تُستخدَم كمطبخ وغيره من غرف الخدمات المنزلية للمنزل العتيق. ومن خلال المنظر الذي بدَت عليه لا بد أنها كانت جُحورًا مظلمة في أفضل الأوقات، أما في اللحظة الحالية فهي تبدو كزنزانات سجن. لقد كانت كل أبوابها مفتوحة على مصاريعها ولم تكن تحتاج سوى إلى نظرة سريعة لإدراك أنها تمتلئ بأشياء مُهملة من كل نوع، والتي غطاها التراب

عبر السنين. وفي رأي مكارثي لم يكن بها ما قد يُفيد البحث في هذه القضية، لكن، قبل أن يصعد السُّلَّم للأعلى مرة أخرى، تفحَّص الأرضيات التي بجانب الأبواب بعناية، فوجدها أيضًا مُغطَّاةً بطبقةٍ سميكة من الأتربة لدرجة أنَّ أي خطوةٍ حديثة عليها كانت ستبدو واضِحةً للغاية كما لو أنها قد حفرت فيها.

ومن ثم قال على نحوٍ توجيهي: «لم يدخل أحد إلى أيِّ هذه الغُرَف في هذه الليلة، أيها السيرجنت.»

في تلك اللحظة صدرت صافرة شرطة عند الجهة الخلفية من المنزل، وهي الإشارة التي اتَّفق عليها السيرجنت لإعلامهما بوصول الطبيب الشرعي وسيارة الإسعاف.

قال السيرجنت بثقةٍ تامة، وبلُغة ركيكة: «ها هم.»

فأسرع مكارثي صاعدًا السُّلَّم، ثلاث درجات في كل خطوة.

وهو يقول بحدة: «أسرِع في فتح الباب الخلفي، قبل أن يبدءوا في مسح كل آثار الخطوات بين الباب والبوابة الخلفية بأحذيتهم الثقيلة!» وأضاف: «وعندما تخرج، احرِص على السير على جانبٍ واحدٍ من المسار ولا تترك أي آثار أقدام.»

ألقى الطبيب الشرعي نظرة واحدة على ذلك الجزء من ظهر القتيل هاربر الذي أُضيء بضوء المصباح اليدوي.

وقال: «أنا لا أعلم ما المُفترَض بي بحقِّ الجحيم أن أفعل هنا»، عندما قاطعه مكارثي.

وقال بنبرة ساخرة: «الآن، أيها الطبيب، يا عزيزي، لا تبدأ في التذمُّر بمجرَّد وصولك إلى هنا.» وتابع: «أعلم أنه الامتياز الحصري الخاص بمِهنة الطب والذي يَقضي بأن تُستدعى من فراشك الوثير الدافئ، ولكن كبدايةٍ هناك نقطة أو اثنتَين أريد أن أستوضحهما منك.»

قال الطبيب الذي جرَت تهدئتُه بعض الشيء: «لعَنَني الله إذا أدركتُ ما هما، فحسبما فهمت الأمر، أنت وجدتَ الرجل خلال دقائق قليلة من قتله؛ ومن ثم أنت تعرف وقت الوفاة جيدًا مثلما أعرفه أنا. ومن الواضح تمامًا أنه قد طُعن، ويُمكن لأي رجل تحقيقات جنائية أن يُدرك ذلك.»

قال مكارثي: «آه، ولكن بماذا، أيها الطبيب؟ هذه هي النقطة.»

– «ماذا تظن أن تكون الأداة التي قد طُعن بها، شفرة آلة حلاقة؟»

قال مكارثي، دون أن يلاحظ السخرية: «إذا ألقيتَ نظرة فاحصة وليس لمحةً سريعة على ما يمكن رؤيته من هذا الجرح، فستُلاحظ أنه ثلاثي الزوايا، وهذا يظهر بوضوحٍ شديد على القطع الحادث في القماش الثقيل لزي الشرطة.»

قال الطبيب، وهو ما زال مُعاندًا: «أستطيع رؤية ذلك.» وتابع: «ماذا عنه؟»

«أريد أن أعرف نوع السلاح، في رأيك، الذي قُتل به الرجل المسكين.»

أخرج الطبيب من جيبه عدسةً مكبِّرة وتفحَّص الجرح عن قرب.

ثم قال مؤكدًا: «خنجر ثلاثي الحواف، بلا شك.» وأضاف: «هذا واضح للغاية. وفي رأيي أن له سنًّا حادَّة، اخترقت القلب وسبَّبتِ الموت على الفور.»

أخرج مكارثي من جيب الروب الذي كان يَلبسه بعنايةٍ الخنجر الذي وجده أمام المنزل.

وسأل بهدوء: «هل يُمكن أن يكون هذا هو السلاح، أيها الطبيب؟»

أمسك الطبيب الخنجر المُدبَّب بحِرصٍ من مقبضِه، وتفحَّصه. وقال: «يُمكن أن يكون هو، وأنا أميل إلى أن أقول إنه هو.»

هز مكارثي رأسه. ثم قال: «وفقًا للتسلسُل الزمني للأحداث حسبما وقعت، أيها الطبيب، لا يمكن أن يكون هو السلاح الفعلي.» وتابع: «لقد عثرتُ على هذا قبل نصف ساعة، تقريبًا، من مقتل هاربر مطعونًا، هنا.»

قال الطبيب: «إذن إن لم يكن هذا هو السلاح الفِعلي، فقد قُتل بسلاحٍ مُشابه له كثيرًا.» وأضاف: «بالمناسبة، هل تُريدني أن أجريَ اختبارًا على عينةٍ من الدماء التي على السلاح؟»

قال المفتش: «هذه فكرة جيدة.» وتابع: «سأطلب فحص البصمات التي عليه وأرسله إليك في الحال. لا داعي لأن نَستبقيك هنا لمزيدٍ من الوقت، أيها الطبيب. يُمكنك أخذ الجثة إلى المشرحة بمجرد أن تُصبح مُستعدًّا. هل ستُجري التشريح الليلة، أو بالأحرى هذا الصباح؟»

غمغم الطبيب: «عليَّ فعل ذلك.» وتابع: «أريد أن أنتهي من الأمر، وإن كنت محظوظًا فقد أحصل على القليل من الإفطار في هدوء، حتى لو لم أستطع الحصول على أيِّ قدرٍ من النوم.»

قال مكارثي، بينما كانت تَنصرِف عربة الإسعاف ومن خلفها السيارة الصغيرة ذات المقعدَين الخاصة بالطبيب خارج الزقاق: «حسنًا، أيها السيرجنت، أظن أنني على وشك الانتهاء من العمل هنا الليلة.» وتابع: «ضع اثنَين من الرجال هنا، في الخلف والأمام، وأنا أعني بذلك اثنين عند كل نقطة، والتعليمات هي عدم عبور البوابة هنا عند هذه النقطة أو عدم لمسِ الباب الأمامي عند النقطة الأخرى. سأَحضُر إلى هنا في الصباح الباكر لمقابلة

ذلك الشاب الذي يفتح المكان. وعندما أقول اثنَين من الرجال، فأنت تعلم أنني أهدف من ذلك إلى عدم تكرار الحادث الآثم الذي وقع لهاربر.»

سأل السيرجنت بسرعة: «هل تظنُّ أن هناك أي احتمالٍ لحدوث ذلك، أيها المفتِّش؟»

قال مكارثي: «أنا لن أُغامر بترك الأمر عرضةً للظروف.»

تمتم السيرجنت وهو يُفكِّر، بينما يقطعان طريقهما عبر الزقاق عائدَين نحو سوهو سكوير: «إن الأمر يُمثِّل لغزًا بالنسبة إليَّ.» وتابع: «ما الذي حدث لتلك الجثة، تلك التي ذُبحت في الأمام، هذا ما أعنيه؟» وأضاف، مع قليلٍ من الخبث: «حسبما أظن أنك مُقتنع بأن من ذُبح هناك هو إنسان، وليس كلبًا ذُبح بوحشية، أو شيء من هذا القبيل.»

قال مكارثي بثبات: «بكل تأكيد.» وتابع: «كان بإمكاني أن أخبرك آنذاك أن من قُتل هو إنسان، وعلاوة على ذلك، أن وريده الوداجي وربما شرايين رئيسية أخرى قد قُطعت.»

شرع السيرجنت في القول: «إذن لماذا»، عندما واصل مكارثي كلامه.

«كل ما حاولت توضيحه لك، أيها السيرجنت، هو أنه ليست هناك «أدلة» مرئية وفعلية على أنها جريمة قتل، وفي واقع الأمر، الأمر لا يختلف الآن. لكن قطع الوريد الوداجي لإنسان، أو على أي حال شريان رئيسي به، كان هو الشيء الوحيد الذي يُمكن أن يتسبَّب، ليس فقط في إراقة كمية الدم التي أريقت، ولكن أيضًا في الطريقة التي تَناثَر الدم بها. وفي هذا الخصوص، لقد تجلَّط الدم وتجمَّع على حافة نصْلٍ من الأنصال الشبيهة بشَفرات الحلاقة الخاصة بالخنجر المُدبَّب هذا وليس على سِنِّه، مثلما كان سيحدُث من خلال طعنة، مثل تلك التي أودَت بحياة هاربر.

وهذا يُظهر أن الضحية قد نُحرت بعُنف، وهو ما يقترح ثانية الضغينة أو ربما الانتقام، كدافع للجريمة، وهو ما ليس مُتوافرًا بالتأكيد في حالة هاربر. وهناك أمر أخير وهو أن جو موقع الجريمة كان يفوح برائحة عطرٍ عندما وصلت إليه، وفي رأيي هو عطر باهظ الثمن. ولم يكن قد مر عليه وقتٌ طويل آنذاك كي يتطاير وتختفي رائحته. وليس من عادة الرجال، حتى الأجانب من الطبقة المتأنِّقة، أن يضعوا العطور في هذه الأيام.»

قال السيرجنت باقتناع: «أعلم أن تلك الصرخة قد صدرَت عن امرأة.»

قال المُفتش بحدة: «لقد أوضحتُ لك مرة قبل ذلك في هذه الليلة أنه من المُحتمل ثبوت أن القاتل هو امرأة. رغم أنني مُلزَم بقول إنه ليس احتمالًا كبيرًا.» وتابع: «حسنًا، لقد حصلنا على الشيء «الملموس» الذي أراده المدير، حتى ولو كان فقط بخصوص جريمة قتل هاربر المسكين. ولكن رغم ذلك لم يذهب كل عملنا هباءً. فالآن بعد أن عِلمنا أن الباب

الأمامي قد استُخدم في الدخول، أصبح لدينا شيء مُحدَّد نعمل عليه، وهو «شيء» مفيد للغاية بهذا الصدد.»

حاول السيرجنت أن يعلق قائلًا: «أنا فقط لم أفهم»، عندما قاطعه مكارثي.

وقال: «نحن نعلم أن أيًّا كان من هرب من الميدان عبر هذا الباب، كان معه مفتاح القفل الذي مكَّنه من دخول المكان. وهذا يُضيِّق نطاق الاتهام في دائرةٍ صغيرة نسبيًّا من الناس. ووفقًا لكل القواعد، أيها السيرجنت، فإن هذه الحقيقة لا بد أن تضع شخصًا ما في قفص الاتهام نتيجة لارتكابه هذه الجريمة، إن آجلًا أم عاجلًا.»

قال السيرجنت مُقرًّا على نحوٍ سريع: «إنها يجب أن تفعل هذا.» وأضاف: «أنا لم أفكر في هذا على وجه التحديد، أيها المُفتِّش.»

واصل مكارثي الحديث بنفس نبرته الساخرة: «لكن الأمر الذي يُؤسَف له بخصوص جرائم القتل، أيها السيرجنت، أنها لا تُرتكَب أبدًا وفقًا لأي قواعد. فالأمر الذي تظنُّ بكل ثقةٍ أنه سيحدُث هو عمومًا آخِر شيء يَحدُث. وإذا حدث خلافَ هذا في هذه القضية، فهو سيُصبِح الاستثناء الذي يثبت القاعدة.»

الفصل السابع

«داني ذا ديب» يظهر

بدأ المفتش مكارثي، دون الاستعانة بالمصباح اليدوي الخاص بالسيرجنت، تَلَمَّس طريقه عائدًا في اتجاه منزله. وقد أُطفئ بفضل جهود رجال الإطفاء أي أثر لنيران الحريق كان من الممكن أن يسترشد به. ولم يكن قد ابتعد كثيرًا جدًّا عندما ارتطم بجسدٍ بشري صلب للغاية والذي، بعد الاستفسار المتبادل، تبيَّن أنه الشرطي الذي رقم طوقه ١٢٨٥ والتابع للقسم «سي»، والذي عاد مرة أُخرى إلى دوريته.

ونظرًا لأن الشرطي كان بحوزته مصباح يدوي، والذي، بالمناسبة، لا تسمح له اللوائح باستخدامه إلا في وقت الطوارئ فقط، فقد استعاره المُفتِّش منه، وواصل الاثنان طريقهما جنبًا إلى جنبٍ باتجاه وسط جريك ستريت إلى أن اضطرَّ المُفتِّش إلى تغيير اتجاهه من هذا الشارع الرئيسي.

وقال الشرطي بعد لحظة: «إنها قضية غريبة تلك التي وقعت الليلة، يا سيدي.»

أجاب مكارثي على نحوٍ دمث: «إنها غريبة على نحوٍ استثنائي.» وتابع: «إنَّ قضايا مثل هذه هي التي تُبقِينا مُستنفَرين، وبالتبعية» — وكتم تثاؤبه — «خارج أسرتنا.»

قال الشرطي: «لقد تمكنت من اكتشاف أن هناك مركبةً واحدة قد خرجت من سوهو سكوير، ولا بد أنها قد مرَّت به في نفس وقت انطلاق الصرخة تقريبًا.» وتابع في شك: «هذا إذا كان بإمكاننا أن نُطلِق عليها كلمة مركبة.»

سأل مكارثي بسُرعة: «وماذا كانت؟»

قال الشرطي: «عربة القهوة الخاصة بالعجوز جو أنسيلمي.» وتابع: «إنه أمر مُعتاد، على الرغم من أنه، بصفةٍ عامَّة، يمرُّ بها عبر الميدان مع اثنين من المُساعِدين عند حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف. لكنه، هذه الليلة، تأخَّر لسببٍ أو لآخَر، أظنُّ

أن الشابَّين اللذَين يُساعِدانه عادةً في جرِّ العربة إلى منزله لم يأتيا ولا بدَّ أنه قد انتظر حتى قبل الساعة الواحدة، وعندئذٍ اضطُرَّ إلى جرِّها بنفسه، وهي مهمَّة صعبة على رجل عجوز.»

أومأ مكارثي برأسه. فقد كان يعرف العجوز جو أنسيلمي جيدًا؛ كان يعرفه منذ أن كان هو نفسه صبيًّا يتجول في أنحاء سوهو. فهو رجل عجوز مُحترَم يعمل بكدٍّ واجتهاد، كما أنه كاثوليكي قوي الإيمان ومُخلص، ومن غير المُحتمَل بالتأكيد أن تكون له صلة بجريمة على أيِّ نحوٍ أو أي صورة كانت.

ومن ثم قال: «من المؤكَّد أنها كانت مهمَّة شاقَّة على الرجل العجوز أن يجر عربةً خشبية مثل هذه بمفرده.» وتابع: «وهل غادر الميدان عند الوقت الذي أشرتَ إليه؟ وأي الطرق سلك؟»

قال الشرطي: «عبر ساتن ستريت إلى تشارينج كروس رود.» وتابع: «إن مكانه المُعتاد، كما أظن أنك تعلم، أيها المفتِّش، عند زاوية بالقُرب من دينمان ستريت.»

قال مكارثي: «أعلم ذلك.» فقد توقف في العديد من المرات أثناء جولاته الليلية عند عربة العجوز لتناوُل فنجانٍ من القهوة والثرثرة حول الأيام الخوالي في سوهو. وعلى نحو مؤكَّد فإن العربة المُتنقِّلة الثقيلة هذه من غير المفترَض أن تكون لها صلة بأي نحو بالجريمة التي وقعت في سوهو سكوير.

وبعد أن وصلا إلى الزاوية التي اتَّجه عندها المفتِّش يَمينًا ليذهب إلى دين ستريت، بينما اتجه الشرطي يسارًا باتجاه فريث ستريت وفق خط دوريته، تفرَّقا.

وقال مكارثي: «تعال إلى مسكني في الصباح من أجل تناول بعض القهوة واستعادة مصباحك اليدوي.» وأضاف: «فمع نوع الحظ الذي يُلازِمني هذه الليلة كان يجب أن تنكسر عنقي بدون مساعدته قبل الآن. طاب مساؤك.»

وبداخل غرفته مرة أخرى خلع الروب واستعدَّ للنوم؛ حيث كان يتوجَّب عليه الخروج في الصباح الباكر وهو صافي الذهن للذهاب إلى موقع الجريمة قبل أن يصِل من يعملون بتلك المكاتب الغريبة إلى هناك. وللحظةٍ دار بذهنه أن يُجريَ مكالمة عبر الهاتف مع بيل هاينس، لكنه عدل عن ذلك. ونظرًا لمعرفته بحماس المفوض المساعد فيما يتعلق بالجرائم الغامضة مثل هذه التي ارتكبت للتو، فمن المُحتمَل أن يقضي كل الوقت المُتبقي له كي يحصل على بعض النوم في الثرثرة عن كل ما حدث خلال تلك الليلة مرةً أخرى.

وبعد أن بدا أنه استغرق في النوم لمدة خمس دقائق فقط رنَّ الهاتف بجواره على نحوٍ أيقظه. ومن ثم انتفض ونهض وأضاء مصباحه، ونظر في ساعة يدِه ليكتشف أن الساعة قد أصبحت الخامسة، فرفع سماعة الهاتف.

وقال بحدة كانت طبيعية في صوته: «ما الأمر الآن؟»

فأُبلِغ أن المتحدث هو المفتش المسئول بمقر القسم «إس»، في منطقة جولدرز جرين.

ردَّد مكارثي: «جولدرز جرين!» وأضاف: «وما الذي، بحق السماء، تريده مني جولدرز جرين، أيها المفتش؟»

جاءه الرد: «هناك حادث غريب وبشِع إلى حدٍّ ما وقع لدَينا أيها المفتش.» وتابع: «لم نكن لنُزعجك لولا حقيقة أن هناك رجلًا يُدعى ريجان مُتورط فيه؛ دان ريجان، والذي نعلم أنه نشَّال من ويست إند.»

قال مكارثي بحدة: «داني ذا ديب!» وأضاف: «ما الأمر بخصوصه؟»

قال الرجل: «إنه يُخبرنا بقصة يصعُب تصديقها بعض الشيء أيها المفتش.» وتابع: «يقول إنه كان يؤدِّي مهمة خاصة من أجلك عندما أُفقِد وعيه في بارك لين. الأمر التالي الذي أدركه عندما أفاق أنه كان يتجوَّل في مُتنزَّه هيث. وهو لم يعلم مكان وجوده، وظنَّ أنه في هايد بارك. وقد عثر عليه أحد رجالي في الدورية يتجوَّل بالقُرب من فيل أوف هيلث، وأحضره إلى القسم. وهو في حالة تشوُّش تام للذهن، وفي رأيي أنه قد أُعطي جرعةً من شيءٍ أو آخر. فهو يبدو غير مُدرِك لما يقوله، لكنه يصرُّ على رواية أنه كان يؤدِّي مهمة من أجلك.»

قال مكارثي: «إنه على حقٍّ تمامًا، أيها المفتش.» وتابع: «لقد تركته في أكسفورد ستريت يؤدي عملية تتبُّع ومُراقبة من أجلي. ألا يُمكنه تقديم أي تفسيرٍ لما حدث له؟»

أجابه الرجل على الفور: «لا شيء مما قد يبدو منطقيًّا.» وأضاف: «وهناك جانب آخر للأمر أيضًا: فهو مُغطًّى بالدماء؛ بقدرٍ يفوق ما قد ينتج عن الجرح الناتج عن الضربة التي تلقَّاها بلا شك على رأسه.»

قال مكارثي في أسف: «إنَّ ذلك الشيطان المسكين قد تورَّط في مشكلةٍ كبيرة في مكانٍ أو آخر.» وتابع: «إنه أمر سيئ للغاية؛ سيئ للغاية، على نحوٍ كامل.»

قال الرجل: «هناك أمر أسوأ من ذلك بكثير اكتشفه الشرطي في نفس الوقت.» وتابع: «على مقربة من المكان الذي وجد ريجان يتجوَّل فيه، اكتشف جثة امرأةٍ مقتولة بوحشية.

حيث نُحِرت رقبتها على نحوٍ اقتربت معه الرأس من الانفصال عن الجسد، وكان بها كذلك جروح أخرى.»

صرخ مكارثي تقريبًا في سماعة الهاتف: «ما هذا الذي تقول!» وتابع: «كرِّر هذا، أيها المفتش!»

وقد فعل مُفتِّش القسم «إس» ذلك بأكبر قدْرٍ مُمكن من الإيجاز.

سأله مكارثي في نفَسٍ واحد: «من أيِّ أنواع النساء تبدو هي وكم مرَّ على مَقتلها بحسب رأي الطبيب الشرعي لديك؟»

فأخبرَه المفتِّش أنه بقدر ما يُمكنه الحكم من مظهر القتيلة — نوعية ملابسها، وغير ذلك — يبدو عليها، على أيِّ حال، أنها تنتمي إلى الطبقة الغنية. إذ كانت ترتدي فستان سهرة، ومعطفًا باهظ الثمن جدًّا بكل تأكيد، وعلى الرغم من عدم العثور على أيِّ مجوهرات أو أي شيءٍ آخر على الجثة، فهناك أدلة واضحة على اعتيادها ارتداء الخواتم، وقد مُزِّقت حلمة إحدى الأذنين كما لو أن حلقًا قد انتُزِع منها. وأضاف أنه قد استُدعي الطبيب الشرعي الخاص بالقسم، وعلى الرغم من إجرائه فحصًا قصيرًا وسريعًا، فقد قرَّر أن رأيه هو أنها قد قُتلت في فترة منتصف الليل أو بعدَها بقليل، ولكن ليس بعد ما يزيد عن ساعة تقريبًا من منتصَف الليل.

سأل مكارثي بسرعة: «أين الجثة الآن؟»

أبلغه الضابط أنها في المشرحة المحلية، وأن الطبيب الشرعي قرَّر عدم إجراء التشريح إلا في الصباح.

قال مكارثي بسرعة: «اسمع أيها المفتش.» وتابع: «عليك أن تنقل الجثة على الفور — «على الفور» هل تفهمني — إلى المشرحة هنا. وسأستدعي الطبيب الشرعي الخاص بنا وأُخبِره أن يذهب إلى هناك على الفور. فأنا أعتقد أنها جثة شخصٍ قُتل في سوهو سكوير في نحو الساعة الواحدة من هذه الليلة، ونُقلت بعيدًا بطريقةٍ غامضة. والآن نَفِّذ ذلك، كضابطٍ صالح، باعتبارها أوامر واجبة من القيادة العامة.»

شرع المفتش المحلي في إبداء بعض الاعتراض، الذي جال بذهنِه على نحو واضح، فقال: «لكن»، فقاطعه مكارثي.

وقال: «سأعمل على أن تُرسَل الأوامر مباشرة إليك من المفوض المساعد، خلال عشر دقائق، إذا كنتَ ترى أن ذلك هو الإجراء المناسِب أيها المفتش.» وتابع: «فكِّر في الأمر، ربما تجِده هو الأنسب. إنَّ الروتين قد يُصبح مُعوقًا للغاية للعمل لو تسبَّب في اتخاذ خطوة

خاطئة. انتظر مكالمةً من المفوض المساعد خلال الدقائق القليلة القادمة بعد أن أُنهي المكالمة معك، وفي نفس الوقت أَرسِل ريجان إلى المشرحة في أول سيارة تتوفَّر لدَيك. والآن ابدأ في التنفيذ؛ إنَّ الوقت هو أساس العمل في هذه القضية. إلى اللقاء، وشكرًا على المكالمة، على الرغم من أن كيفية حصولك على رقمي تُمثِّل أمرًا غامضًا بالنسبة لي.»

قال له المُفتِّش: «إن ريجان يعرفه.» وأضاف: «وهذا ما جعلنا نظنُّ أنه ربما يكون صادقًا في روايته.»

وبعد إنهاء المكالمة، طلب مكارثي على الفور رقم منزل السير ويليام هاينس في بلومزبري، وبعد لحظة كان يتحدَّث معه على الخط. وعلى نحوٍ سريع ردَّد على مسامع ذلك الرجل المصدوم مُلخصًا موجزًا لما قد حدث منذ أن تركه، وطلب النقل الفوري للجثَّة من جولدرز جرين إلى ويست إند.

واختتم حديثه قائلًا: «إنَّ قسم جولدرز جرين يتمسَّك بطبيعة الحال ببعض الروتين، يا بيل، ولكن كلمة منك مباشرة ستُنجِز الأمر على نحوٍ سريع، وبعد أن تفعل ذلك، ليتك تتَّصل بالطبيب الشرعي لدَينا لتحفزه شخصيًّا كي يُسارع بالذهاب إلى المشرحة دون أيِّ تأخير لا داعي له. لقد كان يشكو ويتذمَّر بسبب استدعائه إلى سوهو سكوير لفحص جثَّة هاربر المسكين، وما سيقوله إذا استدعيتُه مرةً أخرى لن يُصبح صالحًا للنشر. ستتعالى صيحاته إلى السماء! إنه ليس شخصًا سيئًا، ويُتقِن عمله تمامًا، لكنه يُحب الحصول على قسطٍ وافر من النوم.» وأضاف على نحو ساخر: «وكذلك أنا، وإذا كنتَ تتذكَّر فقد وعدتُ نفسي بقدرٍ كبير من النوم الليلة، وها هي النتيجة. تصرف على الفور، يا بيل؛ إن الرجل في جولدرز جرين بانتظار الحصول على موافقتك.»

سأله السير ويليام بحماس: «هل تُريد مني أن أرتدي ملابسي وأذهب إلى المشرحة، يا ماك؟»

أجاب صديقه بسرعةٍ وبإيجاز: «لا أريد ذلك مُطلقًا.» وأضاف بنبرة أكثر تهدئة: «بالقطع، لا! ففي البداية، من المُحتمَل أن تخسر حياتك وأنت في الطريق إلى هناك يا بيل، وكما أخبرتُك ذات مرةٍ قبل الليلة، فإن خسارة سكوتلاند يارد لك هو أمر أكبر من أن أُحدِّد فداحته أنا، أو أي شخص آخر. ستكون الضربة قاصِمة.»

قبل أن يتمكَّن السير ويليام من الرد على هذه الملاحظات الحاسدة نوعًا ما، كان مكارثي قد أنهى المكالَمة، وسارع لارتداء ملابسه.

وبعد خمس دقائق خرج إلى الشارع مرةً أخرى، لكن هذه المرة مُرتديًا ثياب الخروج بالكامل ومعه مصباحه اليدوي. لقد بدأتْ جريمة القتل هذه التي وقعتْ في سوهو سكوير في التكشُّف بطريقةٍ غريبة جدًّا، ولكن ربما كان الجزء الأكثر غرابةً فيها بالنسبة إلى المُفتِّش، والزاوية التي هو مُهتم بها أكثر منها في الوقت الحالي، هو ما حدَث لـ «داني ذا ديب» بعد أن تركه في أكسفورد ستريت في أعقاب الرجل ذي العينَين غير الطبيعيتَين ذواتَي اللون الأزرق الثلجي.

الفصل الثامن

المُفتش يُعاني من صدمة!

إنَّ الجثة التي وجدها مكارثي مُمدَّدة وهي بكامل ملابسها على لوح في المشرحة عندما تمكن أخيرًا من شقِّ طريقه إليها، تُطابِق بلا شك الوصف الذي قدَّمه عنها المفتش في جولدرز جرين من حيث أنها امرأة ذات وضعٍ اجتماعي مُعين، وبالتأكيد، ظروف معيشية رغدة.

وجد الطبيب الشرعي قد تسلَّمها بالفعل والذي، من العجيب أن نقول، تقبَّل الاستدعاء الأخير المُوجَّه إليه وهو مُبتهِج تمامًا؛ وبالفعل، بدا عليه أنه سعيد بهذه المهمة بخلاف غيرها. فبحسب ظنِّه، لا بدَّ أن المفوض المساعد قد تملَّق الطبيب جيدًا وعلى نحوٍ حقيقي عندما اتَّصل به، حتى يُحدِث هذا التأثير على طبيعته غير الفلسفية المعتادة.

وعند إلقاء نظرةٍ على غرفة المكتب الصغيرة حيث يحتفظ حارس المشرحة بالمُتعلِّقات، الموضوعة في مُغلفات والمصنَّفة بعناية، والخاصة بأولئك التُّعَساء بما يكفي لإحضارهم إلى هذا المثوى المُظلم، تبيَّن له أن «داني ذا ديب» قد أُرسِل مع الجثة، وأُجلِس على كرسي وقد بدا وكأنه نصف مُستيقظ من نومٍ ثقيل مُخدِّر. في الواقع، حدَّق فيَّ المفتِّش وكأنه لا يستطيع التعرُّف عليه.

فسأل بهدوء: «هل يُمكنك إعطاء هذا الرجل جرعةً مِن أيِّ دواء كي يستعيد كامل تركيزه، أيها الطبيب؟»

أجاب الطبيب مع نظرةٍ مُتشكِّكة إلى النشال الملطَّخ بالدماء ذي المظهر الأشعث: «يُمكنني.» وتابع: «ولكن إذا كنتَ ترغب في الحصول على أيِّ معلومات منه على الفور، فإنني أرى أن كوبًا من الشاي الساخن والمُركَّز ستكون له نتائج أسرع. يبدو من خلال مظهره أنه قد حصل على حقنة من أحد العقاقير المُخدِّرة. المورفين أو الهيروين، في رأيي.»

نظر مكارثي إلى حارس المشرحة. ثم سأله: «هل يُمكنك تولِّي هذا الأمر، هل تظنُّ ذلك؟»

فهزَّ الرجل الفاضل رأسه بالإيجاب. لم يكن هناك الكثير ممَّن هو على استعدادٍ لتحمُّل أي مشقَّة من أجلهم في تلك الساعة من الصباح، لكن المُفتِّش مكارثي كان شخصًا مُفضلًا على نحو خاص عنده. وكان يُمكن للطبيب الشرعي أن يطلب منه ذلك حتى يذبل لسانه دون أن يستجيب ذلك الموظَّف القوي البنية.

فقال، بلكنته الأيرلندية القوية: «هذا أمر بسيط، أيها المفتش.» وتابع: «سوف أضع الغلاية على مَوقِد الزيت الصغير الخاص بي.» ثم أحنى رأسه الضخم نحو المُفتِّش وألقى نظرةً خاطفة على ريجان الفاقد التركيز. وهمس: «هل لاحظتَ الحالة التي عليها ملابسه؟» وأضاف: «إن الدماء تُغطِّيه من رأسه حتى قدَمَيه. لكنها ليست أبدًا نتيجة تلك الضربة على رأسه، ولا يبدو عليه أنه مُصاب في أي مكانٍ آخر.»

أجاب مكارثي، مع نظرةٍ قلقة تجاه مُساعِدِه: «وهذا ما أبلَغَني به المُفتش في جولدرز جرين.» وتابع: «سوف نبحث ذلك لاحقًا، عندما يكون في حالة أفضل. امنحه الشاي الساخن والمُركَّز.»

قال له حارس المشرحة مؤكدًا: «سأمنحه نصف لترٍ منه، وهو يَغلي، خلال خمس دقائق.» وتابع: «وإذا لم يفِ ذلك بالغرَض، سأمنحُه نصف لترٍ آخر.»

ومع هذا التأكيد استدار مكارثي نحو الجثة الأنثوية المُسجَّاة على لوح التشريح.

لم يكن هناك شكٌّ في أنها امرأة جميلة وترتدي ملابس رائعة بالتأكيد، ولكن قبل أن تُذبَح منذ بضع ساعاتٍ قصيرة، ولم يكن المفتش في جولدرز جرين مُبالغًا عندما قال إن المعطف الذي يُغطِّي ثوب السهرة ذا الياقة العالية — وبدون شكٍّ الظهر المكشوف — يبلغ ثمنه مبلغًا كبيرًا من المال. لقد كان مصنوعًا من الفراء الأبيض ومُفصَّلًا على أحدث طراز، لكن الياقة والجزء الأمامي من الثوب كانا غارقَين في الدماء من جرح الرقبة المُروِّع الذي تسبب بالتأكيد في وفاتها.

كما قال المفتش، كان رأسها شِبه مقطوع عن جسدها، وهو عمل شخصٍ وحشي للغاية. وقد فسَّرت وحشية الجريمة على الفور لمكارثي كمية الدم الكبيرة المُتناثِرة على الباب، ودرجات السُّلَّم الخارجية وحتى الدرابزين. وفسَّر المعطف أيضًا، من خلال سَماكة فرائه، الوسيلة التي نُقل بها الجسد دون ترك أي آثار غير تلك المذكورة: فقد لُفَّ الرأس والكتِفان بالكامل فيه؛ ومن ثمَّ منع أي تسرُّب للسائل الذي قد يَشي بالأمر. ومن المُمكن

أيضًا أن تكون السيارة، أيًّا كان نوعها، المُستخدمة لنقل الجثة من الميدان، خاليةً بنفس القدر من بُقَع الدم عندما يتمُّ العثور عليها في نهاية المطاف، هذا إذا حدث ذلك من الأساس.

سأل الطبيب الشرعي: «هل أنت متأكِّد تمامًا من أن هذه هي الجثة الخاصة بجريمة القتل التي وقعت في سوهو، يا ماك؟»

أجاب مكارثي في ثقة: «تمامًا.» ثم أضاف: «ما لم تُقتَل امرأتان في لندن هذه الليلة في نفس الوقت تقريبًا وبنفس الطريقة، وكلاهما استخدَمَت العطر نفسه بدرجة أكبر مما تعتاده مُعظم النساء في يومِنا هذا. لقد شممتُ رائحته بقوة خارج ذلك المنزل الموجود في سوهو سكوير ولا يوجد أي شك في أنه نفس العطر الذي كانت تضعُه هذه المخلوقة البائسة.»

أومأ الطبيب برأسه. وقال: «أنا أشمُّه بنفسي.» وتابع: «إنه غريب.»

كان على لسان مكارثي أن يسأل عما هو غريب فيه، لكن بما أنه لم يرغب في الاستماع إلى أي كلام عن العطور، بوجهٍ عام، وهذا العطر بالتحديد، فقد حجب السؤال وعاد إلى فحصِه مرةً أخرى. لقد حمل كل ما كانت تَرتديه، والأحذية، والجوارب، والملابس الداخلية سِمات علوِّ الثمن والجودة. كانت هناك، كما أخبره مُفتِّش جولدرز جرين، علامات مُحدَّدة على أصابعها تدلُّ على أنها كانت تَرتدي خواتم في كل يد، كما يُمكن بوضوح رؤية العلامة الدالة على نزع حلقٍ واحد، على الأقل، بلا رحمةٍ من حلمة الأذن اليُمنى. ونظرًا لأن أيًّا من الأُذنَين لم تكن مثقوبة، فلا بد أن الحلقَين كانا مُثبتَين ببراغيَّ أو مشابك، ويدلُّ أخذهما على أنهما لا بدَّ أن يكونا ذوَي قيمةٍ كبيرة. في الجزء الداخلي من المعطف، الذي كان مفتوحًا على مصراعَيه الآن ويتدلى من لوحِ التشريح من جانبٍ واحد، كان يُوجَد جَيب أدخل فيه يده وأخرج علبة سجائر ذهبية صلبة والتي، مع ذلك، لم تَحمِل حرفًا واحدًا أو أيَّ وسيلة تعريف مُمكنة أخرى؛ وكذلك ليس هناك، عبر الفحص السريع، أي حروفٍ مُميزة على الملابس الداخلية.

ثم أعطى قدرًا كبيرًا نسبيًّا من الوقت لدراسة الوجه نفسه، والذي بدا عليه بغرابةٍ شحوب الموت الرمادي بسبب الطبقة الكثيفة من مساحيق التجميل التي كانت تضعها المرأة. وقرَّر أنها بالتأكيد أوروبية، وليست إنجليزية؛ كان سيقول إنها ألمانية، ذات سماتٍ قوية بنحو غير عادي بالنسبة لواحدةٍ من جنسها.

ومن ثم سأل: «ما الجنسية التي ستُسجِّلها في أوراقها، أيها الطبيب؟»

أجاب الطبيب الشرعي بلا تردُّد: «ألمانية. إن بها مجموعة مثالية من السِّمات الألمانية؛ لا شكَّ لديَّ في ذلك.» وتابع، مع نبرةٍ في صوته جعلت المُفتِّش يُلقي نظرة سريعة عليه: «هل هذا هو الشيء الوحيد الذي تُلاحِظه بشأنها، يا ماك؟»

سأل مكارثي: «ماذا هناك كي أُلاحظه أيضًا؟» وتابع: «إلى جانب أنها كانت امرأة ذات وجاهة اجتماعية في أوائل أو مُنتصَف الثلاثينيات من عمرها، في رأيي، وذات ملامح قوية على نحوٍ خاص، ما الذي يُمكن ملاحظته؟»

أجاب الطبيب: «الكثير مما سيُفاجئك.» وعدل قائلًا: «هذا إذا كان هناك أي شيء يُمكنه أن يُفاجئك.»

أكد له مكارثي على نحوٍ هادئ: «لا يُوجَد ما يُمكنه أن يُفاجئني، لكنَّني مع ذلك سأستمع.»

قال الطبيب بإيجاز: «حسنًا، سأَندهِش بشدة إذا لم يُفاجئك ذلك.» وتابع: «إنَّ هذه المرأة، يا مكارثي، هي في واقع الأمر رجل!»

لم يكن من المُجدي للمُفتِّش أن يُحاول حتى إخفاء المفاجأة الكاملة والمُطلقة التي ملأته. حيث اتَّسعَت عيناه وفغر فاه.

وشهق قائلًا: «حسنًا، يا له ... يا له من أمر عجيب!» وسأل بسرعة: «أنت لا تُحاول أن تتلاعَب بي، أليس كذلك؟»

زمجر الطبيب قائلًا: «إذا كنتَ تَعتقِد أنني أستمتع للغاية بتركي لسريري في هذه الساعة من الصباح لدرجة أن أبدأ في التلاعُب بالناس، فأنت مُخطئ للغاية.» وأضاف: «إن هذه المرأة، أُكرِّر، هي في واقع الأمر رجل. وكي تَقتنِع فقط مرِّر يدك لأعلى تحت الذقن. إذا لم تكن هناك شُعَيرات خشنة كافية تحت طبقة مساحيق التجميل لتُقنعَك بهذا الأمر، فإنك لا تقتنع بالأشياء بسرعة.»

فعل مكارثي بحذَرٍ شديد كما قيل له، ليجد، بما لا يدع مجالًا للشك، أن هناك شعيرات لحية قوية تحت يدِه، لكنها مُغطَّاة بمهارة شديدة من خلال مساحيق التجميل لدرجة أنها، بالطريقة العادية، لم يكن من الممكن اكتشافها على الإطلاق.

قال الطبيب الشرعي: «إنه نوع شائع بدرجة كافية في ألمانيا في الوقت الحاضر. في المرة الأخيرة التي ذهبت فيها إلى برلين، كانت صالات فندق أدلون، والأماكن المُماثلة، مليئة بهم.» وتابع ساخرًا: «يبدو أن الآري النقي لدَيه ميل واضح جدًّا في هذا الاتجاه. ومن مظهر هذه الشعيرات، فهو ربما يحلق مرتَين أو ثلاث مرات في اليوم؛ ولو كان على قيد

الحياة وفعل ذلك هذا الصباح، لما وجدنا أثرًا لها. لا بدَّ أن الطبيب الشرعي في جولدرز جرين قد ألقى نظرة خاطفة جدًّا عليه، يجب أن تُخبره الأسنان وحدَها بالحقيقة، على الرغم من أنني أقرُّ بأنها صغيرة على نحو استثنائي.»

قال مكارثي بحزن: «إنها لم تُفصح عن شيء لي.»

رد الطبيب بحدة: «وهذا دليل، إذا كنتَ بحاجة إلى واحد، على أنك لا تَعرف قدْر ما تعتقد أنك تعرفه، يا ماك.»

سأل مكارثي، رغم أنه كان يُوجِّه السؤال لنفسه أكثر من أي شخصٍ آخر: «ولكن لماذا يظهر، هنا في إنجلترا، بهذه الطريقة؟»

هز الطبيب الشرعي كتفَيه. وقال: «إن «مهمتك» هي الكشف عن ذلك. أنا شخصيًّا، أرى أنها قضية تجسُّس على نحوٍ أو آخر. يُوجَد قدر كبير منهم هنا بين «اللاجئين» و«المُعادين للنازية». نحن أسوأ الحمقى على وجه الأرض عندما يتَّصِل الأمر بهذا النوع من الأشياء.»

صاح مكارثي: «أتفق معك تمامًا!» وأضاف: «يجب أن تستمِع إلى رجال الفرع الخاص بشأن ذلك الأمر.»

قال الآخر بعد برهة: «أنا لستُ في حاجةٍ إلى ذلك.» وتابع: «لديَّ الكثير من الشكاوى الخاصة بي، دون الحاجة إلى الاستماع إلى شكاواهم. ومع ذلك، فأنت تُدرك الآن أنها جريمة قتل رجل التي تُحقِّق فيها، وليست امرأة.» ثم عدل كلامه قائلًا: «هذا على الرغم — وأنا أتحدَّث بكل حذَر — من أنني أرى أنه كان مُعتادًا على ارتداء ملابس نسائية على نحوٍ مُنتظِم، هذا إذا كان كلامي واضحًا.»

أومأ مكارثي برأسه. وقال: «هل تَقصِد أنني أُحقِّق في قضية مقتل رجل غير معروف في البلاد كرجلٍ على الإطلاق، ولكن كامرأة؟»

«هذا هو مقصدي. والآن، سأكون مُمتنًّا لو أخليتَ المكان وسمحتَ لي بمواصَلة عملي.» وأضاف، مع إيماءة من رأسه تجاه جثةٍ أخرى مُمدَّدة على لوح تشريح في الطرف الآخر من الغرفة الباردة: «إلا إذا كان هناك أي شيء تُريد معرفته عن الشرطي المقتول. لقد أجريتُ فحصًا دقيقًا لجرحه، وتوصَّلت إلى استنتاجٍ مفادُه أنه من المُرجَّح للغاية تعرُّضُه للطعن بسلاحٍ مُماثل لذلك السلاح الذي أريتني إيَّاه. وكلما أسرعتَ بعرض السلاح عليَّ لفحصه، كان ذلك أفضل، وسأُجري فحص الدم الذي أردته.»

وعَد مكارثي قائلًا: «سأتَّصِل بخبير البصمات كي يُسرع في إنهاء عمله مع البصمات.» كان يستدير ليغادر نحو المكتب، الذي يُوجد فيه «داني ذا ديب» وهو يَستمتِع الآن بكوبٍ ضخم من الشاي، والذي، من البخار المُتصاعد منه، لا بد أنه كان قريبًا من الغليان، عندما خطر بباله شيء آخر. فقال مع إيماءةٍ باتجاه الجثة المُمدَّدة أمامهما: «إذن هذا الشَّعر لا بد أنه شَعر مُستعار.»

«بالطبع؛ لا يُمكن لأيِّ رجلٍ تدريب شَعره على النمو بهذه الطريقة، حتى لو كان على الجانب القصير.»

ومن ثمَّ رفع الطبيب الشرعي الرأس، وفك عدة دبابيس شعر غير مرئية تقريبًا، وسحب شعرًا مُستعارًا رائعًا على نحو مُدهش والذي كان ذا لونٍ بُني داكن، مع لمسةٍ طفيفة من اللون الرمادي، كان مُثبتًا في الرأس. وعلق قائلًا: «قطعة رائعة من الشعر الحقيقي.» وتابع: «أفضل ما رأيت على الإطلاق، يجب أن يكون قد صنعه فنان في هذا المجال. إنه غير قابل للكشف عمليًّا بالطريقة العادية.»

مدَّ مكارثي يدَه من أجل الحصول على الشَّعر المستعار، وعندما أخذه، فحصه بدقة. من بين المعلومات المتنوعة التي حصل عليها من أصدقائه المسرحيين، كانت هناك حقيقة تتمثل في أن صانعي الشعر المُستعار من الدرجة الأولى دائمًا ما يَخيطون به علامةً بأسمائهم وتاريخ صنعه، وفي كثير من الأحيان يُكتَب عليها اسم الشخص الذي صُنع الشعر المستعار من أجله، على الشبكة الداخلية التي يُنسَج الشعر عليها. إذا كان من قبيل حسن الحظ الأمر كذلك في هذه الحالة — وبالتأكيد فإن الشَّعر المستعار الرائع الذي ارتدته «المرأة» لا يُمكن أن يكون إلا من عمل صانع من الدرجة الأولى — فربما هناك دليل مباشر قد يؤدي، في النهاية، إلى التعرُّف على هوية الرجل المقتول. كما هو مُتوقَّع تمامًا، على أحد أركان الأشرطة، التي تحمل نوابض أساس الشعر المستعار، وجد علامةً صغيرة مطبوعة عليها النقش التالي: «هاينريش، لندن». لكنه لم يتمكَّن من العثور على تاريخ أو أي شيء آخر من شأنه أن يُعطيَ أدنى فكرة عمن صُنع هذا الشعر المستعار من أجله.

فقال لحارس المشرحة: «سأحتاج إلى هذه لبعض الوقت.» وتابع: «ضعها في مُغلف، وسأُوقِّع على استلامها. كيف حال ريجان؟»

فأجابه: «بخير.» وتابع: «لقد أفاده الشاي للغاية، مثلما قال الطبيب الشرعي. ولكن هناك أمرٌ ما، أيها المفتش، وهو أنك يجب أن تجلب له معطفًا من نوع أو آخر قبل أن تتمكَّن من إخراجه من هنا. إذا خرج إلى الشارع كما هو، والدماء جافَّة في كل مكان عليه، فسيقبض عليه قبل أن يَبتعِد لمائة ياردة، حتى وأنت معه.»

نظرة سريعة على المكتب حيث جلس ريجان وهو يَحتسي الشاي المغلي وقد ارتسمَت على ملامحه نظرات مُروِّعة، أقنعت مكارثي بحقيقة الملاحظة. فقال: «اعثر له على شيءٍ في الوقت الحالي.» وتابع: «وسآخُذُه معي إلى المنزل لسماع قصته، وأُعيد أي شيءٍ ستعثر عليه له في وقتٍ لاحق من اليوم.»

ثم سأل وهو يدخل المكتب: «كيف حالك الآن، يا دان؟»

نظر إليه النشَّال من خلال عينَيه نصف المُنتبهتَين.

وأجاب بنبرة لم تترك مجالا للشك في ذهن مكارثي حول حقيقة كلماته: «مروع للغاية.» وتابع، وهو يهز رأسه: «لقد ضربوني بقوة، أيها المفتش، بينما كانوا في ذلك المكان.» ثم أضاف: «عجبًا، لقد ضُربت كثيرًا بقُضبان وزجاجات وعِصِي، لكنَّني لم أشعر بمثل هذا الشعور أبدًا.»

أوضح له مكارثي قائلًا: «أريد التأكُّد منك يا دان إن كانوا قد أعطوك شيئًا آخر.» وتابع: «جرعة من شيء من شأنها أن تُبقيَك في المكان الذي يُريدونه طالما أنه يُناسبهم.»

وبينما كان يتحدث، أخذت عيناه تتفحَّصان البقع السميكة الداكنة على ملابس ريجان. فسأل: «أنت ليس لدَيك فكرة عما حدث لك بعد أن ضربوك على رأسك، يا داني؟»

هز ريجان رأسه نافيًا. وقال: «بعد أن ضربوني، أيها الرئيس، وفقدتُ الوعي، لم أشعر بشيء. لا بد أني أُلقيت في سيارة، لأنهم خرجوا من سيارةٍ قبل أن يُلقوني منها، ولم يكن بإمكاني الانتقال كل هذه المسافة إلى هامبستيد بأيِّ طريقة أخرى، كما لا بدَّ أني فعلت.»

أومأ مكارثي برأسه موافقًا.

وقال: «أجل، يا داني، لقد كانت سيارة، هذا صحيح تمامًا. سآخُذُك معي إلى المنزل لتناول القليل من الإفطار، وسأسمَع قصتك حتى تلك اللحظة هناك. إنَّ الشيء الذي يُثير اهتمامي أكثر في هذه اللحظة هو أين وكيف أتيتَ بكل هذا الدم على ملابسك. أنت بالتأكيد لم تَحصُل عليه أبدًا من ذلك الجرح في الجمجمة.»

هز ريجان رأسه وهو في غاية التعب. وقال: «لا تسألني، أيها المُفتِّش.» وتابع: «أنت تعرف عن ذلك بنفسِ القدْر الذي أعرفه.»

أخذ مكارثي مطواةً صغيرة من جيبه، ومسَح النصل ونظَّفه، ثم كشط بعناية بعض الدم اللزج، والذي لا يزال رطبًا في بعض الأجزاء، من فوق معطف ريجان. وفرده بعناية على ورقة بيضاء حصل عليها من موظَّف المشرحة، وقدَّمها إلى الطبيب وطلب منه مقارنته بدم ذلك الرجل الذي يرتدي ملابس نسائية.

وقال: «أعتقد، أيها الطبيب، أن جسد هذا الرجل كان بالفعل في الجزء السُّفلي من السيارة الذي أُلقي فيه ريجان، وأنك ستجد أن دم هذا الرجل هو نفسه الدم الذي لطَّخ ريجان.»

قال الطبيب الشرعي بفظاظة: «اترُكها هنا.» وتابع: «سأفعل كل شيءٍ في نفس الوقت. وإذا كان هناك أي شيء آخر يُمكنك التفكير فيه ليُبقيَني عالقًا هنا طوال اليوم، فلا تتردَّد في التعجيل به.» وأضاف ساخرًا: «وقتي لا قيمةَ له على الإطلاق.»

قال مكارثي بابتسامة: «لن أتردَّد»، ولَّما رأى مساعده المضروب يَرتدي معطف مطر قديمًا كبيرَ الحجم للغاية بالنسبة له، اتَّجَه نحو الباب.

مُلقيًا نظرة أخيرة على الجثة التي كان يخلع عنها الطبيب الساخط الآن ملابسها المُضلِّلة، استرعى انتباهه شيءٌ ما بشأنها، حتى تلك اللحظة، لم يكن قد استرعاه.

أكد الرأس المحلوق بدون الشعر المُستعار بنحو كبير الأصل الألماني لوجه الرجل الميت، حتى وهو مُغطًّى بمساحيق التجميل كما كان. وهنا، مما لا شك فيه، اتَّضح أن هذا البروسي من فئة الضباط. إذ خلال زياراته العديدة لقارة أوروبا في مهامَّ شُرطية، رأى العشرات ممن قد يكونون إخوة أشقاء للرجل الميت. وكان لدَيه القليل من الشك في أنه، عندما يُنظَّف الوجه في النهاية، سيُعثر على ندوب مُبارزة طلابية بارزة فيه.

فتمتم: «قضية تجسُّس، هذا صحيح تمامًا.» وتابع: «ولكن فيما يتعلق بأي مسألة، ومن هو الشخص المُعادي بما يكفي لما كنتَ تنوي القيام به، كي يجزَّ عنقك، بالطريقة التي استخدمها؟»

الفصل التاسع

المفتش يتلقَّى صدمةً أخرى

تجاوز الوقت، وفق ساعة مكارثي، السابعةَ بقليل عندما غادر المشرحة، يتبعه ريجان، والذي كانت لا تزال قدماه تَرتعِشان قليلًا. وبعيدًا باتجاه الشرق، بدأ الضوء يُبدِّد ظُلمة التعتيم، ولأول مرة كان المفتش مُمتنًّا لمجيء الصباح. وإلا فإن ذلك كان سيَعني رحلة تلمُّس طريقٍ أخرى إلى دين ستريت؛ وهي رحلة سيئة للغاية في تلك الشوارع الضيقة، حتى مع وجود مصباح يَدوي.

واصلا طريقهما في صمت، وشعر مكارثي بأنه ليس لدَيه مزاج للحديث بعد الاكتشاف المفاجئ الكبير الأخير، وعلى ما يبدو، فإن السيد ريجان كان يشعر بنفس الشيء وإن كان بدرجةٍ أقل، ما لم يكن صمته ناتجًا عن احترام القاعِدة الذهبية التي ترى بأن عليك التحدُّث فقط عندما يتحدَّث أحد إليك. وبحلول الوقت الذي وصلا فيه إلى ريجنت ستريت، كان شروق الشمس قد اكتمل.

قال المُفتِّش فجأة: «سوف نستمرُّ حتى جلاسهاوس ستريت، يا داني، ونختصر الطريق إلى منزلي بهذه الطريقة.» وتابع: «سوف نتناول وجبة إفطار سريعة، لأنني يجب أن أكون في سوهو سكوير قبل الساعة الثامنة.»

في جلاسهاوس ستريت، التفَّ الاثنان، واختصرا الطريق عبر برور ستريت وسارا في اتجاه الشمال. كانت الشوارع خالية نسبيًّا في منطقة سوهو، مثل جارتها الأكثر ثراءً، منطقة مايفير، التي لم يكن سُكانها مُعتادِين على النهوض المبكر. كانت هناك عربة حليب غريبة أو اثنتان، يدفعهما رجال بدوا نصف مُستيقظِين مثل المنطقة التي يخدمونها، وكان الأولاد الذين يوزعون الجرائد يهرولون هنا وهناك، وكانوا يتوقَّفون فقط لدفع جرائد الصباح تحت الأبواب، أو عبر صناديق البريد. فجأة، حذَّرَته تلك الحاسة السادسة الغريبة، التي يبدو أنها غريزة لدى كلٍّ من المجرمين والرجال الذين يُطاردونهم على حدٍّ

سواء، من أنه كان تحت المراقبة. من نقطة أو أخرى كان يُراقبه شخص غير مرئي! أم يا تُرى كان يُراقِب ريجان؟ كان هذا، أيضًا، ممكنًا في ظل هذه الظروف. وعلى الرغم من حرصه على نحو خاصٍّ على عدم إظهار أي علامة على أنه أدرك الحقيقة، فإنه سعى ببصرِه في كل مكان في الشارع الضيق لالتقاط الشخص الذي كان مُهتمًّا بمراقبة واحدٍ منهما، ولكنه لم يستطع على الإطلاق. لقد كان متأكدًا تمامًا من أنهما مُراقبان، لكن من يُراقبهما لهو بالتأكيد شخص بارع.

في زاوية ليكسيكون ستريت، والتي عندها التفَّ ليختصر الطريق نحو دين ستريت، ألقى نظرة أخرى تبدو عادية، ولكنها في الواقع كانت نظرةً متفحِّصة للغاية حوله، لكنه كان لا يزال غير قادر على رؤية أحد. ومع ذلك، استمرَّ الشعور لدَيه أقوى من أيِّ وقتٍ مضى بأنهما تحت المراقبة.

عندما دخلا دين ستريت نفسه، وأثناء عبورهما الطريق نحو مسكنِه، دون أدنى تحذير، ظهرت سيارة من العدم، هذا هو كل ما يُمكِن أن يقوله، واندفعت بسرعة غير قانونية تمامًا، مُتجهة نحوهما مباشرة. ولولا أنَّ مكارثي دفع ريجان بسرعة كالبرق، فوقع هذا الشخص المهزوز بالفعل على الرصيف، واندفع هو اندفاعًا مفاجئًا بنفس القدر إلى الجانب، لكانت السيارة قد صدمتهما بلا شكٍّ، وبوضع حجم السيارة في الاعتبار والسرعة التي كانت تسير بها، لأصبحت النتائج فادحة للغاية. وهكذا، فإن واقي الطين الخاص بالسيارة من الجانب القريب قد ألقاه بضربة خاطفة بقوة بحيث أرسلَه في رحلة غطس غير أنيقة تمامًا، وغير مُهذَّبة بالتأكيد، فوق ريجان. وقبل أن يتمكَّن من الوقوف على قدمَيه مرةً أخرى، سارت بسرعة أعلى، وانطلقت عبر كارلايل ستريت نحو سوهو سكوير واختفَت. وقد لاحظ، أن لوحة الأرقام الخلفية الخاصة بها كانت مُغطَّاة بالطين بكثافة بحيث لا يُمكن قراءتها مُطلقًا. وهذا، نظرًا لعدم هطول الأمطار في الثماني والأربعين ساعة الماضية، دلَّ على قصتها الخاصة.

كان يُساعد ريجان في الوقوف على قدمَيه عندما لاحظ، لأول مرة، أن ما حدث قد رآه ثلاثة من عمال البلدية الذين يَعملون في غسل المزاريب من صنبور أعلى قليلًا في الشارع. لقد كان معروفًا لدَيهم، مثلما كان معروفًا لدى معظم سكان هذا الحي الذي يجمع سكانًا من مختلف الجنسيات.

صاح مُشغل الخرطوم: «يا إلهي، أيها المُفتِّش، هؤلاء الأنذال كانوا مُتعمِّدين إصابتك! لقد جاءوا إليك مباشرة من مسافة خمسين ياردة تقريبًا من الخلف.»

قال المُفتِّش، بابتسامته المُعدِيَة: «يبدو بالتأكيد كما لو كانوا مُستائين منِّي لسببٍ أو آخر.» وتابع مُقترحًا: «هذا على الرغم من أنه ربما كان انزلاقًا غير مقصود تمامًا.»

قال مُشغِّل الخرطوم، بثقةٍ شديدة: «لم يكن هناك انزلاق في الأمر.» وتابع: «لقد توجَّهوا نحوكما مباشرة، كما أخبرتك. ربما كان ذلك بمنزلة انزلاق إذا كنَّا قد وصلنا بخرطوم المياه إلى هناك، لكن الطريق هناك جاف بشدة.»

سأل مكارثي: «لم يتصادَف أنك قد لمحتَ الرقم الموجود على اللوحة الأمامية، على ما أعتقد؟»

هز مُشغل الخرطوم رأسه. ثم أجاب: «لقد كانت مُغطَّاة بالطين بالكامل.» وأضاف: «إذا كنتُ فقط مركزًا بالقدر الكافي، لرششتُها بالماء، على الرغم من أن هذا لم يكن ليُجدي نظرًا للسرعة التي كانوا يسيرون بها.»

سأل مكارثي: «لم يتصادَف أن لمحتَ السائق وميَّزتَ أنه شخص تعرفه، على ما أظن؟»

هز الآخر رأسه نافيًا.

وقال: «كلا، أيها المُفتِّش.» وتابع: «لقول الحقيقة لقد حدث الأمر على نحوٍ مفاجئ للغاية، ولم أستطع أن ألحظ شيئًا.»

قال أحد زملائه: «كان هناك ثلاثة رجال في السيارة.» وأضاف: «أحدهم هو ذلك المُحتال القذر، ماسكاني. كان يُقرفص في زاوية محاولًا إخفاء نفسه، لكني لمحته.»

سأل مكارثي بهدوء: «هل أنت مُتأكد تمامًا من ذلك؟»

«متأكد أيها المُفتش. وأقسم على ذلك.»

قال مكارثي بهدوء: «حسنًا، حسنًا.» وتابع: «إن صديقنا الموقر فلوريلو ماسكاني لم يَعُد يحبُّنا، يا داني. لقد فعلنا شيئًا أزعجَه، على ما يبدو.»

غمغم النشال: «إنه لم يُعرني أي انتباهٍ من قبل.» وتابع: «فأنا لا أُمثل أي أهمية بالنسبة له.»

قال مكارثي بتجهُّم: «ربما يُعيرني أنا بعض الاهتمام.» وصحَّح لنفسه: «أو على وجه الدقة، سأُعير بعضًا له، في أسرع وقت.» وأضاف: «وبطريقةٍ ما، لا أظن أن فلوريلو سيُحبُّ ذلك.» ومرَّر ذراعه من خلال ذراع ريجان المُهتز بنحو كبير. وقال: «هيا، يا دانيال، لن نَسمح لهذه الحادثة الصغيرة أن تُفقدنا شهيَّتنا، ويجب أن أكون في سوهو سكوير قبل الثامنة.»

ولكن يبدو أنه لا تزال هناك دقيقة أو دقيقتان أُخرَيان ستَضيعان من الوقت القصير للغاية المتاح للمفتِّش. إذ كان على مقربةٍ من باب منزله عندما توقفت سيارة إسعاف تابعة للشرطة بجانبه على نحوٍ مفاجئ، والتي كانت تسير بسرعة شديدة عبر دين ستريت باتجاه شافتسبري ستريت. وقد كان يَجلس في مُقدمتها، بجانب السائق، السيرجنت الذي فتَّش معه المنزل في سوهو سكوير، قبل ساعات قليلة.

حيَّاه وهو في حالةٍ من الانفعال الشديد ثم قال: «هل تعرف آخر الأخبار، أيها المفتِّش؟»

سأل مكارثي: «آخر الأخبار؟» وأضاف: «أخبار ماذا؟»

«لقد عُثر على العجوز جو أنسيلمي ميتًا ومتيبسًا في فناء منزله الخلفي، قبل أقل من ثلاثة أرباع الساعة. رأى بعض الجيران الجثة مُلقاة هناك من نوافذهم العلوية وأبلغونا. ويقول الطبيب الذي فحصه إنه قُتِل في وقتٍ ما بين مُنتصَف الليل والساعة الواحدة صباح اليوم على حدٍّ علمه. ونحن نعلم أنه لا بدَّ أن هذا قد حدث بعد الحادية عشرة والنصف؛ لأنه شُوهِد وهو يذهب إلى فناء منزله في ذلك الوقت.»

كرَّر مكارثي في ذهول شديد: «جو أنسيلمي» وتابع: «إذن ... إذن ليس من المُمكِن أن يكون هو الذي دفع عربة القهوة تلك خارج سوهو سكوير في الليلة الماضية، في الوقت الذي سُمِعت فيه تلك الصرخة.»

قال السيرجنت على الفور: «هذا أمر مؤكَّد»، ثم تابع غاضبًا: «إذا كان الحمقى اللُّعناء قد أبلغوني فقط أنه فعل ذلك، لعلِمتُ أن هناك خطأً ما؛ لأن تصريح أنسيلمي بوقوف عربة القهوة في المكان الذي تقف فيه قد أُلغِيَ قبل خمسة أيام، بسبب التعتيم. ولم يقف هناك هذا الأسبوع.»

قال مكارثي بتمعُّن: «إذن، هكذا خرجت الجثة من سوهو سكوير الليلة الماضية.»

قال السيرجنت: «لا بد أن هذا ما حدث؛ لم تكن هناك طريقة أخرى يُمكن تدبُّرها.» وتابع، مع نظرة خبيثة في عينيه: «والآن، كلُّ ما عليك فعله الآن، أيها المفتش، هو العثور على الجثة.»

قال له مكارثي: «لقد عثرتُ عليها.» وتابع: «لقد عدتُ للتو من المشرحة. أوه، وبالمناسبة، أيها السيرجنت، من أجل توجيهك الأخير، سأُخبرك فقط أن تلك الصرخة جاءت من رجل، وليس امرأة.» تابع بسرعة، قبل أن يتمكَّن السيرجنت من القيام بأكثر من فتح فمه في دهشة: «أخبِرني كيف قُتل جو المسكين؟»

أجاب السيرجنت بإيجاز: «لقد طُعن.» وزمجر قائلًا: «وفعلوا ذلك كما لو كانوا يُحبُّون فعل الأمر، أولئك الخنازير القتَلة.» وأضاف: «لقد قتلوه بطريقةٍ بشعة. إذا أردتُ أن أرى رجلًا — أو ربما رجالًا — يتدلَّى من حبل المشنقة، فهو من قتل جو أنسيلمي. لقد كان رجلًا محترمًا.»

قال مكارثي بهدوء: «لقد كان كذلك بالفعل.» وتابع: «وستَحصُل على أُمنيتك أيها السيرجنت. اعتمِد عليَّ، ستَحصُل عليها في أسرع وقت. لقد دفع لي جو العجوز ثمن العديد من المشروبات والأطعمة عندما كنتُ طفلًا صغيرًا في هذه الشوارع؛ وأعتقد أن شنْقَ قاتليه قد أصبح مهمَّتي.»

وبعد أن أنهى مكارثي وجبة الإفطار التي تناولها على عجل — وهي الوجبة التي قضَت أخبار السيرجنت على كل شهيته خلالها — التفت إلى السيد ريجان الجائع للغاية، الذي انقضَّ عليها مثل رجل لا يتوقَّع أن يرى الطعام مرة أخرى.

وقال: «الآن، يا داني، كما أخبرتك من قبل، إنَّ الوقت ثمين بالنسبة لي هذا الصباح، لذا ابدأ الحديث. أخبِرني بما حدث من اللحظة التي تركتك فيها في أكسفورد ستريت حتى فقدتَ وعيَك في بارك لين. قُل لي كل شيء، بكل التفاصيل التي يُمكنك تذكُّرها.»

عندما ترك المفتش مكارثي «داني ذا ديب»، شرَع ذلك الرجل في تنفيذ المهمَّة المُوكلة إليه بإخلاصٍ من كل قلبه وروحه. في البداية، كان بلا شك مُستسلمًا للمُلاحَقة الجنائية عندما هبط عليه المفتِّش مكارثي مثل صاعقةٍ من السماء، وكان يُدرك جيدًا أن المفتِّش يَعرف تمامًا ما هو مُقدِم عليه، مثلما يعرف، هو نفسه. وبقدر ما سمح له عقله المحدود السيئ، كان مُمتنًّا لأنه تركه.

لو كان «داني ذا ديب» قد سُمِّي «داني ذا رات» (أي، «داني الجرذ») لما أصبحَتْ تسميةً خاطئة، لأنه لم يكن هناك جرذ عجوز في المجاري التي يعيش فيها أكثر دهاءً من هذا العضو المُحدَّد من طائفة الصعاليك. إذ إن ما لم تستطع عيناه أن تُخبره به، كان يُمكن أن تُخبره به أذناه، والشخص البارع بالفعل هو من يستطيع أن يخدع أيًّا من هذَين العضوين لدَيه.

ومن ثم تحركت طريدته بطول أكسفورد ستريت، وأخذ «داني ذا ديب» يتتبَّعه، وكان الرجل يمشي، بالحُكم من صوت خطوته، بنفس التأني، وهو يشعر بأمانٍ مُضاعَف في الظلام المطبق للتعتيم. كان داني على درايةٍ كاملة بأكسفورد ستريت مثلما كان على

دراية بأي شارع رئيسي آخر في العاصمة؛ فهذه الشوارع بالنسبة له في الضوء أو أسوأ حالات الضباب الكثيف الممكنة، كانت معروفة تمامًا مثل السُّلَّم المؤدِّي إلى غرفته الخلفية الموجودة بالطابق الثالث. وعند زاوية شارع مارليبون لين، المؤدية إلى ويجمور ستريت، توقف الرجل وبدا وكأنه ينتظر إلى أن يقترب منه شرطي دلَّت خطوته الصلبة على اقترابه على نحوٍ لا لبس فيه. ووقَفا للحظة أو اثنتَين يتشاوران؛ حيث من الواضح أن الرجل كان يستفسِر عن شيء.

للحظة أو اثنتَين جال بخاطر النشَّال فكرة غير سارَّة مفادها أن الرجل قد اكتشف أن هناك من يتتبَّعه وقدم شكوى للشُّرطي حول ذلك؛ فقد قال المُفتش إنه رجل مراوغ، ويجب توخِّي الحرص معه. ولم يَرُق هذا التشاور للسيد ريجان بعض الشيء؛ حتى كونه مُكلَّفًا بمهمة من قِبَل المفتش المُحقق مكارثي لم يُبعِد عنه شعوره اللحظي بعدم الارتياح.

ولكن بعد لحظةٍ أو اثنتين أنبأته أذناه الحسَّاستان أن الرجلَين قد افترقا؛ حيث واصل الشرطي خطوته المعتادة في مسار دوريته، بينما سرَّع الآخر من خطوته بعض الشيء في اتجاه كشك هاتف يعلم داني أنه موجود على بُعد مسافة قصيرة عبر مارليبون لين. ودخل الرجل إلى كشك الهاتف وبمُساعَدة ضوء مصباحٍ يدويٍّ يحمله، طلب رقمًا ما وظلَّ هناك لثلاث دقائق كاملة.

وبعد مغادرة الكشك، عاد إلى أكسفورد ستريت وبخطوةٍ أكثر بطئًا من ذي قبل، عبَر الطريق واتجه نحو قوس ماربل آرتش. وعلى الفور تتبَّعَه مُراقبُه، دون أن يُحدِث أدنى صوت مثل قط يتتبع خلسةً عصفورًا. وتوقَّف الرجل على نحوٍ مفاجئ عند زاوية بارك لين. وبعد لحظةٍ أو اثنتَين، أشعل سيجارة؛ فمنح ضوء عود ثقابه الفرصة لداني كي يتأكَّد أنه في طريقه الصحيح؛ ثم توجَّه ببطء نحو زاوية الحديقة في الشارع وهناك وقف منتظرًا، وكان وهج سيجارته مفيدًا وبمنزلة عمود إنارة لمراقبه.

مرَّت خمس دقائق دون أن تتحرَّك طريدته، وهي فترة توقُّف مرَّت بصعوبة على «داني ذا ديب»، لأنه عند زاوية شارع إدجوير رود، لمحت عيناه التي تُشبُه عينَي القطِّ تمامًا سرابًا خافتًا لضوء أنبأَهُ عن أن عربة القهوة التي عادة ما تقف هناك ما زالت تُقدِّم خدماتها. وقد ضاعَف مجرَّد التفكير فيها ضربات الجوع التي، مثل الفأر، راحَت تَنهَش فيه على نحوٍ مُخيف. وقد زاد ارتباكه لدرجة أنه، مع عدم رؤية أي حركةٍ من جهة طريدته، قرَّر أن يُجازف. ولم يكن يخشى أن تصدمه سيارة في هذا الوقت من الصباح، وفي ظلِّ هذه الظروف، ومع استمرار مُراقبته للطرف المُشتعل من السيجارة، اتجه مُسرعًا

نحو عربة القهوة، وأنفق شلنَين من الشلنات التي معه على شراء ساندوتشات، وأوشَكَ على طلب كوبٍ سريع من القهوة عندما اختفى الضوء.

فأمسك كيس الساندوتشات وباقي النقود وأسرع عبر الشارع إلى النُّقطة التي رأى عندها الضوء آخر مرة؛ ولم تكن هناك أي إستراتيجية في تحرُّكاته، فكلُّ ما أراده هو أن يَلتقِط أثر الرجل مرةً أخرى. وبينما كان يُسرع حول الزاوية ويأكل طعامه بنهَم، وجد الرجل محلَّ اهتمام المُفتِّش مكارثي. لقد كان يقف في ظلِّ إحدى أشجار الحديقة، وفي اللحظة التي وجدَه فيها داني، أشعل سيجارة أخرى.

لم يلحَظ على الإطلاق الشخص الذي كان يُسرِع خلفه. ومع بعض الارتباك، تابع داني السير وعبر الشارع حتى وصَل إلى زاوية شارع نورث رو، ومن عند تلك النُّقطة أبقى عينَيه ثابتتَين على وهَج السيجارة، وتمنَّى لو أن الرجل قد قرَّر التحرُّك في اتجاهٍ أو آخر.

وبعد بُرهة بدأ يتحرَّك الضوء عبر بارك لين، في اتجاه شارع بيكاديلي؛ وبدا على المُدخِّن أنه يسير بنفس الهدوء، والطريقة المُتأنِّية التي اتبعها سابقًا. بينه وبين نفسه، شعر داني بالامتنان لطرف السيجارة المُتوهِّج هذا؛ فقد كان له بمنزلة المنارة للبحار. وبعد أن تركه يَسبقه بمسافة قصيرة، عبر، هو أيضًا، الشارع، وبنفسِ الطريقة الصامتة واصَل تتبُّعه.

كان المُتتبِّع والمتبوع عند منتصَف بارك لين تقريبًا عندما جاءت بسرعة من خلفه سيارة كبيرة ذات أنوار مُطفأة تمامًا، ثمَّ توقفت مع صرخةٍ من فراملها المُعتصرة. وقبل أن يدرك ما كان يحدث، قفز منها ثلاثة رجال وأسرعوا نحوه. أنبأته سرعة هجومهم عن أنهم ينتوون شرًّا وبدون تردُّد وجه لَكمة سريعة لأول من اقترب منه. تفادى الرجل الضَّربة بسهولة، وفي اللحظة التالية هبطت قبضة فولاذية خلف عنق داني، جعلته يدور، وهو شِبه مُترنح، نحو السور. وبعد ذلك، تلقَّى ضربةً على رأسه من شيء، ظن أنه قضيبٌ حديدي، فتراقَصَت ملايين الأضواء أمام عينيه، ثم بدا له أنه أخذ يَنزلِق لأسفل عبر أنبوب طويل للغاية مصنوع مما بدا أنه مخمَل أسود باتجاه العدم.

هذا هو كل ما أدركَه إلى أن وجد شرطيًّا يَقتاده إلى قسم شرطة في مكانٍ أو آخر، وسمِعَه يقول لمُفتِّشه إنه قد وجَده يتجوَّل في هامبستيد هيث. وبينما هو شِبه مُترنِّح أدرك أن الشرطي قد وجد بجواره جثَّة شخصٍ مقتول، وبدا له أن لداني علاقة على ما يبدو بالجريمة. وبقدر استطاعته، حاول داني أن يَشرح أنه كان يُؤدِّي مهمَّةً من أجل المفتش

المُحقق مكارثي في سكوتلاند يارد، وأنه إذا اتَّصل أحد على رقم الهاتف الذي أعطاه لهم سيَجد أن كلَّ شيء على ما يُرام فيما يخصُّه. وبعد ذلك، لا بدَّ أنه قد دخل في إغماءة أو شيء من هذا القبيل؛ لأنه لا يتذكَّر أي شيءٍ آخر إلى أن حاولوا إفاقته كي يُعيدوه إلى ويست إند.

كانت هذه هي القصة التي كان يتوجَّب على «داني ذا ديب» أن يَقصَّها على المفتش، وكانت كل كلمةٍ فيها هي الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة، لدرجة لا يَحتاج معها الضابط المُخضرَم لمن يؤكد له ذلك. فالدليل في هذا الصدَد كان جالسًا أمامه.

الفصل العاشر

مكارثي يُستبعَد من القضية!

وصل المفتش مكارثي مرةً أخرى إلى المنزل في سوهو سكوير قبل نصف ساعة من وصول أي أحدٍ آخر، عدا الرجال المُكلفون بالحراسة، في الأمام والخلف، هناك. وقد وجد أن رجال الشرطة ذوي الزي الرسمي قد استُبدِل بهم رجال من قسم شرطة فاين ستريت في زيٍّ عادي، والذين اتخذوا مواقع محدَّدة في الميدان يستطيعون منها مُراقبة المنزل دون أن يَلحظهم أحد بأي نحو. وقد جرى تنظيف الباب نفسه بعناية بناءً على تعليماته بعد أن أنهى خبراء رفع البصمات عملهم عليه، لذا لم يَعُد هناك، باستثناء بُقَع الدماء الحمراء العميقة التي تغلغلت داخل درجات السلَّم الحجرية والمنطقة، أي علامات خارجية على الجريمة المُروِّعة التي وقعت أمامه.

اتجه أولًا إلى الخلف، وخطا بحِرص على الأرضية على أمل أن يَعثُر على آثار أقدام، لكنه لم يجد أيًّا منها ووجد فقط شيئًا واحدًا بدا أن له قيمة، وهو أن الرجل الذي مرَّ عبر المنزل — القاتل المزدوَج المُحتمَل — قد ارتدى حذاء ذا نعلٍ خفيف للغاية. وفي رأيه أنه كان حذاء سهرة. ولم ينتج عن البحث الدقيق في الردهة نفسها أي نتائج على الإطلاق. فقد كانت تُغطَّى بمشمَّع الليونوليم، والذي، إذا لُمِّع يوميًّا، ربما يُظهِر آثارًا مفصَّلة أكثر، لكن من الواضح أنه كان يُغسَل يوميًّا، لذا لم يَعُد سطحه يُظهِر الآثار.

تمثَّلت مهمته الأولى في فتح مزلاجَي الباب الأمامي، اللذَين من الواضح أنهما أُغلِقا من قِبَل القاتل عندما دخل إلى المنزل. وإلى أن يتم ذلك، ما كان لأحدٍ أن يتمكَّن من الدخول.

وقد أفاد خبراء البصمات في تقريرهم أنهم بعد فحص الردهة، ودرابزين السلالم، والأبواب الأمامية والخلفية، لم يجدُوا عليها أي بصماتٍ قد تُفيد القضية على أي نحو.

كان على وشك إنهاء فحصِه عندما وضَع أول ساعي بريد مجموعةً من المراسلات عبر صندوق البريد السِّلكي المُثبت خلف فتحة الخطابات في الباب الأمامي. وبعد أن أخرجها، فحَص بعناية أسماء المُرسَل إليهم وقارنَها باللوحة التي تحتوي على قائمةٍ بأسماء مُستأجري المكاتب والتي ثُبِّتت على جدار الردهة.

كان هؤلاء، في الغالب، وكلاء إلى حدٍّ ما لأشكالٍ متنوِّعة من المُستلزمات الصناعية، ووكالة صغيرة للنَّسخ والكتابة على الآلة الكاتبة، وشركة واحدة ليس هناك إشارة لنشاطها على الإطلاق. وتلك الشركة كانت تتبع سيدةً تُسمَّى مدام رونر، ويُشير الاسم بقوة إلى أصول ألمانية، على الرغم من أن كلمة «مدام» تُشير إلى صلة بفرنسا. لكن المراسَلة الوحيدة للسيدة — والتي جاءت في ظرفٍ مفتوح يحمل طابعًا بنصف بنس — تُبين أنها مُرسَلة من شركة لم يَسمع بها مكارثي من قبل، وذُكِر فيها أن البضائع المطلوبة قد أُرسِلت بالفعل ويُفترَض أن تُستلَم بحلول وقت تسلُّم هذه الرسالة. ولم تَرِد أي إشارةٍ لما قد تكون تلك البضائع.

قاطع صوت مفتاح يدور في قفل ييل المثبت في الباب الأمامي فحصَ مكارثي لهذه المُراسَلة المُحدَّدة. وفي اللحظة التالية فُتح الباب ودخل منه شاب، هو، بلا شك، ذلك الذي تحدَّث عنه السيرجنت. وقد كانت دهشتُه عميقة، عندما وجد المُفتِّش يجلس على الدرجة السُّفلية من السلم، وبجواره المُراسَلات الصباحية؛ ولم يُقلِّل منها معرفته بالجريمة التي ارتُكبت في المكان بعد مغادرته في الليلة الماضية.

ولكن على الرغم من أن المُفتِّش استجوبه على نحوٍ متواصِل لمدة نصف ساعة، لم يحصل منه على أي أقوالٍ تُثير أي شبهاتٍ حول أيٍّ من الأفراد، أو الشركات، المُستأجِرين للمكاتب. فقد بدا أنهم أناس يُمارسون أعمالهم على نحوٍ مُستقيم، وواضح، وليس هناك أدنى احتمال أن تكون لهم صلة بالجريمة بأيِّ نحوٍ أو صورة.

وبعد العودة مرة أخرى إلى الباب الخلفي استدعى مكارثي رجل التحقيقات الجنائية المُرتكز لحراسة البوابة الخلفية.

وأمره قائلًا: «حقِّق مع أي شخص يدخل المبنى.» وتابَعَ: «واسأل عن طبيعة أعماله وعلى وجه الخصوص، مع من يُجريها، وما إذا كانت له أي صِلات أجنبية.» ثم التفَت مرة أخرى نحو الشاب الذي ما يزال مُندهشًا.

أجاب الشابُّ بالنفي عندما سأله: «هل لديك مفتاح رئيسي لهذه المكاتب؟» أخبره أن كل مُستأجِر لدَيه مفتاحه الخاص، الذي مُنحَ له عند إتمام إجراءات الإيجار. وأضاف أنه

إذا كان هناك ما يُسمَّى بمفتاح رئيسي فهو لا عِلمَ له بشأنه. وأردف أنه إذا كان هناك واحد بالفعل فهو بحَوزة السيد موريس بافينسكي، مالك المكان. وذكر أن السيد موريس يأتي مرة أسبوعيًّا في صباح السبت ليجمع إيجاراته.

سأل مكارثي: «والآن، ماذا عن تلك السيدة، مدام رونر؟» وتابع: «ما طبيعة أعمالها بالتحديد؟»

ذلك أيضًا لم يَستطِع الشاب، الذي كان اسمه هو هيوبرت ويلكنز، أن يُجيب عليه. فأيًّا كان عملها، فهو يستدعي وجودها بعيدًا عن المكتب كثيرًا، وفي بعض الأحيان تُمضِي أيامًا دون أن تأتي إلى مكتبها.

سأل مكارثي: «هل يأتيها كمٌّ كبير من المراسَلات؟»

أتاه الرد أن مُراسَلات السيدة ليست كثيرة، وفي الغالب يبدو أنها تأتي من أوروبا. إذ كانت تأتيها مراسلات من فرنسا وألمانيا وإيطاليا وبلاد أخرى بعيدة. وقد كان ويلكنز متأكدًا من هذا الأمر حيث إنه، كهاوٍ مُتحمِّس لجمع الطوابع، دائمًا ما يطلُب أخذ الطوابع من أظرُف الخطابات.

تابع مكارثي: «الآن، دعْني أستوضِح هذا الأمر. إن كل شخص يستأجر مكتبًا في هذا المبنى يحصل على مفتاح للباب الأمامي، أليس كذلك؟»

«بلى يا سيدي، في حال إذا أراد أن يعود ويعمل في مكتبه بعد وقت الإغلاق.»

«ومن ثم يستطيع أي شخصٍ يحمل هذا المفتاح أن يأتي في أي ساعة يُريدها من النهار أو الليل، أليس كذلك؟»

«بلى يا سيدي.»

«هل هناك أي مفاتيح أخرى موجودة بحسب علمك؛ مفاتيح لم يُعِدْها المستأجرون السابقون، على سبيل المثال؟ ممَّن تركوا مكاتبهم خلال الشهور السابقة، ونسوا أو تجاهلوا إعادتها؟»

لم يكن هناك مثل ذلك الأمر. إذ إن هذا، على ما يبدو، أن السيد بافينسكي كان صارمًا بخصوصه. وكان يتوجَّب على ويلكنز أن يَحصُل على المفتاح قبل مغادرة المستأجِر.

أعطى مكارثي تعليماته لرجل التحقيقات الجنائية بالباب الخلفي قائلًا: «افحص كل هذه المفاتيح، أيضًا.»

وكإجابة على سؤالٍ حول أي نوع من النساء كانت مدام رونر، عِلم أنها سيدة جميلة للغاية، دائمة التأنُّق ويبدو عليها سمات الغنى. ومقابل كل خدمةٍ صغيرة تُؤدَّى لها فهي

دائمًا ما تمنح بقشيشًا سخيًّا؛ وفي الواقع، في رأي ويلكنز، كان من المُبهج رؤيتها تأتي إلى المكان.

ثم سأل مكارثي بعد ذلك عن السيدتَين اللتَين، وَفق ما فهم، تؤديان أعمال التنظيف بعد غلق المكاتب. هل كان مع كل منهما مفتاح؟

بدا أنهما لم يكن معهما أي مفاتيح. إذ كانتا تصِلان قبل موعد إغلاق الباب الأمامي في الليل عند الساعة السادسة، وتُؤديان عملهما ثم تَنصرِفان عبر الباب الخلفي والذي، نظرًا لتثبيت قفل زنبركي به، تُغلِقانه بعد مُغادرتهما. وهما تُنظفان فقط الردهة والسلالم وليست لهما علاقة بتنظيف المكاتب من الداخل ما لم يطلُب منهما المستأجِر ذلك بنفسه. وفي أغلب الأحيان، يجري الأمر دائمًا خلال ساعة الغداء أو أي وقتٍ آخر من النهار يُناسب المُستأجر.

«إذن لو، افترضنا جدلًا، أن مدام رونر سافرت، أو على أي حال لم تحضر إلى المكتب لعدة أيام، مثلما هي مُعتادة حسب أقوالك، فهل من المُمكن لك أو لأي شخصٍ آخر الدخول إلى مكتبها دون اقتحام الباب عنوة؟»

«كلَّا يا سيدي.»

قال مكارثي: «في هذه الحالة، سنَصعد فقط للأعلى إلى مكتبها ونرى إذا كان لا يُمكننا الدخول بدون اقتحام الباب عنوة. ستأتي معي، فقط للتأكُّد من أني لم أعبث بشيء.»

وخارج باب المكتب، الذي علقت عليه لافتة صغيرة تحمل اسم المستأجرة ولا تُشير لنشاطها، أخرج طفاشة من جيبه. وفي لمح البصر، وقبل أن يُدرك السيد ويلكنز كيف حدث الأمر، فتح مكارثي قلب القفل، وأدار المِقبض ودخل المكتب. وأول ما استرعى انتباهه كانت تلك الرائحة التي علقت عند المدخل الخارجي منذ ساعاتٍ مضَت!

صاح ويلكنز في دهشة: «عجبًا، إن ... لقد اختفى كل شيء!»

سأل مكارثي: «وماذا تعني بذلك على وجه التحديد؟»

«عجبًا، عندما أحضرتُ الخطابات إلى هنا بعد استلامها في الخامسة مساء الأمس كانت هناك أوراق كثيرة على المنضدة، خطابات وأشياء من هذا القبيل. لقد اختفت كلها!»

أشار مكارثي نحو المدفأة التي لم يكن فيها سوى كومة من رماد أوراق سوداء.

وقال في سخط: «أجل، لقد اختفت، دون شك! اختفت تمامًا ولم يَعُد بإمكاننا استخلاص أي معلومات منها.»

وكشف تفتيش الخزانات في الغرفة، والأدراج في منضَدة المكتب التي كانت «السيدة» تعمل عليها، عن حقيقة أنها خالية. من الواضِح أن السيدة تخلَّصت تمامًا من كل شيءٍ في هذا المكتب، عدا الأثاث والآلة الكاتبة، بين الساعة الخامسة مساءً وحتى هذه اللحظة. بين ذلك الوقت والساعة الواحدة صباحًا، ربما على مكارثي أن يقول، إلا إذا، بالطبع، فعل الأمر أحد بالنيابة عنها.

ومن ثم جلس على رُكبتَيه أمام المدفأة، وقلَّب في الرماد برفق بإصبعه على أمل أن يجد ولو حتى قصاصة واحدة مُتماسكة قد تدلُّ على أي معلومةٍ بخصوص عمل مدام رونر، أو أي شيءٍ آخر متعلق بها. وعلى الرغم من البحث الدقيق فإنه لم يُثمر عن شيء على الإطلاق.

فقال: «إذن لم يتبقَّ أمامنا سوى شيء واحد، يا ويلكنز.» وتابع: «علينا أن نعثر على مدام رونر تلك، ويبدو أنك الوحيد الذي تستطيع مساعدتنا في فعل هذا. أظنُّ أنك شخص قوي الشكيمة — وتذهب إلى السينما وتُشاهد كل أنواع الأفلام المُرعبة والقاسية، أليس كذلك؟»

قال السيد ويلكنز: «من ... أنا يا سيدي؟» وفرد قامته النحيلة إلى أن بدت أطول مما كانت بمقدار بوصتَين. وأضاف: «أجل، أنا لا أهاب أي شيء. لقد شاهدتُ فرانكنشتاين ودراكولا و...»

قال مكارثي: «هذا قاسٍ بما يكفي لأن تُواجِه أيَّ شيء»، ومن ثم اصطحبه إلى أسفل، بعد أن أعاد إغلاق الباب بالطفَّاشة التي معه. وأشار لأحد رجال التحقيقات الجنائية من ذوي الزي العادي الذين يُراقبون المنزل من الأمام وأعطاه تعليماتٍ بهدوء. حيث قال بصوت خفيض: «استَقِلَّ أول سيارة أجرة تُقابلها وخُذ هذا الرجل معك إلى المشرحة، لنرى ما إذا كان بإمكانه التعرُّف على الجثة التي وُجِدت في هامبستيد هيث بالأمس على أنها مدام رونر أم لا» ثم أخرج من جيبه مُغلفًا صغيرًا يحتوي على الشَّعر المستعار. وأعطى الرجل تعليمات قائلًا: «تأكَّد من وضع هذا على رأس الجثة قبل أن يُعاينها.» وأضاف: «أبلِغني عبر الهاتف في اللحظة التي يتعرَّف فيها على هوية الجثة، وأحضر لي الشعر المُستعار هنا في أقرب وقتٍ ممكن.»

وبعد ذلك بسبع دقائق بالضبط جاءته مكالمة هاتفية من المشرحة. لقد تعرف ويلكنز على الجثة على أنها تخصُّ المستأجرة الغامضة، مدام رونر.

سأل مكارثي: «كيف تعامل مع الأمر؟»

قال رجل التحقيقات الجنائية: «لقد تعرَّف على الجثة، ثم فقد الوعي مباشرة. إنهم يحاولون إفاقته بإعطائه بعض البراندي.»

ابتسم مكارثي على نحوٍ هادئ. وقال: «مدهشة هي قوة الشكيمة التي تكون لدَيهم عندما يشاهدون الدماء فقط على الشاشة. أحضِر لي الشعر المُستعار بسرعة.»

وعند التاسعة وعشر دقائق، اكتشف المُفتش مكارثي عبر البحث في سجلَّات صانع الشعر المستعار ذي الصلة، أن السيد هاينريش الراحل المأسوف عليه قد صنع ذلك الشعر المستعار قبل نحو أربع سنوات مضت، من أجل شخصٍ يُدعى أوسكار شميت، وهو مُمثل جاء من برلين للتمثيل في موسم للمسرحيات الألمانية القصيرة بمسرح ليتل ثيتر. ولم يعُد هذا المُمثل إلى ألمانيا مع بقية أفراد الفرقة الآخرين، نظرًا لإصابته بالالتهاب الرئوي. ثم تُوفِّي بعد فترة قصيرة جدًا من مرضه ودُفن في منطقة كينزال جرين بعد ثلاثة أسابيع من وصوله هنا. وما حدث لذلك الشعر المستعار بعد وفاة صاحبه لم يعرِف عنه أحد شيئًا.

تمتم مكارثي بينما كان يُغادر المتجر: «وهكذا انتهى الأمر!» ثم أضاف: «لقد وصلنا إلى طريق مسدود فيما يتعلق بزاوية البحث هذه.»

ومن ثم أجرى مكالمة هاتفية مع السير ويليام هاينس في منزله في بلومزبري، حيث ردَّ عليها ذلك الشخص الكفؤ للغاية وهو في حالةٍ واضحة من الانفعال الشديد.

وقال آمِرًا بصرامة، وقبل أن ينطق مكارثي بكلمة: «قابِلْني في سكوتلاند يارد بعد نصف ساعة، يا ماك!»

فأخبرَه مكارثي على نحوٍ مباشر: «كنتُ أودُّ بشدة أن أفعل ذلك، لكن لا يُمكنني!» وتابع: «فكما تعلم أنا أتولى التحقيق في قضية القتل هذه التي وقعت بسوهو سكوير منذ الساعة الواحدة صباحًا، وأنا فقط في انتظار ...»

قال المفوض المساعد على نحوٍ استبدادي غير مُعتاد: «لا يهمُّ ما أنت بانتظاره.» وتابع: «يمكن للمُدير أن يتولى ذلك.»

قال مكارثي: «لكنه خارج المدينة منذ الصباح، وقد اتَّخذت هذه القضية منحًى خطيرًا ...»

قاطعه المفوض المساعد بحدة: «سوف يُستدعى للعودة.» وتابع: «عليك أن تحضر إلى مكتبي خلال نصف ساعة. اعتبر هذا أمرًا صارمًا. لا يُهمني مدى تطوُّر قضية سوهو. إن المهمة التي بانتظارك أكثر أهمية. احضر إليَّ على الفور.»

وضع مكارثي سماعة الهاتف، وهو يُطلِق بعض السباب بصوتٍ مسموع بعض الشيء، ثم استوقف أول سيارة أجرة وجدَها والتي أقلَّته إلى سكوتلاند يارد.

الفصل الحادي عشر

الدافع

داخل تلك الغرفة المُبهجة التي تطل على منطقة إمبانكمنت والتي يؤدي فيها المفوض المساعد مهام عمله، أخذ ذلك المسئول المُجتهد يخطو ذهابًا وإيابًا بطريقةٍ أوحت لمكارثي بخطوات نمر، حُبِس حديثًا داخل قفص.

قال مكارثي بعصبية لم يَعهدها فيه صديقه أبدًا: «إنه أمر غريب للغاية، يا بيل، كيف بحق الجحيم يمكن أن يحدُث شيء مثل هذا؟ اللعنة، لا تُخبرني أن ذلك الضابط العالي الرتبة الذي عهد إليه بتلك الأشياء قد تركها بالخارج على حافة الرصيف في سيارته المفتوحة ودخل إلى حانته ليتناول شرابًا! هذا هو نوع الأمور الذي تَقرأ عنه في الصحف كل يوم. كان آخِرها على ما أتذكر له علاقة بكتابٍ للشَّفرات البحرية.»

قال السير ويليام بسرعة: «لم يَنطَوِ ذلك على ولو نصف نفس قدْر غباء مثل هذا النوع من التصرفات، يا ماك.» وتابع: «لقد سرقت خُطط الدفاع المضادة للطائرات هذه — ولا تنس أنها تحتوي على كامل النظام الخاص ببريطانيا العُظمى وهي لا تُقدَّر بثمن عند العدو — من داخل مبنى الحكومة في وايتهول، ولسوء الحظ ليس هناك شك في أنها قد سُرِقت مباشرة من هناك. لقد روجعت الخطط بدقة من قبل السير الجنرال ماركوس بيتنجيل، وهو المسئول عن المهمة كلها، ثم أغلق عليها جيدًا في الخزنة الموجودة داخل غرفته في وايتهول، والتي لم يُغادرها سوى لحضور مؤتمر في غرفةٍ مواجِهة لها عبر الرواق. ولم يَغِب سوى أقل من نصف ساعة ثم ظلَّ في غرفته طوال فترة بعد الظهر. وعند حوالي الساعة الخامسة والنصف أراد أن يُراجِع الخطط مرةً أخرى، فأعاد فتح الخزنة، التي بكل تأكيدٍ لم يمسَّها أحد من المسئولين، وتبيَّن له اختفاؤها.

منذ تلك اللحظة حتى الآن، لم يتمكَّنوا من العثور على أي أثرٍ لها. وجرى التحقيق مع جميع من يُحتمَل وجودهم بالقُرب من هذا الجزء من المبنى، لكن دون التوصُّل إلى

أي نتيجة. وهذا يعني أنه ما لم نتمكَّن من منع خروجها من بريطانيا، لا بد من تغييرها ووضع خطط أخرى بديلة، والتي من الواضح أنها ليست جيدة وإلا لكان قد جرى اختيارها من البداية، وستضيع أشهر عديدة من العمل التحضيري هباءً.»

قال مكارثي بتمعُّن: «أجل، هذا أمر واضح تمامًا.» وتابع: «اللعنة، يا بيل، إنها عملية تجسُّس جيدة من طرفهم، أليس كذلك؟»

في عقل المُفتِّش أخذ سؤالٌ ما يتبلور؛ ترى هل من الممكن أن تكون هناك أي صِلة بين جريمة قتل تلك السيدة الغامضة «مدام رونر» وتلك الخطط المسروقة؟ إذ إنه كان مُقتنعًا تمامًا بأن الرجل المُتخفِّي قد جاء إلى هنا من أجل التجسُّس. وعلى الرغم من ذلك، فقد احتفظ بأفكاره لنفسه في الوقت الراهن. فهناك الكثير من الوقت الكافي كي يُعلِن عن شكوكه عندما يعلم المزيد من المعلومات عما حدث في وايتهول.

ومن ثم سأل: «هل تُرك باب غرفة الجنرال مفتوحًا أثناء تواجُده في هذا المؤتمر؟»

هزَّ هاينس رأسَه بالنَّفي. وقال لمكارثي: «إنه مزوَّد بقفل تلقائي والذي بالطبع، يعمل من لحظة غلق الباب.» وتابع: «يجب أن يفتح بعد ذلك بمفتاح موجود مع الجنرال نفسه. وهو المفتاح الوحيد للغرفة، باستثناء المفتاح الرئيسي الذي بحوزة موظَّفٍ موثوق منه للغاية والذي يكون موجودًا دائمًا خلال فتح الغرفة من أجل التنظيف.»

سأل مكارثي: «ما هو شكل الخزنة؟»

قال هاينس: «سوف تَراها بنفسك.» وأضاف: «يُمكنني أن أقول لك إنها واحدة من أحدث الخزائن التي مِن نوع تشب.» وأشار نحو خزنة متينة للغاية في ركن غرفته وقال: «إنَّ تلك التي هناك ضعيفة للغاية بالمقارنة بها.»

نهض مكارثي على نحوٍ مُنتبه.

وقال بجدية: «هذا يُثبِت المستوى الاحترافي لتنفيذ العملية، يا بيل.» وتابع: «إنَّ الدخول إلى المكان من الأساس، والتمكُّن من دخول تلك الغرفة، وفتح الخزنة، والحصول على تلك الخطط ثم الخروج مرةً أخرى خلال أقل من نصف ساعة يدلُّ على أمرَين. الأول، لا بدَّ أن مُنفِّذ العملية قد حصل على معلوماتٍ دقيقة وحديثة حول مكان وجود ما يبحث عنه. وبالنسبة للثاني، لا بد أنه أحد رجالهم المُحترفين للغاية والذي باستطاعته التعامُل مع تلك الخزنة بالطريقة التي فعلها؛ لن يتمكَّن جاسوس عادي المُستوى من إتمام مهمَّة من هذا النوع.»

قال هاينس في أسًى: «هذا أمر واضِح للغاية.» وتابع: «ومن هنا تَنبع ضرورة التصرُّف السريع. إذا كان الجاسوس الذي نتكلَّم عنه بارعًا بالقدْر الكافي بحيث حصل عليها خلال

ذلك الوقت القصير، فلن يَعجز عن استخدام مصادره وقدراته للتوصُّل لطريقةٍ لإخراجها من البلاد.»

قال مكارثي: «هذا صحيح بالفعل.» وأضاف: «لستُ في حاجةٍ للسؤال عما إذا كان رجال الفرع الخاص قد استنفروا كل طاقتهم من أجل هذه المهمَّة.»

كرر هاينس: «استنفروا!» وأضاف: «يا صديقي العزيز، لم تمضِ سوى فترة قصيرة منذ تركت مديرهم، وقد كلَّف كل رجل متاح منهم بالعمل على هذه المهمَّة بعد مرور ربع ساعة من اكتشاف السرقة. ومن ثم فإن كل ألماني أو ألمانية غير مسجونين بالفعل أو مُشتبه بهم بأدنى قدْر ممكن من الشك، قد جرى جمعهم واستجوابهم، ولكن حتى الآن، لدى كل منهم حُجة غياب قوية للغاية. كلَّا، لم يُهدَر أي وقت، أؤكد لك هذا.» ثم أضاف بنبرة مختلفة: «ويُمكنني أن أُخبرك أن عليك الفخر بأنه، حتى في لحظة اليأس، قد قرَّر القائمون على الفرع الخاص أن يَطلبوا من إدارتنا الاستعانة بخدماتك.»

قال مكارثي مع ابتسامةٍ ساخرة: «هذا أمر لطيف للغاية منهم، لكنَّني أُفضِّل أن ... لكن لا تشغل بالك بهذا الأمر. أظنُّ أن الغرفة ذات الصِّلة ما زالت على حالها منذ اكتشاف فقدان الخطط لم تُنظَّف، أو تتعرَّض لأيِّ إجراءاتٍ روتينية حمقاء من هذا النوع!»

«يا إلهي، كلَّا، يا رجل! إنَّ المكان، بعد رفع البصمات عنه، قد أُغلق بإحكامٍ شديد في الحال: لقد وُضع حارس على الباب، وحتى خارج النوافذ. ستجدها على حالها بالضبط.»

قال مكارثي بحماس: «حمدًا لله على ذلك»، وتابع بسخرية: «إنها اللعبة الجيدة القديمة: غلق الإسطبل بعد فرار الحصان. إذا كنتَ مُستعدًّا، فلنذهب إلى هناك على الفور.»

وبينما هما يسيران عبر شارع كانون رو باتجاه وايتهول، سرد مكارثي مُلخصًا سريعًا للمفوض المساعد عن أحداث جريمة سوهو سكوير منذ انطلاق تلك الصرخة، وحتى آخِر التطوُّرات غير العادية للقضية.

واختتم حديثه قائلًا: «قد أكون مخطئًا تمامًا، يا بيل، لكنَّني لا أستطيع التخلُّص من ذلك الحدس الذي طرأ على ذهني منذ اللحظة التي وقعت فيها عيناي مرة ثانية في الميدان على الرجل الذي رأيناه في مقهى سنيورا سبادوجليا. أنا واثق بطريقة أو أخرى أن له صِلة بهذه الجرائم، إن لم يكن هو نفسه القاتل الفِعلي فيها. إن ما حدث لريجان، واكتشاف الجثة يُؤكِّدان فقط ذلك.»

قال السير ويليام مُعلقًا: «إنها قضية غريبة للغاية.» وتابع: «لكن ما يزال ليس هناك دليل فِعلي على صِلته بالاعتداء على ريجان. فمن المؤكَّد أنه لم يكن في السيارة.»

قال مكارثي بجدية: «هذا صحيح، لكني أعتقِد أنه طلب تلك السيارة عبر مكالَمة الهاتف التي أجراها من شارع مارليبون لين. وعندي حدس آخر، يا بيل، وهو أن ... لكني سأُؤجِّله لبعض الوقت. على أيِّ حال إلى أن أُلقي نظرةً على هذه الغرفة.»

لم ينطق بكلمة أخرى إلى أن دخلا بوابة المبنى المُقتحَم حيث قادهما موظف رفيع المكانة إلى باب تلك الغرفة التي اقتُحمت على نحوٍ غامض في وقتٍ سابق من فترة بعد الظهر. تنحَّى حارس الغرفة خطوةً إلى الجانب وكان الموظف المسئول على وشك وضع المفتاح في القفل عندما أوقفه مكارثي.

وقال بهدوء: «إذا لم تُمانع، أودُّ أن أكون أول من يَدخل هذه الغرفة. ففي بعض الأحيان يدلُّ مظهر الأشياء مثلما تُركَت على بعض المعلومات.»

وبعد أن فتح الباب دخل إلى الغرفة. وبمجرَّد أن فعل، لمس وجهه نسيم من الهواء الثقيل من داخل الغرفة المُغلَقة. فبدت نظرة غريبة من الرضا على عينَيه، ونطق كلمة «أوه!» التي جعلت المفوض المساعد يخطو باتجاهه سريعًا.

وسأله بحدة: «ما الأمر، يا ماك؟» وتابع: «هل رأيتَ شيئًا يقودنا إلى أي خيط؟»

قال مكارثي بهدوء: «كلَّا، لم أره، بل شممتُه. قبل وقت قصير من الآن، تولَّدت في ذهني فكرة أنني أعلم مَن فعل هذه العملية، والآن أنا مُتأكِّد منها.» وتابع ببطء: «وأنا أعلم الآن الدافع وراء جريمة القتل؛ أعلم الآن «لماذا» قُتل.»

اعترض المفوض المساعد بانفعال قائلًا: «قُتل؟ من هذا الذي قُتل؟ أنت تتحدَّث بغموض يا ماك؟»

رد مكارثي: «بالنِّسبة إليك، ربما.» وتابع: «أما بالنسبة إليَّ فكلَّا. «مدام رونر» هي من قامت بهذه العملية، وهذا هو سبب «قتلها».»

كان الشيء الذي جذب انتباهه عندما دخل الغرفة، وجعله يتصلَّب في مكانه، هو العبير المبهِج لنفس العطر الذي اجتاح أنفه على عتبة مدخل المنزل في سوهو سكوير، ومرة أخرى في المشرحة. وقد تجمَّعت رائحته النفَّاذة وتضاعفت من خلال حقيقة أن الغرفة، وكلًّا من نوافذها وأبوابها، ظلت مُغلَقةً بإحكام منذ أن كانت السيدة المزيفة التي سرقتها موجودة في المكان. وقد كانت بنفس القوة في ذلك المكتب العلوي بسوهو.

ومن ثم قال: «دعنا نذهب، لقد انتهَيتُ من الفحص هنا في الوقت الراهن. إنَّ عملي يكمن في مكانٍ آخر.»

وطلب المفتش الاطِّلاع على شيءٍ واحد قبل مغادَرة المبنى، وهو نُسخة من نوع الأوراق التي قد سُرِقت.

حيث قال موضحًا: «أعني نفس مادة الأوراق التي رُسِمت أو طُبِعت عليها الخطط.»

فعرضوا عليه ورقةً من نوع مِن الأوراق ذات الطبقة الزيتية الرقيقة للغاية والتي كانت ذات لونٍ أزرق داكن. وكان حجمُها حوالي قدمَين مُربعَين، وست ورقات منها، وهو العدد المسروق، مطوية معًا بإحكام كان يمكن إخفاؤها في ملابس أي شخصٍ دون أن يتعرَّض لأدنى مخاطرة بأن يُكشَف أمره. تفحَّصها مكارثي للحظة في صمت، ثم، بلَّل طرفَي إبهام وسبابة يده اليُمنى، وفرك السطح برفق، وبعد لحظةٍ أو اثنتَين ظهر أثر أزرق على طرف إبهامه.

وقال على نحوٍ مفاجئ: «هذا كل شيء»، ثم خرج إلى وايتهول مرة أخرى. فتبعَه بسرعة السير ويليام، وهو يَتساءل بينه وبين نفسه عن الفكرة المجنونة التي ستَستحوِذ على مكارثي بعد ذلك.

عند حافة الرصيف، أشار مكارثي لأول سيارة أجرة رآها تَسير نحو بيكاديلي، فتوقَّفت السيارة على الفور. وتصادف أن من يقودها هو شخص يتمتَّع بحماية مكارثي، وهو مالك وسائق سيارة الأجرة «بيج بيل» (أي: «بيل الضخم») ويذرز، الذي حيَّا كِلا السيدَين باحترامٍ شديد. ولكن في واحدة من المرات القلائل، ردَّ مكارثي اللطيف دائمًا على التحية بغمغمة مُقتضَبة، وركب السيارة، وأعطى أوامره بأن يتَّجه الرجل إلى المشرحة، ثم صمت، وأخذ يُحدِّق في أرضية التاكسي بعبوس. كما التزم هاينس أيضًا الصمت، عندما يُصبح مكارثي في تلك الحالة المزاجية، فهو يفكر تحت ضغط شديد، وكلما قلَّت المقاطعة، كان ذلك أفضل.

عند وصوله إلى المبنى الكئيب، اتجه مكارثي إلى مكتب حارس المشرحة وطلب على الفور حزمة الملابس المُغطَّاة بالسيلوفان والمُعلَّمة بعناية والتي أخذت من جثة «مدام رونر» المقتولة. ولم يكد يفك التغليف حتى وصلَت إليه مرةً أخرى نفحة من هذا العطر، حتى فوق رائحة الدم الجاف الكريهة.

فطلب من هاينس باقتضاب قائلًا: «شمَّ هذه الرائحة.» وتابع: «ألم تشمَّ نفس الرائحة بالضبط عندما فُتح باب تلك الغرفة؟»

أجاب المفوض المساعد على الفور: «لقد شممتُها.» وأضاف: «ماذا يعني هذا يا ماك؟»

«هذا يعني أن الرجل الذي قُتل في سوهو سكوير، الشخص الذي تخصُّه هذه الملابس، هو اللص. لكنني آمُل في العثور على آثار مُحدَّدة لشيءٍ آخر والتي ستثبت هذا بما لا يدع مجالًا للشك.»

ومن ثم فحص كل بوصة من الأجزاء العلوية من الملابس الداخلية الحريرية بمساعدة عدسة مُكبرة، ليكافأ بعد برهةٍ بالعثور على بُقعة زرقاء باهتة على أحد الأجزاء تتوافَق تمامًا مع تلك الموجودة على إبهامه. بعد لحظةٍ أو اثنتين وجد قطعة ورق صغيرة من نفس اللون.

فقال: «ها هي القصة كاملة، يا بيل.» وتابع: «لقد سرق الرجل الخطط، وطواها ودفعها إلى مقدمة فستانه. فخفَّف دفء جسده بعض تلك الصبغة وترك أثرًا. لا بد أن القاتل كان لدَيه فكرة جيدة عن المكان الذي سيجد فيه ما يُريد، وعند نزعها بخفة من حيث كانت مُخبأة، قطع هذه القطعة الصغيرة من الحافة البالية من إحدى الأوراق. وللعُثور على تلك الأوراق المهمة، علينا أن نضع أيدينا على قاتل هذا الرجل الذي تنكَّر في لندن باسم «مدام رونر».»

كرر هاينس قائلًا: «رونر ... رونر ...؟» وأضاف: «يبدو أنني أعرف هذا الاسم من مكانٍ ما قبل ذلك بصرْف النظر عن ذِكرك له.»

لكن مكارثي كان قد ابتعد بالفعل نحو زاويةٍ أخرى. حيث أسرع إلى لوح التشريح الذي وضع عليه القتيل، ورفع الغطاء وفحص أطراف أصابع يدَيه. فوجد آثارًا محدَّدة لنفس البُقعة على يده اليمنى.

فقال: «هذا يحسم الأمر نهائيًّا، يا بيل.» وأضاف: «لقد عثرنا على اللص، وهو أمر جيد بالنِّسبة إلينا.»

سأل السير ويليام بقلق: «ما هي خطوتك التالية، الآن يا ماك؟» وتابع: «ألا يُوجد دليل آخر يمنحك خيطًا من نوع ما لتتبُّعه؟»

قال مكارثي: «منديل دانتيل بدون حتى حرف واحد عليه، وسكين ملطَّخ بالدماء بدون بصمات أو علامات من أيِّ نوع.» وتابع: «لا يُوجَد أي شيء في المكتب الذي في سوهو سكوير سوى كومة من الرماد المُتفحم، وهي تخصُّ الرجل المقتول وبالتأكيد لن تُعطيني فكرة عن الشخص الذي قتله. في رأيي أن أيًّا من هؤلاء المحقِّقين العظماء الذين يَظهرون في الروايات البوليسية كان سيرى عشرات الخيوط فيما لديَّ من وقائع، لكنني للأسف ليس بإمكاني تلمُّس ولو بوصة أمامي.»

تساءل هاينس، بنفس النبرة القلقة في صوته: «مما يَعني أنه ليس لديك حقًّا أي فكرة عن المسار الذي يجب أن تسير فيه الآن يا ماك؟»

توقف مكارثي قبل الرد.

وقال بتأمُّل: «حسنًا، هناك رجل مُحدَّد أريد أن أتحدث معه والذي كان واحدًا من المجموعة التي حاولَتْ دهسي هذا الصباح. ربما كانت تسعى وراء دان ريجان، لكن لديَّ شكوك حول ذلك.»

صاح المفوض المساعد بحماس: «ها! هذه فكرة جيدة.» وتابع: «يُمكنك أن تطلب ...»

قاطعه مكارثي: «أطلب ... أنا لا أريد شيئًا!» وأضاف: «إذا جعلته يعلم بأنني أعرف أنه واحد منهم، فستكون هذه هي نهاية الأمر. سأُضطرُّ للذهاب والتعامُل معه بطريقةٍ ملتوية.»

«إذن، من أجل السماء، ابدأ به دون إضاعة الوقت. إنك ليست لديك أي فكرة عن الحالة العصبية للقيادات التي تُتابع هذه القضية.»

ابتسم مكارثي. ثم قال: «أستطيع أن أتخيَّل. لقد رأيت حالات التوتُّر الشديد التي تَنتاب من هم في المناصب العليا قبل اليوم.» وتابع: «إن أفضل شيء يمكنك القيام به، هو العودة إليهم وإبهاجهم بالأخبار التي تفيد بأن المُفتش المُحقق الكبير مكارثي قد اكتشف اللصَّ بالفعل ووجده ميتًا، كما هو من المُفترض أن يكون. والخطوة التالية ستكون هي العثور على قاتله. بعد ذلك، «قد» تكون هناك فرصة، بقليل من الحظ، لاستعادة الأوراق المسروقة. هيا اذهب، يا بيل، وأرح قلوبهم. ولا تأخُذ ويذرز؛ فسأحتاج إليه.»

سأل هاينس مُتوسِّلًا تقريبًا: «هل هناك «أي» شيء يمكن أن تقترح عليَّ فعله للمساعدة؟»

مرر مكارثي يدَه على شعره الأسود اللامع للحظة بينما كان يفكر.

ثم قال: «أجل.» وتابع: «حاول تعقُّب المكالمة التي أُجريت من كشك الهاتف في مارليبون لين عند حوالي الساعة الواحدة والثلث هذا الصباح. في الفترات السابقة، كان الأمر سهلًا، لكن منذ تطبيق نظام الاتصال الهاتفي التلقائي، أصبح مهمَّة شِبه مُستحيلة. ولكن ابذل محاولة على أي حال.»

«وإذا فشلت؟»

هز مكارثي كتفَيه.

«فقط اجلس والعب بأصابعك لعبة تبديل الأصابع حتى تصلك أخبار منِّي. هذا كل ما يُمكنك فعله، يا بيل، سواء أعجبك ذلك أم لا.»

نخر هاينس قائلًا: «لا أستطيع أن أقول إنَّني أتخيل احتمال حدوث ذلك.»

«أثناء محاولة فعل ذلك، تأكد تمامًا من أن جميع الموانئ الجوية والبحرية تخضع للمراقبة الصارمة من أجل منع حدوث أي شيء مثل محاولة هروب صديقنا ذي العينين الجامدتَين إلى إحدى الدول المُحايدة المفتوحة للمُسافرين من هنا. إن محاولته إرسال الخطط عبر البريد إلى ألمانيا لهي أمر غير وارد، ولكن لا غضاضة في أن تَطلُب من موظَّفي مكتب البريد أن يُراقبوا أي رسائل تُرسَل إلى أوروبا عن كثب.»

قال هاينس: «إنه أمر رُوتيني في الحالة الأخيرة، وقد جرى ذلك منذ فترة طويلة.» وتابع: «لكنني سأُصدِر أمرًا عاجلًا لجميع المسئولين في الموانئ ليُبقوا أعينهم مفتوحة على أيِّ رجل تتطابق أوصافه مع وصف صديقنا ذي المظهر الأعمى الذي رأيناه الليلة الماضية. أعتقِد أنني أستطيع أن أتذكَّره جيدًا بما يَكفي كي أصِفه بدقَّة إلى حدٍّ ما.» وأضاف: «بعد ذلك، أعتقد أنني سأبتعِد لبعض الوقت، فيما يتعلَّق بتلك القضية العاجلة، بالطبع. فأنا لا أتخيَّل استقبال مُكالَمات محمومة كل خمس دقائق أو نحو ذلك لمعرفة ما هو جديد في القضية.»

قال مكارثي: «أنا لا ألومك.»

قال المفوض المساعد بمكر: «ماذا عن مطعم فيري في ريجنت ستريت عند حوالي الساعة الواحدة لتناوُل الغداء؟» وأضاف: «فقد يُصبح لديك شيء جديد لتُبلغني به بحلول ذلك الوقت.»

قال المفتش مع نظرة سريعة على ساعة يده: «نظرًا لأن الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة تقريبًا، فأنا أشك كثيرًا في ذلك. إن حظ عائلة مكارثي المشهور جيد، لكنه ليس جيدًا بهذا القدْر.» وأضاف بمرح: «على أي حال، لقد أكلتُ مرتَين خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية، وهذا يساوي، وأكثر، ما يُمكن لأي رجل تحقيقات جنائية أن يتوقَّعه في هذه الأيام الشاقة والليالي المعتمة. ومع ذلك، نظرًا لأنني أرى أن لدَيك الرغبة في أن تدعوني على وجبة غداء رائعة حقًّا، فلن أرفض العرض تمامًا، ولكن إذا لم أتمكَّن من المجيء إلى مطعم فيري بحلول الواحدة والنصف، فستعرف أنني قد غرقتُ في العمل حتى أنفي على الأرجح في استجواب السنيور فلوريلو ماسكاني.»

صاح هاينس في مُفاجأةٍ كبيرة: «ماسكاني!» وتابع: «إنه الرجل الذي جاء إلى مطعم السنيورا سبادوجليا في الليلة الماضية وأعطاك بعض المعلومات، أليس كذلك؟»

رد مكارثي: «إنه هو.»

«ما علاقته بذلك؟»

أجاب مكارثي بهدوء: «هذا ما أريد أن أعرفه.» وتابع: «هيا اذهب، يا بيل. هيا اذهب. أنت تعرقل عمل القانون!»

الفصل الثاني عشر

مقابلة بالصدفة

لمدة ساعة كاملة الآن، كان مكارثي يتجوَّل في ضواحي سوهو في سيارة الأجرة الخاصة بويذرز، ولكن دون أن يجد أيَّ أثرٍ للرجل الذي يُريده. لقد أخذ يبحث عنه داخل وخارج محلات النبيذ والمطاعم الإيطالية الصغيرة التي يُفضلها الإيطاليون الأشرار الذين منهم فلو. وكان ماسكاني هو قائدهم بلا منازع، وقد أخَذ مكارثي يتجوَّل بهدوء من مكانٍ لآخر، لكنه لم يستطع معرفة أي شيء عنه من سكان سوهو ذوي الأصول الإيطالية. لم يكن مكارثي يعرف ما إذا كان ماسكاني قد اعتبر أنه من الحكمة الخروج من المدينة، أو الاختباء بأي نحوٍ بعد محاولة الدهس التي قام بها في ذلك الصباح لكنه شك في الأمر، حيث لم يكن لدى رجل العصابات سبب للاعتقاد بأنه قد رُصد من قبل أيٍّ من الضحيَّتَين المقصودتَين. ومن خلال معرفته الجيدة بالمفتش مكارثي، فهو كان سيصبح متأكدًا تمامًا في ذهنه من أن الشرطة كانت ستُرسل من يقبض عليه في غضون نصف ساعة من وقوع الحادث، وبما أنه لم يحدث شيء من هذا القبيل، فلن يرى أي سبب للهروب، أو حتى التغيُّب مؤقتًا عن أماكنه المعتادة.

قال ويذرز مقترحًا: «ما رأيك لو تركتك في الشارع قليلًا وذهبت لتلمُّس الأخبار في حانة فازولي السيئة السمعة تلك، أيها الرئيس؟» وتابع: «إنَّ هذا المكان رغم حقارته يُسمَّى تشيركولو فينيتسيا. إنه المكان الرئيسي الذي يَقضي فيه أفراد عصابة ماسكاني وقتهم، على الرغم من أنه يكون مظلمًا للغاية، ولا يقتربون هم منه إلا قُبيل حلول الليل.»

أومأ مكارثي برأسه موافقًا. وقال: «فكرة جيدة، يا ويذرز.» وتابع: «أنا لم أنسَ ذلك الجُحر، لكنَّني أعلم جيدًا أني، شخصيًّا، لن أستطيع أن أحصل على أيِّ معلومات منه. لكن قد يكون الأمر مُختلفًا معك. اذهب لترى ما يُمكنك اكتشافه.»

عاد مرة أخرى في غضون خمس دقائق. وقال: «هناك سباق خيول في بلدة تشلتنهام اليوم أيها الرئيس، وهو وعصابته سيشهدونه. على أي حال، لقد ذهبت العصابة، وفازولي يظن أنه سيتبعهم على الأرجح.»

وافق مكارثي على ذلك قائلًا: «بكل تأكيد، يا ويذرز.» وتابع: «ما كان عليهم استقلال القطار المتَّجه إلى هناك قبل العاشرة صباحًا. وهذا يترك متَّسعًا من الوقت لماسكاني ليستقله بعد ... بعد أن رأيته في وقتٍ مبكر من هذا الصباح.» وأضاف: «وفي هذه الحالة، يبدو أنه سيُمكنني الذهاب إلى مأدبة الغداء في مطعم فيري. وأثناء وجودي فيه، من الأفضل إيقاف سيارتك في مارلبورا ستريت والحصول على شيءٍ لتأكله أنت أيضًا. لا تقترب كثيرًا من محكمة الشرطة، وإلا فقد يَحتجزونك بالداخل.»

قال السيد ويذرز، وهو يَبتسِم بشدة: «لا تقلق، أيها الرئيس، لقد ذهبت هناك مرتَين وكان هذا على أي تقدير كثيرًا للغاية.» وأضاف: «وفيما يتعلَّق بالغداء، فإن غدائي يكون جاهزًا دائمًا في أي ساعة خلال أوقات الفتح. وبمجرد ملء كوبين جيدَين من مضخة الجعة، يُصبح كل شيءٍ جاهزًا للتقديم.»

حذَّره مكارثي قائلًا: «لا تُبالغ في الأمر يا ويذرز.» وتابع: «إن طرق مرتكبي المُخالفات المرورية ليست هينة هذه الأيام.»

صاح السيد ويذرز: «أنا أعلم أيها الرئيس.» وأضاف: «إنها كذلك! الاضطهاد العادل، أنا أدعوه.»

ومن ثم وصل مكارثي إلى ريجنت ستريت وتوجَّه إلى ذلك المطعم الشهير، والمفضل لدى الأثرياء والمتأنقين، ووجد هاينس يجلس بالفعل على طاولةٍ ينتظره. ورأى عددًا كبيرًا من الأوروبيِّين المرموقين، يتناولون وجبة الإفطار المتأخِّر التي اعتادوا عليها. فهو المطعم المفضَّل لذلك.

وجلست، بينهم، بمُفردها على طاولة بالقرب من إحدى النوافذ، واحدة من أجمل النساء التي تذكَّر مكارثي أنه رآها منذ فترة. لقد كانت تَرتدي ملابس بسيطة، لكنها باهظة الثمن، وكانت في المُجمل مشهدًا مُمتعًا لأي عين. وعندما جلس في مقعده، التفتت، ولاحظت على ما يبدو هاينس لأول مرة، فانحنت له. فأجابها على الفور بانحناءة تحمل عميق الاحترام. للحظة، اعتقد مكارثي أن هاينس سوف يتَّجِه إلى النافذة ويتحدث معها، لكنه أعطى انتباهه للنادل الذي تقدم بقائمة الطعام.

وبعد الانتهاء من طلب الغداء، سأل: «من هي تلك السيدة؟»

قال هاينس هامسًا: «البارونة لينا إيبرهارت.» وأضاف: «إنها صديقة قديمة جدًّا لي — أعني بهذا أنني قد التقيتُ بها عشرات المرات في مناسبات اجتماعية مختلفة.»

سأل مكارثي بلا مبالاة: «هل هي ألمانية؟» فقد بدَت له كذلك، بكل تأكيد.

«يا إلهي، كلَّا، إنها نمساوية. وهي تكره المعسكر النازي بشدَّة. إنها من فيينا؛ فهي واحدة من النبلاء النمساويين القدامى الحقيقيين. إنها تعيش هنا منذ سنوات؛ سنتين أو ثلاثٍ على الأقل. وتمتلك منزلًا قديمًا فخمًا في جروفينر سكوير.»

قال مكارثي: «حقًّا؟ يا للعجَب!» وتابع: «إذن فهي أكثر حظًّا بكثير من مُعظَم النبلاء النمساويين القدامى. فهم ليس لديهم أي منازل في أي مكان في الوقت الحالي، أو أموال، أيضًا.»

قال هاينس: «لقد كانت محظوظة بما يكفي لإخراج كل أموالها قبل وقتٍ طويل من تفكير هتلر في الاتحاد بين ألمانيا والنمسا.» وتابع: «ولم تكن أموالها قليلة، أؤكِّد لك ذلك. إن البارونة امرأة ثرية حقًّا.»

قال مكارثي، وهو يمدُّ يده لتناوُل الطعام: «كم أتمنَّى لو كنت ثريًّا أنا أيضًا!» ثم تابع بهدوء: «لقد لاحظتُ أن السيدة ما زالت تتطلع إليك بطرفٍ خفي، يا بيل. يبدو الأمر كما لو كانت تَعتقِد أنه يجب عليك الذهاب والتحدُّث معها.»

قال المفوض المساعد: «وهذا ربما ما ينبغي عليَّ فعله.» وأضاف: «لقد كنتُ ضيفها مرات عديدة. اسمح لي للحظة.»

ومن ثم اتجه إلى الطاولة، وتحدَّث إلى السيدة لمدة ثلاث أو أربع دقائق، والتي بدَت بطريقة ما وكأنَّ عينَيها الجميلتَين مثبتتان على مكارثي، بينما تتحدَّث مع رفيقه بحماس. كان هذا لدرجة أنه جعل ذلك الرجل الوسيم للغاية يشعر بالخجل بعض الشيء. وبعد بُرهة عاد هاينس.

وقال: «يا ماك، لقد طلبت منِّي أن أحضرك كي تتعرَّف عليك. لقد سمعت البارونة عنك وقرأت في الصحافة عن بعض مآثِرك، وهي مهتمَّة للغاية بمقابلتك.»

شهق مكارثي قائلًا: «مقابلتي!» وتابع: «عجبًا، يا بيل، أنا خَجُول للغاية عند التحدث إلى أي شخص، فماذا عن سيدة مجتمَع يجب أن أراعي قواعد اللياقة أمامها. كما أني جائع للغاية أيضًا.»

فقال مشجعًا: «بعد أن تَنتهيَ من الغداء، بالطبع. إن البارونة ليست في عجلة من أمرها؛ إنها في واقع الأمر تستنفد الوقت حتى تلتقي بصديق. هيا يا رجل.» وأضاف: «لا

يمكنك التهرب من الأمر وتحتاج فقط إلى البقاء بضع دقائق. فقط كن لطيفًا لمدة دقيقة أو دقيقتَين، إنها حقًّا امرأة فاتنة للغاية.»

وبعد انتهاء الوجبة وتسديد الفاتورة، نهض هاينس وانتقل إلى طاولة السيدة. وتبعه مكارثي على مضض، وبينما كان يتمنَّى في داخله أن تكون هي في الطرف الآخر من العالم في ذلك الوقت، لم يَسمح لأي علامة تدلُّ على مشاعره الحقيقية أن تظهر على وجهه. وخلال لحظة أو اثنتين كان يتحدَّث معها بمرح كما لو أنه كان يعرفها طوال حياته.

قالت مع ضحكة موسيقية ناعمة بشدة وجدها مكارثي رائعة للغاية: «لن تُخمِّنا أبدًا ما كنت أفعله هذا الصباح.» وتابعت: «ربما ليس من الحكمة أن أقول لكما يا رجُلَي الشرطة؛ لأنني أفهم أنه وفقًا لقوانينكما الحمقاء، والمضحكة جدًّا، فهذا غير قانوني تمامًا. لذلك أنا مجرمة.»

تمتم مكارثي بشجاعة: «مجرمة جميلة للغاية!» وتابع: «ما هي الجريمة، أيتها البارونة؟»

أجابت: «لقد عرفتُ طالعي.» وأضافت: «مرة كل شهر، إن لم يكن أكثر من ذلك، أذهب إلى قارئة الطالع المفضَّلة لديَّ كي تقرأه لي باستخدام كريستالة الطالع، وهذا، كما أفهم، يعدُّ جريمة في هذا البلد. أليس كذلك؟»

ضحك هاينس وقال: «هذا دجل خالص»، لكنها هزت رأسها نافية ذلك بشدة. فاعتقد مكارثي أن البارونة إيبرهارت يُمكن أن تتحدَّى بنحو لا يتزعزع إذا اختارت ذلك.

فقالت: «ليست هذه المرأة.» وتابعت: «لقد عرفتها في فيينا قبل أن تأتي إلى هنا. إن مدام رونر، كما تسمِّي نفسها في لندن، ليست دجالة؛ إنها ليست كذلك على الإطلاق.»

عند ذكر هذا الاسم، شعر المفتش أن جسده أصبح مُتصلبًا، ولكن لم يسمح لرجفة عضلة أن تُغيِّر الابتسامة على وجهه. وبدا له، على الرغم من أنه كان سيعترف بحرية أنه قد يكون هذا مجرَّد خيال محض من جانبه، أن البارونة كانت تُراقبه خفية وهي تنطق بالاسم؛ على أي حال كانت قد استدارت بالكامل في اتجاهه. لقد صدمته كمصادفة غير عادية أن هذا الاسم، الذي لم يصادفه من قبل، شخصيًّا، مع كل معرفته بلندن وويست إند، قد جاء بطلاقة شديدة من شفتَي هذه السيدة في هذه اللحظة بالذات.

لم يبدُ على هاينس، وهو يَبتسِم للسيدة على نحو شبه أحمق، أنه قد لاحظ أي شيء؛ لم يكن الاسم قد انحفَرَ في ذاكرته مثلما حدث مع مكارثي. وانطلق في ذهن المفتِّش جرس إنذار غريزي بينما كان يَستمِع، بألا يذكر حقيقة أن الاسم يعني له أي أهمية، وأن

يستمر في الابتسام المُتكلَّف مثل أحمق مُبتسِم، ويرى على أي نحوٍ سيتطور هذا الموقف الغريب.

لكن هناك أمرًا واحدًا قفز على الفور إلى ذاكرته. في المنزل الواقع في سوهو سكوير كان قد فحص سجل الهاتف ليجد مشتركًا واحدًا بذلك الاسم فيه؛ الرجل المُتخفي في هيئة امرأة والذي قتل على نحوٍ وحشي جدًّا في الليلة الماضية. فقرَّر أن ينصب فخًّا صغيرًا.

«إنه لأمر مُحير بالنسبة لي كيف يستمرُّ هؤلاء الناس في ممارسة نشاطهم، أيتها البارونة، عند الأخذ في الاعتبار كل الشراك التي تَنصبُها لهم شرطة العاصمة، وسكوتلاند يارد. أظن أنه يتوجَّب عليكِ أن تحجزي معهم موعدًا مسبقًا عبر الهاتف، ويتوجَّب عليهم أن يُدخلوكِ إلى المكان الموجودين فيه ويُخرجوكِ منه ثانية بسرعة وعلى نحو خفي قدْر الإمكان.»

«أوه، أجل، أنا دائمًا ما أحادثها مُسبقًا عبر الهاتف، بالطبع؛ يجب على المرء إخطارها مسبقًا برغبته في مقابلتها. إنَّ لديها مجموعة كبيرة من الزبائن منا نحن المؤمنين بمن يُمكنهم معرفة الغيب رغم آرائكم الرسمية الحمقاء.»

قال هاينس وهو يبتسِم: «في رأيي أنه يتوجَّب علينا تشديد الصلات مع مسئولي الاتصالات التابعين لنا في هذا الخصوص.» وتابع: «لا يُمكن السماح لأصدقائنا بوضع أنفسهم في موضعٍ يجري فيه القبض عليهم بينما يُكشف لهم عن مستقبلهم. هل كان طالعكِ جيدًا، حسبما أتمنَّى؟»

ابتسمت البارونة. ثم أجابت: «أوه، تمامًا.» وعدلت قائلة: «على الأقل، جيد على حسب ما أتوقع أن يكون على نحوٍ منطقي في هذه الأوقات المُفزعة. أجل، تنبؤات هذا الصباح كانت مبـ — كيف تُقال الكلمة؟ — مبشرة.»

«هذه كذبة»، هاتان كانتا الكلمتَين اللتين ضربتا بقوة عقل مكارثي، على الرغم من أن الابتسامة لم تُفارق شفتَيه حتى اللحظة. إذ نظرًا لأنه كان يعرف على نحوٍ مؤكد أن هناك مدام رونر واحدة مسجلة في سجل الهاتف، فمن المُستحيل تمامًا لهذه المرأة أن تكون قد اتصلت بها عبر الهاتف هذا الصباح، أو ناهيك أن تكون قد زارتها. كان هناك معنى مُحدَّد وراء ذكر أمر تلك المرأة المزيفة، ولم يكن غير واضح بالمرة بالنسبة له. إن هاينس، بحسب ما يعرف وقد كان هذا شيئًا شبه مؤكَّد، لم يذكر جريمة القتل التي وقعت في سوهو سكوير؛ أحد الأسباب أنه لم يكن لديه الوقت الكافي ليفعل ذلك، كما أنه فيما يتعلَّق بمثل هذه الأمور ليس هناك رجل في العالم أكثر حفاظًا على أسرار قضايا

القسم من هذا المفوض المساعد الذي يَرأسه. هذا أمر مؤكد للغاية بوجه خاص في هذه الحالة نظرًا لأنَّ القضية ذات صِلة بمسألة وايتهول.

وقد بدأت تُسيطِر على عقلِه فكرة أن، هذه المرأة، البارونة النمساوية، أو أيًّا مَن تكون، تعرف «شيئًا» عن تلك الجريمة. لا بدَّ أنها بطريقة أو بأخرى قد علمت أنه هو من يتولى التحقيق فيها، وإلا فإن ذكر الاسم ليس له أهمية على الإطلاق. فإما أنها قد فعلَت ذلك كتلميحٍ مُتعمَّد لاكتشاف معلومة ما، وتلك المعلومة هي ما إذا كان قد توصَّل بعد إلى الهوية الحقيقية لـ «المرأة» التي قُتلت، وإما أن الأمر لا معنى له. والاحتمال هو أنها كانت تتوقَّع منه أن يَنتهِز الفرصة بنهمٍ عند ذكر الاسم ويشرع في إمطارها بوابل من الأسئلة، والتي من خلالها ستَستخلِص المعلومات التي لا تجرؤ على السؤال عنها بطريقة مباشرة. إنها نقطة كان يجب أن يتأكَّد منها للغاية قبل المتابعة أكثر في الحديث.

كان على وشك أن يَستأذن ويُغادر المكان بحُجة أن لديه أعمالًا يجب أن تنجز، عندما رأى، عبر الستائر السلكية التي تحافظ على خصوصية المطعم، والمثبتة على كل النوافذ المطلة على الشارع، شيئًا استوقفه بشدة. إذ كان يَعبر ريجنت ستريت وباتجاه هذا المطعم، وبزاوية تُشير إلى أنه قادم من اتجاه أكسفورد ستريت، الرجل الذي كان يبحث عنه – فلوريلو ماسكاني. وبعد أن وصل إلى الرصيف، نظر نحو ساعة يده، ثم تحرَّك مباشرة باتجاه ركن النافذة التي توجد خلفها الطاولة التي تشغلها البارونة. واقترب من النافذة بأكبر قدر مُمكن، وعندما فعل ذلك، رآه مكارثي وسمعه يطرق طرقة مميزة على لوح الزجاج.

لم تكن تلك الطرقة مميزة فحسب، بل أيضًا «شديدة التميُّز» على نحو غريب؛ نقرة مزدوجة سريعة، ثم نقرتان مُنفردتان. بالنسبة إلى المفتش، فإن مراقبة ماسكاني وهو يعلم أنه لا يستطيع أن يراه، لا هو ولا أيُّ شخص آخر على تلك الطاولة من وراء الستار السِّلكي، كانت أمرًا غريبًا للغاية مثل كل شيء آخر له صلة بهذه القضية الاستثنائية.

لقد كان متأكدًا من أنها إشارة من نوع أو آخر، ولكنه لم يكن يعرف لِمَن هي موجهة. من المؤكد أنها ليست له، ولا لهاينس، الذي لا يُمكن رؤيته، وبدا أمرًا سخيفًا أن يفترض توجيهها للأرستقراطية النِّمساوية الثرية، البارونة إيبرهارت. وعند حدوثها، كانت عينه عليها في نفس اللحظة التي طرَق فيها ماسكاني على الزجاج؛ وفي واقع الأمر كانت هي الأقرب للرجل ذي الأصول الإيطالية في تلك اللحظة؛ وبالفعل، لم يكن يفصل بينهما سوى لوح الزجاج السَّميك. وبالكامل ودون قصد، كانت عَينا مكارثي تَنظُران

نحوها بقدر ما كانتا تنظران نحو ماسكاني. ولكن لم تتحرك عضلة واحدة من وجهها الجميل عند سماعها للصوت. وفي الواقع بدا أنها لم تَنتبِه لوقوعها على الإطلاق. لقد كان ذلك أمرًا غريبًا للغاية، فهو متأكِّد تمامًا من أنها لم تكن مجرد نقرات عادية للأصابع على النافذة أثناء المرور. لقد جعل الموقف برمَّته مكارثي يُخمن ويُفكِّر.

كما شاهَد مكارثي شيئًا آخر عبر الستائر السِّلكية، وهو ظهور السيد ويليام ويذرز، بدون سيارته، عند زاوية الشارع أمامه تقريبًا. حيث رأى سائق سيارة الأجرة الضخم وهو يُشعِل سيجارة، ويَنظُر حوله على نحو يُوحي بأنه يُمضي الوقت إلى حين ظهور زبونه، وعندئذ ثبتَت فجأةً عينا ويذرز على شيء موجود على نفس جانب مطعم فيري من الشارع، رغم أنه كان، بالطبع، بعيدًا عن نطاق رؤية مكارثي. ولم يكن لديه شكٌّ حول ما، أو بالأحرى من، استرعى انتباه «بيج بيل» رجل العصابات، ماسكاني. وحيث إن ويذرز ظلَّ في مكانه فقد دل ذلك مكارثي على أن ماسكاني كان يتسكَّع في مكان قريب للغاية من المطعم.

سأل مع ابتسامة ودودة كشفَت عن أسنانه البيضاء: «هل غالبًا ما تأتين إلى هذا المكان، أيتها البارونة؟»

أجابت: «بانتظام.» وتابعَت: «أنا دائمًا أتناول وجبة الصباح هنا. لا يُوجد مكان آخر في لندن يُمكنُني أن أحصل فيه على الفطائر الملفوفة والقهوة النِّمساوية المغطَّاة بالكريمة مثل هنا. من الساعة الواحدة، أو الواحدة والربع، حتى الثانية والنصف، يَعلم أصدقائي دائمًا أين يَجدونني.»

سأل مكارثي: «وهل دائمًا ما تَجلِسين في نفس البقعة، على هذه الطاولة المبهجة بجوار النافذة؟»

أومأت بالإيجاب. وقالت: «بدون أي تغيير.» وأضافت: «إنَّ لويجي — وأشارت نحو نادل كبير في السن — يَحجزها لي دائمًا؛ فأنا واحدة من زبائنه الدائمين. أنا دائمًا أجلس على هذه الطاولة لأنَّني أحب مشاهدة الناس وهم يمرُّون أمام المطعم. فأنا أُسلِّي نفسي بالتساؤل عن هُوياتهم وسلوكهم، وكيف يَكسبون أرزاقهم، وكل ذلك.»

تمتم مكارثي، وعقله مُنشغل: «إنها رياضة رائعة.» وعدل قائلًا: «هذا إن لم يكن عليكِ فعل هذا النوع من الأمور لكسب الرزق.» وتابع مع تنهيدة: «وهو ما يُذكرني بأن عليَّ الذهاب لكسب رِزقي، والجلوس هنا في هذه الصحبة المُبهِجة لن يفيَ بالغرض. يجب أن يكون هناك من يفكُّ ألغاز الجرائم المُتزايدة.»

وبعد أن انحنى وقبَّل يد السيدة، اتجه نحو المدخل، وعندئذٍ التفت كما لو كانت فكرةً مفاجئة قد طرأت على ذهنه. فقال: «هل يُمكن أن أتحدَّث معك يا سير ويليام؟»

نهض هاينس على الفور واتجه نحوه. فاقتادَه مكارثي بعيدًا أكثر حتى لا يصل صوتهما إلى السيدة الجالسة على الطاولة.

وسأله بسرعة: «أخبرني يا بيل، هل تصادَفَ أن سألتْك السيدة، قبل أن تطلب التعرُّف عليَّ، عن القضية التي أُحقِّق فيها؟»

نظر إليه هاينس بسرعة. وقال مع نبرة تردُّد في صوته: «حسنًا، كلَّا يا ماك.» وتابع: «لم تسأل. ليس على وجه التحديد.»

سأل مكارثي: «وماذا تعني بالضبط بعبارة «ليس على وجه التحديد»؟»

أجاب المفوض المُساعِد: «أعني أنها، بقَدرِ ما أتذكَّر، لم تسألني أي سؤال محدَّد عن ذلك.» وتابع: «أعتقد أنني مَن ذكرتُ لها حقيقة أنك تتولى التحقيق في جريمة قتلٍ مُثيرة للغاية حدثت في سوهو سكوير في الليلة الماضية.»

قال مكارثي بحدَّة: «لقد فهمت.» وأضاف: «وهل كانت مهتمَّة؟»

«أوه، للغاية، وقالت إنها ستُتابع القضية باهتمامٍ كبير في الجرائد.»

كان ما دار في عقل مكارثي هو الآتي: «لقد استدرجتْك لتَعرف ما تُريده منك دون أن تعي ذلك، أيها الأحمق الملعون.» أما ما قاله بالفعل: «إنه لأمر لطيفٌ أن تُقدِّر يا بيل. ولم يتصادَف أنك ذكرتَ أيَّ شيء عن ...»

قال السير ويليام، بهمسٍ تقريبًا: «قضية وايتهول!» وأضاف: «يا إلهي، كلا! ليس هناك إنسان على وجه الأرض يُمكنه الحصول على كلمة منِّي بهذا الصدد!»

قال مكارثي: «هذا أمر جيد»؛ ومن ثم غادر.

وعند مروره أمام تلك النافذة الواقعة في أقصى الزاوية والتي تُوجَد أمامها الطاولة المُعتادة للبارونة إيبرهارت حيث تجلس يوميًّا من الساعة الواحدة أو الواحدة والربع حتى الثانية والنصف، حاول مكارثي أن يرى إذا كانت عيناه الدقيقة الملاحظة يُمكن أن ترى من خلال الستائر السِّلكية، لكنها لم تفعل؛ حيث كان كلٌّ من السيدة وهاينس غير مرئيين مُطلقًا كما لو كانا يجلسان خلف حائط من الطوب.

وتمتم مُحدِّثًا نفسه، بينما تتردَّد في عقله تلك الطَّرقة المحدَّدة للغاية على الزجاج: «لكن بإمكانها هي رؤية كل الناس الذين يمرُّون على نحوٍ جيد.» ثم قال في حيرة: «تركيبة غريبة»، وهو يبحث بعينَيه عن ويذرز، ليجدَه عبر الجانب الآخر من الطريق؛ وتابع: «إنها أغرب من أن تكون محتمَلة.»

لحقَ المفتِّش بويذرز وهو على وَشكِ الدخول إلى جلاسهاوس ستريت.

وقال بإيجاز، بينما يَلتقي بالمفتش: «ماسكاني.» ثم أضاف: «لقد تتبعتُه قليلًا. وسمعته يقول لشخصٍ ما إنه سيَذهب إلى حانة فازولي عند التاسعة تقريبًا هذه الليلة.»

أومأ مكارثي. وقال: «على أيِّ حال، يا ويليام، سنُؤجِّل مُراقبته في الوقت الحالي. وأنا أيضًا سأذهب إلى حانة فازولي. وفي غضون ذلك، لديَّ قدْر كبير من التفكير العميق الذي عليَّ القيام به، وأمر أو اثنان لأستعدَّ قبل أن أُداهم ذلك الجُحر القذِر على نحوٍ لا يُوصف، تشيركولو فينيتسيا، هذه الليلة. أظنُّ أنني سأعود إلى المنزل سيرًا، وأقدح زناد فكري المُثمر في طريق عودتي.»

فسأله السيد ويذرز: «هل هناك شيء آخر أستطيع القيام به أيها الرئيس؟» وأضاف: «حدِّدْه لي، يا سيدي، واعتبر أنه قد أُنجِز، كما تَعلم.»

فكَّرَ مكارثي للحظة. ثم سأل فجأة: «أخبِرني ما إذا كان ماسكاني لا يَزال يُواعد تلك الفتاة الجميلة للغاية، تيسا دومينيكو، هذا إذا كنتَ تُتابع علاقات الحب في سوهو، يا ويذرز.»

قال «بيج بيل» باقتضاب: «أنا غير مُتابع، أؤكِّد لك أيها الرئيس.» وأضاف: «لكن بخصوص هذا الثنائي؛ فقد شاهدتُهما بالجوار كثيرًا، حيث يَذهبان إلى المطاعم وتجمُّعات الفلاش دانس. وقد سمعت، من بعض المُطلِعين على الأمر، أن السبب في أنها لا تزال تُواعدُه هو عدم جرأة أي شخص آخر على الاقتراب منها. فمن يُضبَط وهو يَرقص معها يعرِّض نفسه للمشاكل، ومن يُحاول مُواعدتها يعرض نفسه للموت، من قبل ماسكاني.»

قال مكارثي، مع هزة من رأسه: «هذا هو السبب، أليس كذلك؟» وتابع: «إنه عالم غريب، يا ويذرز، ومُحزن أيضًا. نحن نَكبر في السن بداخله دون أن يتَّعظ أيٌّ منَّا. ربما لن تُصدِّق ذلك، لكنني أعرف تيسا دومينيكو، ملكة سوهو، مثلما يُطلِقون عليها، منذ أن كانت طفلةً صغيرة تسير بخُطًى مُتعثِّرة وهي ذاهبة إلى المدرسة وعلى وجهها بقايا المربى أو ربما عسل القصب المكرر. وأذكر عندما حصلت على أول وظيفة لها؛ حيث عملت كنادِلة في مَقهى سكاربيتي بأكسفورد ستريت، وحينها أصبحت فتاة ناضِجة بارعة الجمال. وعندئذ، فازت بالجائزة الأولى في مسابقة الجمال تلك، وبعد ذلك ... إياك أن تفوز بجائزة في مسابقة جمال يا ويذرز؛ إنه يُصبح بمنزلة السقوط بالنسبة لك.»

ابتسم السيد ويذرز ابتسامة عريضة. ثم ضحك ضحكةً خافتة قائلًا: «إن كل الجوائز التي أفوز بها خلال مسيرتي، أيها الرئيس، لن تَشتريَ لي أي ملكية.»

«لا يُمكنك أبدًا الجزم بذلك يا ويذرز. أنا أتذكَّر تيسا الصغيرة عندما كان من المُمكن أن تقول نفس الشيء، وانظرْ إليها الآن. لقد كنت بصحبة سيدة جميلة للغاية، لكنني أقرُّ بأنها لا تُقارن بالطفلة التي اعتادَت أن تمسك بيدي وتقودني نحو عربة العجوز جو أنسيلمي لشراء الآيس كريم لها. وكان ذلك قبل أن يَمتلك عربة القهوة.»

تجهَّم وجهه عند تذكُّره العجوز المسالم الذي قُتل على نحو بشِع في الليلة الماضية؛ وزمَّ شفتَيه بشدة، مما أنبأ عن توعُّده بمصيرٍ سيئ لمُرتكبي تلك الجريمة البشعة عندما، في نهاية الأمر، يُلقي القبض عليهم.

قال ويذرز وهو يهزُّ رأسه الضخم: «لقد كانت جريمة بشِعة يا سيدي.»

ردَّد مكارثي: «بشعة!» وأضاف: «لا تتحدَّث عنها يا ويذرز. إن مجرَّد التفكير فيها يجعلني أرغب في الفتك بشخصٍ ما. لقد كنت تسأل لتوِّك عما إذا كانت هناك أي مهمَّة لتفعلها. هناك واحدة. في مطعَم فيري هناك سيدة ستظل بالداخل حتى الساعة الثانية والنصف، على أي حال، هذه هي عادتها المنتظمة. ومن المُحتمَل أن تُغادِره بصحبة السير ويليام هاينس. عليك أن تركن سيارتك بالقُرب من الزاوية وتترقَّب خروجها. إنها تعيش في جروفينر سكوير، وأنا أريد أن أعرف في أي منزل بالتحديد. وفي حالة أنها لم تخرج بصحبة السِّير ويليام، إليك وصفها.»

وعلى نحوٍ سريع منح سائق سيارة الأجرة وصفًا شفويًّا للبارونة الجميلة لينا إيبرهارت مع تفاصيل دقيقة يُمكن من خلالها لرسَّام أن يَرسم لها بورتريهًا مُتميزًا إلى حدٍّ كبير.

«هيا اذهب، يا ويذرز، وفي حالة أنها عادَت إلى منزلها بعد التجوُّل في عدة أماكن أعلِمني بالأشخاص الذين تواصَلَتْ معهم؛ بقَدر الإمكان، بالطبع. واتصل بي على الهاتف في دين ستريت لتُبلِغني بالمعلومات التي توصَّلتَ إليها، وبحلول ذلك الوقت يُمكنني تحديد كيف يُمكنني الاستفادة منك هذه الليلة. هيا اذهب، يا ويذرز، هيا اذهب!»

الفصل الثالث عشر

ويذرز يُقدِّم بعض المعلومات المُثيرة للاهتمام

جلس مكارثي في غرفته ليتأمَّل أحداث هذه القضية، وليُرتبها ترتيبًا زمنيًّا بنحوٍ ما يَمنحه أساسًا قويًّا يبدأ العمل منه. إنَّ الأحداث المروِّعة التي حدثت في الليلة الماضية، التي قد وصَلَت إلى قِمَّتها بمَقتل الشرطي هاربر، بلا شك قد بدأت بالجريمة الوحشية لَمقتل العجوز صاحب عربة القهوة، جو أنسيلمي. وبدا أن التخطيط المُسبق لارتكاب تلك الجريمة من قبل عقلٍ ماكر على أساس أنها الطريقة الوحيدة لنقل جثة الضحية المقصودة خارج سوهو سكوير حقيقة مؤكَّدة.

وبخصوص الجريمة الثانية، قد يُوجَد شك قليل أو لا يُوجَد شك على الإطلاق في أن القاتل قد حصل على معلومة بأنَّ مدام رونر المزيفة تلك ستَذهب إلى مبنى المكاتب هذا في سوهو سكوير في موعدٍ محدَّد في الليلة الماضية، أو على وجه الدقة، في وقتٍ مُبكِّر من هذا الصباح. إذن الإمكانية، أو الاحتمالية في واقع الأمر، هي أن رونر قد استُدرجَت إلى هناك عبر رسالة ما لها علاقة بالخطط المسروقة من وايتهول بعد ظُهر ذلك اليوم.

وأشار هذا، مرةً أخرى، إلى أن القاتل، ومَن هم على صِلة به، قد عِلم ليس فقط بوجود تلك الخطط وأن رونر سرقتْها، ولكن أيضًا أن اللصَّ يَحملُها معه، على الأرجح، استعدادًا لهروب سريع من البلاد وهي بحَوزته. ويبدو أن هذا يُشير بما لا يدع مجالًا للشك إلى أن اللصَّ هو عميل مُخابراتي لإحدى الدول، بينما القاتل عميل مُخابراتي لدولةٍ أخرى.

وبدا، بالحُكم من خلال الإخلاء التام لمكتب مدام رونر، أن تلك الشخصية الغامضة قد دخلت أولًا إلى المبنى وعمدت إلى تدمير أيِّ أثرٍ يدلُّ على الهوية أو العمل الخاص بها (أو على وجه الدقة «الخاص به») قبل التواصُل مع الشخص أو، ربما، الأشخاص، الذين

سعوا ليس فقط لقتله، ولكن للحصول على ما يَعرفون أنه يحمِله. ومن ناحية أخرى، ربما حدث الإخلاء في وقتٍ مُبكر من المساء بعد الغارة الناجِحة على الخزنة في وايتهول. وأيًّا كانت الفرضية الصحيحة، فليس هناك فارق في النتيجة. كان مكارثي متأكدًا تمامًا من شيءٍ واحد؛ وهو أن القاتل ليس هو من أخلى المكتب بعد إخراج جثَّة الضحية من سوهو سكوير في عربة القهوة الخاصة بأنسيلمي؛ إذ إن الوقت المُنقضي بين الصرخة واكتشاف جثة هاربر لم يكن كافيًا ليسمح بفعل ذلك.

وبتتبُّع الأحداث وَفق ترتيبها الزمني، فإن أول شخصٍ استرعى انتباهه في الميدان كان هو ذلك الشخص الغريب وذا المظهَر الذي يُنبئ بالشر بلا شك؛ الرجل ذا العينَين ذواتَي اللون الأزرق الثلجي. وهذه، بالطبع، قد تكون مُصادَفة بحتة ولا علاقة لها بأي نحوٍ بالجريمة. لكن، على نحوٍ ما، فإن ذلك «الحدس» الذي تتبَّعه في وقت الجريمة ما زال يُراوده بشدة الآن مثلما كان آنذاك؛ وفي الواقع، على ضوء ما حدث لداني ريجان، فقد ارتقى هذا الحدس من كونه فقط واحدًا من تلك الشطحات الغريبة لعقله والتي تقودُه غالبًا إلى الاتجاه الصحيح، إلى أمرٍ ملموس للغاية.

وبينما كان يُمعن النظر في الأمر، نهض واتَّصل بالمشرَحة عبر الهاتف. لم يكن الطبيب الشرعي موجودًا هناك، لكنه ترَك له رسالة مع موظَّف المشرحة. إن الدم المكشوط من ثياب ريجان، هو بلا أدنى شك، دم الجثة التي ألقي فوقها ذلك النشال على أرضية السيارة التي أخذته إلى هامبستيد هيث. قُضي الأمر في هذا الشأن. وبخصوص نقل تلك الجثة من سوهو سكوير، لقد استرعى انتباه المُفتش كيف لعب الحظ دورًا كبيرًا في لعبته الخاصة. فلولا اندلاع الحريق الذي أضاء سوهو سكوير المُعتم بالكامل، لكان احتمال مشاهدة عربة القهوة الخاصة بجو أنسيلمي وهي تُغادر الميدان هو واحد في الألف، ولم يكن الربط بين جريمة قتل الرجل العجوز وقضية سوهو سكوير ليَحدث أبدًا على الإطلاق. وحينها، كانت تلك الجريمة وطريقة إخراج الجثة من سوهو سكوير ستُسجَّلان على الأرجح في السجلات على أنهما «لغزان بلا حل».

وبدا أن هناك القليل من الشك — وإن كان معدومًا في عقل مكارثي، رغم أنه لا يَمتلك أدنى دليل ليدعم هذا — في أنَّ الرجل ذا العينين ذواتَي اللون الأزرق الثلجي قد تواصَل مع بعض أعوانه عبر كشك الهاتف في مارلبورو لين، وأعطاهم معلومة أنه يجري تتبُّعه، وأعطاهم موعدًا كي يُقلوه في بارك لين، ومن ثم حلَّت المشاكل على رأس ريجان.

وبعد ذلك وفوق كل هذا جاءت تلك المقابلة المثيرة للدهشة مع البارونة لينا إيبرهارت هذا الصباح! وهي، بالفعل، مُصادفة استثنائية إذا كانت قد حدثت له واحدة من قبل

خلال حياته المهنية المُتنوِّعة بغَرابة، وقد أتت عبر شخصٍ له أهميته مثل المفوض المُساعد. إن أول اسم، تقريبًا، نُطِق عبر شفتَي هذه الأرستقراطية النمساوية هو اسم امرأة ليست بامرأة، بل بكل تأكيد عميل مخابراتي جسور، وبارع على نحوٍ استثنائي. وهذا أمر يلفُّه الغموض على أيِّ حال، وقد ثبت ذلك بما لا يدع مجالًا للشك.

وكذلك فإنَّ اللامبالاة الشديدة التي قُدم بها الاسم، مع اقترانها بحقيقة أن البارونة أقرَّت بأنها قد تواصلَت هذا الصباح مع الشخص الذي في نفس الوقت يرقد على طاولة التشريح في المشرحة، تركت مكارثي وسط دوَّامة من الشكوك. هل من المُمكن أن يكون هناك شخص آخر له نفس الاسم، مُستبصِر، أو قارئ لكريستالة الطالع، أو قارئ للكف، مُحترف موجود في لندن؟ لم تذكر المرأة أي عنوان أو حتى منطقة، لكنها قالت تحديدًا إنها قد كلَّمتها عبر الهاتف، ولا يمكن التغاضي عن حقيقة أن هناك مدام رونر واحدة فقط مسجلة بسجل الهاتف، وهي التي يقع مكتبها في سوهو سكوير.

وليس هناك أي شك في أنها كانت تعلم أنه الضابط المسئول عن قضية سوهو سكوير؛ وما إذا كان بيل هاينس قد تطوَّع بإخبارها بالمعلومة دون أن يُدرك، أو أنها قد استخلصتها منه ببراعة فهذا لا يُشكِّل فارقًا؛ فالمُهم أنها عرفتها. إن الأمر الذي كان يشغل ذهنه هو: هل ذُكر ذلك الاسم بكل براءة، أم، كما اشتبه هو، في مطعم فيري، وُضِع ببساطة كطُعم لاستخلاص معلومات منه لم تكن ببساطة تستطيع أن تسأل عنها، دون أن تُورِّط نفسها، إلا إذا سألت بأكثر طريقة غير مُباشِرة؟ إنه نوع من المراوغة، هكذا قال لنفسه، وعند النظر إليه من أي زاوية فإن ذكر ذلك الاسم فتح المجال لمزيدٍ من التحقيق. وهذا ما كان سيَحدُث! فمن الممكن، إذا أجْرَت المرأة أي لقاءات بعد مغادرة مطعم فيري، لويذرز أن يَلتقِط من خلالها أي خيطٍ قد يثبت نفعه.

لكن الخيط الشخصي الوحيد الذي لدَيه هي محاولة صدمه عندما كان في طريق عودته من المشرحة هذا الصباح؛ المحاوَلة المُتعمَّدة من قائد السيارة لصدمه، في نهاية الأمر، على بُعد يقلُّ عن مائتي ياردة من عتبة داره. لا بدَّ أن تلك السيارة قد تتبَّعته، ببراعة، من عند باب المشرحة وظلَّت متوارية عن الأنظار حتى حانت الفرصة لصدمه. لماذا؟ وها هو مرة أخرى لغز مُحيِّر، في ضوء أنه كان بصُحبة داني ريجان، هل كان المقصود هو قتل دانيال؟ من المُمكن أن يكون الأمر كذلك على الرغم من أنه، في رأيه، ليس من المُحتمَل كثيرًا، خاصة في ظلِّ هذه الظروف.

إن حقيقة تنفيذ أفراد العالم الإجرامي لعمليات انتقام بطريقةٍ مُتعطِّشة للدم، والتي لا تتوقَّف عند التسبُّب في إعاقة، أو التشويه التام، أو حتى القتل، لهي أمر ليس بجديد

بالنسبة له، لكن أن يصل الأمر، مهما بلغ حجم الثأر، إلى تنفيذ المحاولة على الملأ، وأيضًا أمام عينَي أحد رجال سكوتلاند يارد الذي يحترمه الجميع بشدَّة في سوهو، لهو أمر لا يستطيع أن يُصدِّقه. إن كان داني ريجان قد عُثر عليه مقتولًا بسكين في صدره، أو، وهو أمر مُحتمل أكثر، صدمته سيارة من الخلف، فهذا شيء يُمكن تفهُّمه بالقدْر الكافي، ولكن أن تجري محاولة لصدمه، ليس فقط في وضح النهار وفي وجود شهود، وإنما أيضًا وهو برفقة المفتِّش المحقِّق مكارثي، فهذا ما لا يمكن تصديقه مطلقًا. كلا، لم يكن داني هو المقصود أن يجري التخلُّص منه.

ونأتي الآن لزعيم العصابة فلو. لقد كان ماسكاني مُتورطًا في المحاولة! إن ماسكاني هذا، على الرغم من حقيقة أنه كان يَبيع معلومات عن زملائه من وقتٍ إلى آخر (وربما «بسبب» هذه الحقيقة بالذات)، كان سيُصبح سعيدًا للغاية بمَقتل مكارثي، ولا يشكُّ المفتش في ذلك للحظة. لكن، وهذا ما كان مكارثي يَعرفه جيدًا على نحوٍ مُساوٍ، لم يكن ماسكاني ليُشارك في تلك المهمة، شخصيًّا، ولو مُقابل ألف جنيه، لو لم يكن مُجبرًا. ومع ذلك، وعلى الرغم من بذل قصارى جهده حتى لا يراه أحد، شارك ماسكاني في المهمة، وجرى التعرُّف عليه من قبل الرجال الذين عرفوه وليس من المُحتمل أن يُخطئوا في ذلك، وهذا أنبأ مكارثي بأن ماسكاني واقع تحت ضغط بكل تأكيد، ومرعوب من شخصٍ أقوى منه بشدة. فمن هو؟

إن ماسكاني هو طرف الخيط الذي يجب تتبُّعُه، هذا صحيح بالقدر الكافي، ولكن، من خلال طريقة مخادعة للغاية لن يشك بها الإيطالي المخادع أبدًا. فهو مثل معظم أبناء فئتِه، ماكر مثل الجرذ، وعلى الرغم من حقيقة أنه جبان مثل أي رجل عصابات آخر عندما يجري التعامُل معه بمُفرده، فإن مكارثي يعلم أنه حتى لو احتجزه في قسم الشرطة للاستجواب فلن يخرج منه بأي معلومة. إن قانون العالم الإجرامي غير المكتوب هو عدم الإفصاح عن المعلومات، وويل لمن يُخالف هذا القانون! إذ إن كل ما يُمكن للشرطة فعله به لا يقارن بما سيَحدُث له لاحقًا، على أيدي زملائه.

عاد ذهن مكارثي مرةً أخرى للتفكير في تلك المخلوقة الجميلة للغاية، تيسا دومينيكو. إذن هي وفلوريلو الشرير ما يزال أحدهما برفقة الثاني، وفقًا لبيل ويذرز؛ وهي المعلومة التي فاجأته إلى حدٍّ ما؛ لأنه عندما رأى تيسا ذات المظهر الرائع آخر مرة، كانت مع رفقةٍ أفضل، رغم أنها سيئة السمعة أيضًا. كانت «مع مَن يملك أموالًا أكثر»، وهو تعبير غير مقصور تمامًا على أهل العالم الإجرامي.

وبالتأكيد في المكان الذي رآها فيه — وهو نادي رقص راقٍ للغاية، إن لم يكن حصريًّا تمامًا — كانت موضع اهتمام جميع الأنظار، وقد أقرَّ تمامًا أنها تستحق تمامًا الاهتمام الذي نالته.

كانت طويلة، بُنِّية الشَّعر، ذات بشرة زيتونية، مع اللون الناعم المخملي المميز للعِرق الإيطالي، وملامحها كانت خالية من العيوب تمامًا؛ فهي تُمثِّل الكمال في حدِّ ذاته. وكانت ترتدي ملابس من شأنها أن تجعل أُمَّها وأباها يُحدِّقان غير مُصدقَين تمامًا. فهي ملابس غير رخيصة ومبهرجة، من محلات مُتدنِّية المستوى، ولكنها من إبداعات فنان مُتخصِّص في تصميم الملابس.

لو أن أحدهم أخبر ذوَّاقة الكمال الأنثوي الذي أثار على الفور الإعجاب غير المحدود لدى جميع الرجال الحاضرين، وكذلك الحسد غير المحدود للنساء، أنَّ المرأة التي انبهرت عيونهم بجمالها هي فتاة خرجت من أزقَّة سوهو وخطيبة أحد رجال العصابات الغلاظ، لكانوا سيقولون، على الأرجح، دون تردُّد أنه مجنون؛ إذ إن مثل هذا الجمال لا يُمكن إلا أن يرتبط بأصلٍ عريق بشدة. ومع ذلك، وفقًا لما قاله ويذرز، فإن هذا صحيح بالقدر الكافي، وقد كان كذلك بالتأكيد، بحسب معرفة مكارثي الخاصة.

لقد كانت علاقات الحب في سوهو كتابًا مفتوحًا بالنِّسبة إليه، حتى لو كان ذلك لسبب بسيط للغاية وهو أن الجزء الأكبر من جرائمها نابع منها مُباشِرة. وجد نفسه يَتساءل بسخرية عن مقدار الحب من جانب الفتاة في هذه العلاقة، ومقدار الخوف من الشفرة الفولاذية الشبيهة بالموس، أو من المسدَّس الآلي، الذي سيَستخدمه فلوريلو ماسكاني بسرعة شديدة ضد أي منافس دائم على عواطفها، وربما شخصها أيضًا. لقد كان هذا سؤالًا مهمًّا.

كان لا يزال يفكر في الأمر عندما رن جرس هاتفه. وعندما رفع السماعة داهم أذنه صوت السيد ويليام ويذرز الذي يُشبه صوت الثور.

فقال لمكارثي، دون داعٍ إلى حدٍّ ما: «إنه أنا أيها الرئيس.»

فرد المفتش بحدَّة: «أنا أعلم يا ويذرز، إنك صاحب الصوت الأشبه بالتنهد، وكل ذلك. هل وُفِّقت؟»

سرعان ما ظهرت نبرة شكٍّ في صوت سائق سيارة الأجرة.

وأجاب: «هذا يتوقَّف بالكلية على الطريقة التي تنظر بها إلى الأمر، أيها الرئيس.» وتابع: «على أي حال، إليك ما حدث. لقد غادرَت مطعم فيري هي ومعاليه ... أعني أن

السير ويليام كان بصحبتها، كما قلت. للحظة ظننتُ أنه رآني وكان سيَستدعيني، لكنه لم يفعل. وبعد ذلك صافحها واتجه عبر ريجنت ستريت نحو بيكاديلي. عبرَتْ هي الطريق إلى زاوية شارع ليبرتي ووقفت تنظر إلى نوافذ المتاجر قليلًا. وراحت تَنظر للخلف باتجاهه بين الحين والآخر، وبعد ذلك أشارت لسيارة أجرة، و...»

«انتظر لحظة يا ويذرز. لقد ظلت تنظر للخلف نحو السير ويليام، أليس كذلك؟ هل استرعى انتباهك، بأي حالٍ من الأحوال، أنها ربما كانت تُراقبه لتتأكَّد أنه بالفعل قد ابتعد عن طريقها؟»

«حسنًا، يا سيدي، على نحوٍ ما، هذا ما ظننتُه بالفعل. على أي حال، لقد ركبت سيارة الأجرة هذه، وانعطفت شرقًا في أكسفورد ستريت حتى وصلت إلى تشارينج كروس رود. ثم اتجهت إلى داخل سوهو سكوير ودارت حوله باتجاه اليمين، على نحوٍ بطيء بعض الشيء، ثم خرجت منه ثانية باتجاه جريك ستريت.»

سأل مكارثي في حيرة: «ألم تتوقَّف في أي مكان على الإطلاق؟»

«كلَّا، أيها الرئيس، لقد توقفَت في مكانٍ ما. فقد سارت عبر جريك ستريت كما قلت، ثم انعطفت إلى دين ستريت. وعند متجرٍ لبيع السجائر، قبل منزلك بقليل وعلى الجانب الآخر من الشارع، توقفت ودخلَت. كان ذلك هو متجر ذلك الرجل الألماني؛ كيرشنر، أظن أن هذا هو اسمه.»

قال مكارثي مشجعًا: «استمر يا ويذرز.» وأضاف: «هذا مُثير للاهتمام للغاية.»

«لا بد أنها اشترت بعض السجائر، أو شيئًا ما من هناك؛ لأنها عندما خرجت كانت تحمل علبة في يدها. وقبل أن تعود إلى سيارة الأجرة، شاهدتُها تنظر نحو منزلك نظرةً سريعة، إن تصادف أنك حينها نظرت من نافذة منزلك، فلا يسعك سوى رؤيتها. ثم اتجهت مرة ثانية نحو جريك ستريت، وهذا هو المكان الذي فقدت أثرها فيه.»

ردد مكارثي: «فقدتَ أثرها.»

«أجل أيها الرئيس، لقد أفلتَت من يدي؛ لا فائدة من قول أي شيء آخر.»

سأل مكارثي في حيرة: «وأين فقدتَ أثرها بالضبط، يا ويذرز؟» إن الشخص الذي يَستطيع التملُّص من مراقبة «بيج بيل» ويذرز في سوهو لا بد أنه يعرف ذلك الجزء العالمي من المدينة على نحو دقيق؛ فلا يُمكن لأحدٍ أن يقوم بذلك إلا إذا كان على درايةٍ كاملة بأزقَّتها وطرقها المختصرة الكثيرة، على نحوٍ عام. وأضاف: «بالنسبة إلى سيدة تُقيم في جروفينر سكوير وهي واحدة من الصفوة، هذا أمر غير مُعتاد بعض الشيء، أليس كذلك، يا ويذرز؟»

أجاب ذلك المُخلص في أسفٍ إلى حدٍّ ما: «بلى يا سيدي.» وتابع: «كنت لأراهن بمبلغٍ كبير جدًّا أنه لم يكن من الممكن لهذا أن يحدث، لكنه حدث.»

سأل مكارثي مرة أخرى: «أين حدث هذا؟»

قال «بيج بيل»: «بالقرب جدًّا من حانة فازولي.» وتابع: «كان هناك القليل من الازدحام المروري، بسبب إحدى عربات مثلجات جاتي التي سدَّت عليها الطريق عربة خاصة بالبلدية. فتدخل شرطي وبدأ ينظم المرور، وهذا ما أخَّرني لدقيقة. واتجهت سيارة الأجرة التي تستقلها نحو فريث ستريت وبمجرَّد أن تمكنت من متابعة السير ذهبتُ وراءها بأسرع ما يُمكن ولحقتُ بها. وعندئذ وجدتُها خالية. لا بد أنها قد دفعت الأجرة ونزلت بينما كانت عربة المثلجات هذه تحجب عني الرؤية. وتصادف أن من يقود السيارة هو رجل لا أعرفه؛ سائق جديد، ومتعجرف. عندما سألته عن المكان الذي نزلت فيه زبونته، أراد أن يعرف ما شأني بذلك. لولا أني كنتُ في مهمة من أجلك، لعرَّفتُه ذلك بسرعة وقوة. وبصرف النظر عن ذلك، هذا هو ما حدث أيها الرئيس، لقد فقدتُ أثرها، وعلى الرغم من أنني تجوَّلت حول المكان مرتَين أو ثلاثَ مرات، فلم أرها قط مرةً أخرى.»

قال المفتِّش وهو يُفكِّر بعمق: «هذا أمر غريب للغاية، يا ويذرز.» وأضاف: «عند زاوية حانة فازولي، أليس كذلك؟ لا يُمكن أن تكون قد دخلت هناك بأيِّ حال من الأحوال، حسبَما أظن؛ إنها فكرة سخيفة على ما يبدو، أليس كذلك؟»

أجاب السيد ويذرز بجدية: «لا يُمكن أن تكون قد فعلت أيها الرئيس.» وتابع: «كان باب حانة فازولي مغلقًا تمامًا في ذلك الوقت؛ إذ كان المكان خارج ساعات عمله الرسمي في ذلك الوقت، وقد ألقيتُ نظرةً جيدة على كل شيء هناك، ولكن لم يكن هناك أي أثر لها.»

قال مكارثي على نحوٍ فلسفي: «حسنًا، لا يُمكننا فعل شيء حيال الأمر يا ويذرز؛ هذه الهفوات الصغيرة دائمًا ما تحدث. عُد إلى المنزل الآن، وتأهَّب لتلقِّي مكالمة منِّي عند حوالي الساعة التاسعة مساءً الليلة. هذا كل شيء.»

ولكن لبعض الوقت بعد أن أنهى مكارثي المكالمة، راح يسير في غرفته ذهابًا وإيابًا بينما يُفكر بعمق. إذ إن عددًا كبيرًا من الأشياء في تقرير ويذرز أثار فضوله على نحوٍ كبير، ليس أقلَّها الاهتمامُ الذي أولتْه السيدة لمحل إقامته. هذا، وحقيقة أنها تملَّصت بمهارة شديدة من مراقبة ويذرز في قلب سوهو، كانا يَتطلَّبان قدرًا كبيرًا من التفكير، بالنسبة إلى سيدة في مكانتها الاجتماعية. وهكذا الحال بالنِّسبة إلى ذلك النَّقر الغريب على النافذة في مطعم فيري، الذي نقرَتْه بلا شك أصابع السنيور فلوريلو ماسكاني.

الفصل الرابع عشر

في تشيركولو فينيتسيا

كان قد فتَح هذا الشخص ذو المظهر البغيض للغاية، السنيور لويجي فازولي، منذ ما يقرب من ساعةٍ أبواب ما كانت تعدُّ على نحوٍ واضح تمامًا أقذرَ حانةٍ في سوهو، ولكنها مع ذلك أُطلِق عليها الاسم الفخم تشيركولو فينيتسيا.

كان يتألَّف المكان نفسه من بار طويل متَّسخ للغاية يفتح من الشارع، ويُوجَد بجانبه مقعد خشبي مدمج له عدة طاولات أمامه. وعلى الجانب الآخر تُوجَد منضدة، وخلفها براميل ضخمة من أشنع أنواع الشراب الأحمر أو الأبيض الذي يُمكن أن يُباع للناس كنبيذ.

وكانت تُوجَد خلف هذا، ويُدخل إليها من خلال بابَين متأرجحَين، غرفة أخرى كبيرة وقذرة جدًّا تحتوي على طاولة بلياردو وعدد من الطاولات الأصغر التي يَلعب فيها الذين يَرتادُون هذا المكان المُحدَّد ألعاب الورق أو الدومينو أو ألعاب المهارة، أو الحظ، الأخرى، التي تُفضلها الفئة الأصغر سنًّا من الإيطاليين المولودين في لندن.

وقد قُسِّم الزبائن إلى ثلاث فئات مختلفة تمامًا. الأولى هم كبار السن في سوهو من النوع الأكثر إجرامًا، الذين يجلسون أمام البار على المقعد الطويل في الغرفة الأمامية، والذين من بينهم — كما تعلم سكوتلاند يارد جيدًا — عدد من أعضاء تلك الجماعات الرهيبة، التي من بينها مافيا كامورا والمافيا الصقلية. وهم شخصيات شرِّيرة المظهر، والذين تُروى قصصهم المروعة بين زملائهم في همس.

تتألَّف الفئة الثانية من عدد من الألمان — الذين معظمهم من عمال المطاعم — الذين حُرموا من مكان لقائهم المُعتاد عندما جرت مداهمة إحدى حانات بسمارك كلوب السيئة السمعة وإغلاقها. كان هؤلاء منغلقين بشدة على أنفسهم، وعلى الرغم من التحالف المتذبذب لدول المحور، فلم يحظَوا بشَعبيةٍ كبيرة لدى الزبائن الإيطاليين لتشيركولو فينيتسيا.

وترتاد عمومًا بشدة الفئة الثالثة وهي الأكبر من بين كل الفئات الغرفة الداخلية والأكبر بكثير، التي تعرف بوجه عام باسم «النادي». وهم من النوع المُبهرج من الشباب الإيطاليين المولودين في سوهو والذين، في الغالب، كانوا يَقضُون يومهم في السباقات التي كانت تقام في وقت الحرب نهارًا، ومطاعم وقاعات رقص ويست إند المتدنية المستوى ليلًا. إن هؤلاء المتأنقين المُتملقين الذين يكونون أنذالًا أشرارًا عندما يكونون وسط العصابة، ولكن جبناء تمامًا عندما يكونون بمُفردهم، كانوا هم الذي يُشكِّلون، في واقع الأمر، الجزء الأكبر من زبائن فازولي. وكان هؤلاء يدينون بالولاء الخفي لذلك الشخص الحسَن المظهر للغاية الذي يُدعى فلوريلو ماسكاني والذي يقودهم بطريقةٍ فعالة، وسوقية، ومرصَّعة بالجواهر.

كان هذا الرجل هو مَن دخل بعد الساعة السابعة بقليلٍ من الباب المزدوَج الأمامي لحانة فازولي، وأعطى مالكه القبيح نظرةً قاسية ولكن ذات معنى.

فقال فازولي هامسًا: «لا شيء بعد.» وتابع وهو لا يَكاد يُحرِّك شفتَيه: «لقد جاءت السيدة إلى هنا بعد ظهر اليوم. وهي تقول «إنه» سوف يأتي هنا الليلة، في وقتٍ لاحق، وعليك أن تنتظره. وسوف يتَّصل عبر الهاتف في وقتٍ ما من هذا المساء.»

أومأ ماسكاني. وأجاب بنفسِ الطريقة الهامسة: «حسنًا.»

قال الآخر بصوت عالٍ: «ستجد بعضًا من الشباب بالداخل.» وأضاف: «لقد عادوا للتوِّ من تشلتنهام.»

وبينما كان يمرُّ إلى الغُرفة الداخلية، أشار ماسكاني إلى رجلٍ ضخم يلعب البلياردو، ذي وجه مشوَّه بضربة سكين كانت آثارها بادية عليه بأكمله. فوضع على الفور عصاه وجاء إلى الطاولة الصغيرة التي جلس عليها ماسكاني.

وأخرج من جيبٍ داخليٍّ في ملابسه لفافة سميكة من المال، وقدمها إلى ماسكاني.

وقال بفظاظة: ««أموال الحماية».» وتابع: «إنها ليست جيدة للغاية؛ المراهنات تراجعَت بشدة في السباقات الثلاثة الأولى.»

بدت عينا ماسكاني الإيطاليتَين الناعمتَين جامدتَين مثل قطعتَين من العقيق عندما أخذ النقود وعدَّها بسرعة بفضل الممارسة الطويلة، ثم أطلق لعنة بهدوء باللغة الإيطالية.

قال: «اللعنة!» وتابع: «يجب أن أزيد قدْر الغش في ذلك السباق.»

ومن ثم أخذ عشر أوراق نقدية من فئة الجنيه الواحد، ودفعها لرفيقه عبر الطاولة، ووضع الباقي في جيب صدر بدلته.

وسأل بحدة: «وماذا أيضًا؟»

من حقيبة جلد شامواه، سكب الآخر على المنضدة مجموعة من المجوهرات، مُعظمها من دبابيس رابطات العنق ذات تصميم سيئ بعض الشيء على الرغم من أن الأحجار الموجودة فيها كانت جيدة بما فيه الكفاية، وثلاث ساعات وسلاسل ذهبية ثقيلة.

وقال له: «هذه هي حصيلة اليوم، يا فلو.»

ففرزها ماسكاني بإصبعه، ثم أومأ برأسه إلى تابعه ليُعيدها إلى الحقيبة.

وقال باقتضاب: «أنت تعرف إلى أين ستأخُذُها.» وتابع: «ولا تدع ذلك الخنزير العجوز يخدعك بالطريقة التي فعلها مع المجموعة الأخيرة. إذا حاول ذلك، أخبره أننا سنحرق بيته، وسنختار وقتًا نعلم فيه أنه في السرير! هيا اذهب وابدأ تنفيذ ما قلته لك!»

ثم أشار إلى أربعة من الحاضِرين كي يأتوا إليه، ومرَّر لكلٍّ منهم بعض النقود من اللفافة. وكان هؤلاء هم أفراد العصابة التي كانت في حلبة سباق الخيل من أجل «جباية» الأموال بعد ظهر ذلك اليوم.

وبعد الانتهاء من هذا الأمر، جلَس ماسكاني في تفكيرٍ عميق لفترة من الوقت. كان من الواضِح للغاية أنه غير مرتاح، وفي الواقع، عصبي بشدة. وبعد فترة قرع جرسًا كان موجودًا على المنضدة، فجاءه فازولي على عجَل.

أمره بفظاظة قائلًا: «أحضر شرابًا للشباب، ولي أيضًا. لكن ليس ذلك الفاسد الذي تبيعه هناك.» ثم سأله بسرعة، وبنفس الهمس الذي استفسر به في البداية: «ألا تُوجَد أخبار بعد؟»

هز فازولي رأسه الأشعث بالنفي.

وقال بنفس النبرة: «ليس بعد.» وتابع: «أنا أتوقَّع حضوره في أي لحظة.»

سأل ماسكاني، بينما ارتفعت ثرثرة مُحادثة سريعة ومتحمِّسة في البار الخارجي: «هل كل شيء على ما يرام في الخارج؟»

هز فازولي كتفَيه.

وقال: «كل شيء على ما يرام.» وتابع: «إنه فقط ذلك الكلب الملعون، فانادي، لقد جاء. وهو دائمًا ما يُحدث ضوضاء عندما يأتي.»

زمجر ماسكاني قائلًا: «أنت تعرف جيدًا أنه سيبدأ شجارًا وسيَأتي رجال الشرطة إلى هنا.» وأضاف: «لماذا تقبل بوجوده هنا من الأساس؟ إنه يحضر إلى هنا مرة واحدة فقط كل ستة أشهر، وتأتي الشرطة في كل مرة يأتي فيها.»

أجاب فازولي: «إنه يُنفق هنا أموالًا كثيرة.» وتابع: «إنه يُنفق في ساعتَين، أو ثلاث ساعات، أكثر من كل الزبائن مجتمعِين.»

قال ماسكاني: «إنه سوف يُفقدك رخصتك يومًا ما.» وأضاف: «على أي حال، أبقِه خارج هذه الغرفة. لقد جرح أحد رجالي بشدة في المرة الأخيرة لدرجة أنه ظلَّ في المُستشفى ثلاثة أسابيع. إنه سيَنال ما يستحقُّ في إحدى هذه الليالي.»

ألقى فازولي نظرة سريعة باتجاه البار، كما لو كان خائفًا من أن يَسمع الزبون المعنيُّ ويَبدأ على الفور شيئًا لن ينتهي بسرعة.

كان السنيور باولو فانادي، دون شك، الشخص الأكثر مُشاكسة الذي يأتي في زيارات عرضية، وإن كانت مُنتظِمة إلى حدٍّ ما، إلى سوهو، من أجل شرب كمياتٍ كبيرة من نبيذ وطنِه الأم. من أين أتى لا أحد يعرف بالفعل، على الرغم من أن البعض قال من شمال إنجلترا، حيث يفترض أنه يعمل في تجارة الآيس كريم بالجملة. لكن خلال هذه الزيارات، كان يُنفق المال ببذخ، نسبيًّا، ويَشرب حتى يَسكر ويصل لحالة من الضراوة الكئيبة التي تَنفجِر عاجلًا أم آجلًا مثل البركان. لقد كان مقاتلًا عنيدًا، وعلاوة على ذلك، كان بإمكانه المضي قدمًا في ذلك مثل الملاكم المحترف.

في أكثر من مناسبة، تشاجر مع أفراد من عصابة ماسكاني، وما فعله بهؤلاء الذين تعاملوا معه منهم على نحوٍ جماعي ومُنفرد كان يَقترب من حدِّ الجريمة.

قال فازولي بقلق: «لا تتحدَّث بهذه الطريقة، يا فلو.» وأضاف: «إن فانادي أحد رجال مافيا كامورا. إنك لا يُمكنك أن تحتكَّ بهم. اعبث معهم، وستتعرَّض للكثير من المتاعب.»

كان واضحًا تمامًا في التعبير الذي ارتسم على وجه ماسكاني الزيتوني اللون أن مجرَّد ذكر تلك العصابة له معنى عميق ومُهم للغاية بالنسبة إليه.

قال: «لا أريد أي مشاكل معه.» وتابع: «كل ما أريدك أن تفعله هو إبعاده عن هنا.»

ربما، بعد خمس دقائق، والتي خلالها كانت الأصوات التي تدل على أن السنيور فانادي كان في طريقه للوصول إلى حالته المعتادة من السُّكْر العُدواني تتزايد، مرَّر فازولي رأسه عبر الباب وأعطى لرجل العصابات نظرة ذات مغزى. على الفور نهض ماسكاني وتحرَّك نحو باب آخر والذي يَعرف كل من يتردد على المكان أنه يُؤدي إلى شقة فازولي الخاصة في الطابق العلوي.

ولم يكد يَلتفِت نحوه حتى فتح الباب المزدوج واندفع فانادي الذي تحدَّثا عنه قدمًا أو اثنتين داخل الغُرفة ووقف محدقًا حوله بازدراء صريح.

ثم قال بالإيطالية مع ابتسامة ملتوية على فمه: «ها نحن جميعًا هنا.» وتابع: «كل الجرذان الصغيرة في المجاري الخاصة بها! في يوم من الأيام سيأتي مواطن صالح ويُنظف المكان من كل هؤلاء الأوساخ!»

لم تصدُر أي كلمة عن أي من أفراد العصابة الموجودين حول طاولة البلياردو.

حيَّاه ماسكاني بأكبر قدْر ممكن من الود في محاولة لدرء المشاكل قائلًا: «مرحبًا يا فانادي.»

قال الرجل داعيًا إلى مشاجرة: «ها قد تحدَّث ملك الجرذان»، وأخذ يبحث عن اللحظة التي عليه فيها التحرُّك في اتجاه ماسكاني.

كان ماسكاني يَلعنُه داخليًّا بمرارة، على الرغم من أنه لم يبدُ عليه ظاهريًّا سوى الابتسامة، ثم سارع إلى الباب وغادَر من خلاله. ومِن ثمَّ وقف فانادي لمدة دقيقة كاملة ونظر إلى الآخرين في دعوة لا لبس فيها ليبدءوا مُشاجرة. ولكن نظرًا لعدم تحرُّك أيٍّ منهم قيد أنملة، بصق على الأرض بازدراء وتمايل خارجًا إلى البار الأمامي مرة أخرى.

بعد أن أسرع ماسكاني نحو الطابق العلوي، التقط سماعة الهاتف التي ترَكَها فازولي له، لكنه تأكد أولًا أن بابي الغرفة مُغلقَين بإحكام.

قال بصوت خفيض جدًّا: «مرحبًا.»

سأله مُحدثه بحدة: «ماسكاني؟»

فقال بسرعة: «هذا أنا أيها الرئيس.»

قال الصوت بنفس الطريقة الحادة، بإنجليزية طلقة مع لمسة بسيطة للغاية من اللهجة الألمانية الشمالية: «تلك الأوراق التي سُلمت إليك في سوهو سكوير الليلة الماضية. هل هي معك؟»

أجاب ماسكاني على الفور: «كلَّا.» وتابع: «بعد ما حدث في الميدان الليلة الماضية، اعتقدت أنه من الأكثر أمانًا ألا أحملها معي. لقد جعلتُ لويجي يُخفيها في ... أنت تعرف أين. إذا علم رجال الشرطة ما هي وانطلقوا يبحثون عنها، فأنا لا أريد أن يُعثَر عليها «معي»، إذا حدث خطأ ما.»

تساءل الآخر، وفي صوته نبرة ازدراء صريح: «وما هو الخطأ الذي يظنُّ عقلك العظيم أنه قد يحدث، فيما يخصُّك من الأمر؟»

جزَّ ماسكاني على أسنانه في غضبٍ صامت؛ واستغرق الأمر منه وقتًا لإبعاد هذا الشعور عن صوته. ثم أجاب: «ما يلي.» وتابع: «كيف أعرف أنه لم يرَني أحد عندما

حاولتَ أنت دهس مكارثي في هذا الصباح؟ لا أعتقد أن هناك من رآني، لكن لا يُمكنك أن تفهم أبدًا كيف يعمل؛ إنه يعمل باستخدام بعض الطرق الغريبة، ونحن نعلم ذلك جيدًا في سوهو. لكن افترض أنه رآني وخلال ساعة أو ساعتَين أُلقي القبض عليَّ من قبل الشرطة. هل كان كل شيء سيكون على ما يرام إذا كنتُ أحمل تلك الأشياء التي أخذتَها أنت من المرأة في الميدان الليلة الماضية؟»

صاح الآخر في حنَق بالألمانية: «يا إلهي!» وأضاف: «هل أنت أحمق إلى هذه الدرجة كي تتحدث هكذا عبر الهاتف؟! أنت تعلم أنه لن يكون الأمر كذلك.» واعترف، وإن كان على نحو فظ: «ربما أنت مُحق في عدم حملها معك. أخبِر فازولي أنني سآتي لآخُذَ الأوراق الليلة في حوالي الساعة الحادية عشرة.»

زمجر ماسكاني قائلًا: «لقد أردتَ منِّي أن أنتظر حتى أتلقى الأوامر منك، أليس كذلك؟»

جاءت الإجابة الحادة: «أجل، ولا زلت.» وتابع: «رغم أنه، بخصوص هذا الأمر، يُمكنني أن أعطيها لك الآن. أريدك ...»

قاطعه ماسكاني: «انتظر لحظة.» ثم تابع: «لديَّ موعد هذه الليلة، موعد مُهم. ألا يستطيع شخص آخر تولي هذه المُهمة؟ لديَّ الكثير من الرجال الجيدين هنا الذين يُمكن الوثوق بهم ...»

قال الآخر بنبرة باردة: «بلا شك بنفس القدْر الذي يُمكِن به الوثوق بك.» ثم أضاف: «لكني أريدك أنت أن تُؤدِّي هذه المهمَّة يا ماسكاني؛ «أنت»، وأنت وحدك.» لقد تحوَّلت النبرة الباردة إلى نبرة آمِرة. ثم أردف: «هذه هي أوامري، هل تفهم؟ «أوامري»! وأنا لا أسمح بأي جدال بشأنها.»

تصاعَدَت الحمرة إلى بشرة ماسكاني الزيتونية بشدة من الغضب والحنق، لكنه كبح جماح نفسه.

وتابع الصوت مُهدِّدًا ببرود: «لا تنس، يا صديقي، أنك مُتورِّط فيما حدث الليلة الماضية بنفس قدْر تورُّط أي شخصٍ آخر. لقد أزلتَ أنت ورجالك العقبة الأولى في طريقنا، وجلبتم عربة القهوة تلك بينما كان يَجري القضاء على العقبة الثانية. أنت أيضًا كنتَ مَن أخذ شيئًا مُعينًا وأيضًا ذلك الأحمق الذي تبِعني إلى المكان الذي وُجدا هما الاثنان فيه. لهذا السبب أصررتُ أن تُوجَد أنت، شخصيًّا، في السيارة هذا الصباح عندما جرَت محاوَلة مُعيَّنة لإزالة عقبة أخرى. ضع ذلك في ذهنك يا ماسكاني، وأيضًا شيئًا آخر: أنه في اللحظة

الأولى التي تُقدِم فيها على أي خطوة خاطئة، أو تَعصي أي أمر أتصوَّر أنه ضروري لنجاح خُططي، ستُصبح هناك تصفية أخرى، وعلى نحوٍ سريع للغاية. وسأتركك لتُخمِّن من سيكون ضحية تلك التصفية.»

كانت النبرة التي قيلت بها هذه الكلمات مُنذِرة بالشر بشدة لدرجة أنه مهما كان الدافع لدى زعيم العصابة لإعلان التحدِّي فقد تلاشى بسرعة، ليُفسح المجال لشيءٍ يُشبه الخوف بنحو ملحوظ. فبقدْر ما هو عديم الرحمة تمامًا تجاه أولئك الذين قد يتسبَّبون في استيائه بين أفراد عالمه الإجرامي؛ فقد رأى ما يكفي من أساليب الرجل الذي يأمُرُه الآن وكأنه كلب يملكه ليَغرس فيه الرعب الشديد من إنفاذ غضبه عليه هو شخصيًّا. إن المشهد الذي شاهَدَه في سوهو سكوير لم يكن هينًا؛ ولم تكن لديه رغبة في تكرار المشهد، مع كونه أحد المُمثلَين الاثنَين الرئيسيَّين فيه.

فقال بسرعة: «أوه، حسنًا، حسنًا.» وتابع: «دعني أحصل على الأوامر. يُمكنني تأجيل الموعد.»

قال بنبرة هادئة على نحو مذهل: «يجب أن أفعل.» وأضاف: «منذ أن قابلتك هذا الصباح، وصلتني معلومات مُعيَّنة تفيد بأن مكارثي هذا يبذل قصارى جهده لكشف غموض جريمة قتل سوهو سكوير. ولا يُمكنني معرفة ما إذا كان يعلم سبب هذا الموت المؤسِف؛ وهو الأوراق، التي سنقول إنك تعرف أمرها فقط. كما أنني لا أعرف على وجه التحديد ما إذا كانت هوية ذلك الشخص قد اكتُشفت أم لا. وهذه مسألة ذات أهمية كبيرة بالنسبة لي، وأريدك أن تخرج في الحال، وتلتقط مسار مكارثي وتُراقب تحركاته عن كثب. فقد تكشف بعض تصرُّفاته عما أريد أن أعرفه. اشرع في هذه المهمَّة على الفور وقد تتمكَّن من التوصُّل إلى شيءٍ مُفيد لي وإعلامي به عند الساعة الحادية عشرة. هذا كل شيء.»

احتج ماسكاني قائلًا: «لكن ليس لديَّ أدنى فكرة عن مكان وجود مكارثي.» وتابع: «إنه مثل دمية نطاطة لَعِينة؛ إذ تجده هنا وهناك وفي كل مكان.»

قال له الآخر ببرود: «هذا شأنك.» وأضاف: «ستجده بأسرع ما تستطيع إذا كنتَ حكيمًا. أمامك حتى الساعة الحادية عشرة.»

لم يكن هناك المزيد من الكلام. سمع فلو ماسكاني الرجل الآخر وهو يضع سماعة هاتفه، ثم انقطع الخط. وبعد أن عاد إلى غُرفة النادي، اختار ثلاثةً من الرجال الأكبر سنًّا والأكثر قوة في عصابته، والذين، كما كان يعلم، يُمكن الاعتماد عليهم ليس فقط لدهائهم، ولكن أيضًا لقدرتهم على خوض معركة حقيقية، إذا لزم الأمر.

«أما بقيتكم فعليهم الخروج من هنا بالضبط عند وقت الإغلاق والاختباء في أماكن يصعب العثور عليكم فيها.»

وقف للحظة أو اثنتَين يُفكر، ثم صعد بسرعةٍ مرة أخرى إلى الطابق العُلوي ليستخدم الهاتف، وطلب رقمًا مُعينًا. فأجابه صوت أنثوي خفيض مُغرٍ.

سألت: «من المتحدِّث؟»

قال لها: «هذا أنا، فلو.» وتابع: «لن يُمكنني اصطحابك للرقص هذه الليلة كما وعدتك، يا تيسا. لقد أسندَ لي مهمةً عَليَّ أن أُؤديها، اللعنة عليه.»

سألت: «عليه؟ من هو؟»، ولكن دون أن تُظهر نبرة خيبة الأمل في صوتها والتي كان يتوقَّع سماعها.

«الرجل العظيم الشأن. الشخص الذي أخبرتُك عنه والذي يَمنحُني المال بسَخاء مُؤخرًا.»

سألت: «الشخص الذي لا تَعرف اسمه؟»

أجاب: «أعرف الاسم الذي يَستخدمه.» وأضاف بشراسة: «لكنه ليس اسمه الحقيقي. إن ذلك الخنزير ألماني. لا تتحدَّثي عنه، يبدو أن لدَيه آذانًا تصلُ إلى كل مكان!»

فقالت: «يبدو أنك لا تُحبه، يا فلو.»

انطلقت ضحكة شريرة من ماسكاني.

«أحبه! أنا أحبه كثيرًا لدرجة أنني إذا رأيتُ سكينًا في حلقه، فسأضحك لمدة أسبوعَين! لكني أريد أمواله يا تيسا، لذا أتحمَّله كدواء مُر. لكن في أحد هذه الأيام سأُريه شيئًا منِّي لن يَنساه بسرعة.»

سألت بإيجاز: «لماذا؟»

ردد: «لماذا؟» وتابع: «لأنه يَعتقِد أنه كل شيء والباقي لا يهمُّون! إنه يُعطي أوامره كأنني كلب لدَيه، ويُصدِر تهديداته في نفس الوقت. أظن أنني يجب أن أطعنه بسكين رغم احتياجي له، ولكن أحد أفضل الأيام التي سأعيشها على الإطلاق هو عندما أراه ميتًا أو مكبَّل اليدَين. وبالنسبة لي فإن الأمرَين مُتماثِلان تمامًا.»

جاءته ضحكة موسيقية خفيضة عبر الخط.

وقالت: «أنت لا تُحبُّه يا فلو.»

أجاب ماسكاني بتجهُّم: «أنا لا أحبه!» وتابع: «وفي يوم من الأيام سيَعرف ذلك. حسنًا، يجب أن أذهب. سأُهاتفك غدًا.»

قالت: «هاتِفني في المساء، يا فلو.» وأضافت: «لن يكون لديَّ مشاغل حينها.»

سأل بغيرة: «ماذا تقصدين بما قُلتِهِ لتوك؟» وأضاف: «ماذا ستفعلين خلال بقية اليوم؟»

لكنه لم يحصل على إجابة، وللمرة الثانية في ذلك المساء سمع السماعة وهي تُغلَق في وجهه. كان لا يزال يتمتم باللعنات عندما انضم إلى الثلاثة الذين اختارهم لمهمة الليلة وغادر تشيركولو فينيتسيا.

وأثناء مروره عبر البار الخارجي، كان السنيور باولو فانادي ذو المظهر الوحشي يُسهب في الحديث بحماس حول موضوع أو آخر. وتوقَّف للحظة لإلقاء نظرة احتقار على المجموعة المكونة من أربعة أشخاص أثناء مرورهم، وأشار بإصبعه تجاهَهم.

وقال على نحو مسموع للجميع: «جرذان!» وتابع: «جرذان على قدمَين بدلًا من أربعة! والفرق الوحيد هو أن ذوي الأرجل الأربعة لديهم المزيد من الشجاعة!»

وعندما لم يتلقَّ أي إجابة من أي نوع على هذه السخرية، بصق متعمدًا على الحذاء الملمع للغاية لرجل العصابة الذي يسير في الخلف، ثم واصل حديثه الحماسي.

الفصل الخامس عشر

الأوراق المسروقة تُغير وجهتها

عند الساعة الحادية عشرة إلا خمس دقائق تمامًا، أخلى فازولي الحانة، ثم أغلق الباب المزدوج الأمامي لتشيركولو فينيتسيا. وقد جلب إغلاقه المبكِّر غير المُعتاد اعتراضاتٍ شديدة من بعض زبائنه، والتي لم يُعِرها انتباهًا على الإطلاق. لكن العجيب في الأمر، أن أكثر شخص توقَّع منه إثارة المشاكل، وهو باولو فانادي، لم يُثر أيًّا منها مُطلقًا؛ لأنه عندما بدأ في جمع الأكواب المتَّسخة، كان ذلك الرجل، بعد أن تمادى في السُّكْر حتى وصل إلى حالة حمقاء، قد اختفى ببساطة.

وبعد أن أغلق الحانة، لم يَشرع فازولي في تنظيفها كالمعتاد، لكنه صعد للغرفة العلوية، وجلس ينتظر بجانب الهاتف. وعند الساعة الحادية عشرة إلا دقيقتَين رن جرس الهاتف. وسمع عبره نفس الصوت البارد الذي تحدَّث مع ماسكاني قبل ذلك هذا المساء.

حيث قال: «أنا قادم إليك، عند الباب الخلفي، بعد ثلاث دقائق بالضبط.» وتابع: «أحضر الأوراق التي أعطاها لك ماسكاني اليوم كي تَحفظها في مكانٍ آمن. ليس لديَّ رغبة في البقاء أكثر من اللازم. هل ماسكاني عندك؟»

قال، على نحو مُتردِّد: «كلَّا يا سنيور، لكني أتوقَّع وصوله بين لحظةٍ وأخرى. لم تبلغ الساعة الحادية عشرة بعدُ يا سنيور. إن ماسكاني شخص مُطيع.» وتابع: «لا بدَّ أن شيئًا غير مُتوقَّع قد أخَّره. ثِق أن فلو سيُنفِّذ الأوامر.»

وبمجرَّد أن قال هذا سمع صوت صفيرٍ مُنخفِضًا غريبًا يأتي من الساحة الخلفية.

فقال: «إنَّ ماسكاني قد عاد الآن يا سنيور. لقد سمعتُ صوت صفيره.»

وبعد أن وضع سماعة الهاتف أسرع إلى الباب الخلفي، وسحب المزلاج، وفتحه بحِرص. فدخل ماسكاني بمُفردِه.

قال له فازولي: «لقد اتَّصل للتو.» وأضاف: «وسيأتي خلال دقيقتَين أو ثلاث.»

زمجر ماسكاني قائلًا: «أتمنَّى أن تَنكسِر رقبته اللعينة وهو في الطريق إلى هنا.» وتابع: «إنه يُريد الأوراق، عليك أن تُجهزها. فسموُّه لا يُحبُّ الانتظار، تبًّا له.»

نظر إليه فازولي على نحوٍ غريب، وبدا للحظةٍ أنه على وشك أن يقول شيئًا ما. لكن مِن الواضِح أنه تراجَع عن ذلك ومِن ثم اتَّجه ثانيةً نحو الباب الخلفي.

وقال: «أغلِقه بعد أن أُغادر.» وأضاف: «وافتحْه عندما يأتي.»

وانتظر خارج بابه حتى سمع ماسكاني وهو يَسحب المزلاج. وفجأة، ولكن على بُعد مسافة قصيرة، انطلق وسط هدأة الليل صوت شجارٍ صاخِب عنيف، علا خلاله جدال بصوتٍ هيستيري عالٍ. تَعرف فازولي على الصوت بقدرٍ كبير من الارتياح؛ فقد كان صوت ذلك المجنون، باولو فانادي، وقد وقَع في قبضة الشرطة مرة أخرى! ولولا الأموال التي كان يُنفقها بسخاء خلال زياراته المُتقطِّعة للحانة، لتمنَّى فازولي أن يظلَّ في قبضتهم مدى الحياة. كان الشجار الصاخب لا يزال على أشده بينما كان يسير في طريقه عبر ساحةٍ صغيرة والتي تُعتبر مكانًا غير آمن بالفعل لأي غريب يحاول المرور عبرها في هذا التعتيم الحالك، لكن مالك الحانة عَبَرَ عقباتها بكل ثقة نحو كوخ مُتهالك عند زاوية الساحة. ومن ثم اختفى بداخله، وبمجرد أن فعل، اختفى صوت الشجار الصاخب البعيد على نحوٍ مفاجئ يُوحي بأنه قد جرت السيطرة في النهاية على فانادي غير المنضبط، غالبًا بهراوة شرطة.

بمجرَّد أن اختفى فازولي فُتحت بحرص بوابة خلفية تؤدي إلى زقاق، ودخل منها شخصان آخران إلى الساحة. لا بد أن الشخص الذي في المقدمة كان يتمتَّع بعينَين حادَّتَين مثل عينَي قطٍّ كي يتفادى الاصطدام بشيء، أو أنه، مثل فازولي، يَعلم تفاصيل المكان بدقَّة تُمكِّنه من عبوره مغمض العينين. وبعد لحظاتٍ نقر بطريقة غريبة على الباب؛ وبدون تردد سحب ماسكاني المزلاج وفتح الباب.

كان المفتِّش مكارثي سيتعرَّف على الفور على أول من دخل، رغم أنه كان يُخفي وجهه تقريبًا الآن، إذ كان سيُدرك أنه الرجل الذي كان يتناول العشاء في مطعم السنيورا سبادوجليا في الليلة الماضية؛ الرجل الذي أطلق عليه في ذهنه وميَّزه باسم: «الرجل ذي العينين ذواتَي اللون الأزرق الثلجي». وفي هذه اللحظة لم يكن لون عينَيه الغريبتي المظهر بلون الثلج بقدر ما كان بلون الصلب المصلد بالتبريد. وكانت ملابسه مختلفة تمامًا عن تلك التي كان يَرتديها الليلة السابقة، حيث كان يرتدي بدلة من صوف التويد ومِعطفًا

ثقيلًا من نفس المادة، والذي رفع ياقته حتى أُذنيه. وأسدل قبعته المرنة المصنوعة من اللباد التي يرتديها فوق رأسه على عينيه كي يداري تلك العينين الغريبتَين، ولكن بمجرد أن دخل الغرفة رفع القبعة إلى أعلى فظهرت عيناه ورمق ماسكاني بنظرة ثابتة بدا أنها تضمر الشرَّ من فرط شدَّتها.

لكن الشخص الذي كان برفقته هو بالتأكيد مَن جذَبَ الانتباه أكثر منه في هذه اللحظة، وهو، بالمناسبة، مَن قاد الآخر عبر الساحة المُظلِمة التي تتناثر بداخلها البراميل. إذ كان حرفيًّا قزمًا لا يَزيد طوله على أربعة أقدام، لكنَّ كتفَيه عريضتَين مثل كتفَي رجل أطول منه بمقدار قدمَين. ولمزيد من غرابة مظهرِه الذي لم يكن طبيعيًّا بالفعل، كان رأسه ويداه بحجم أمثال ما لدى رجل له نفس الطول المذكور سابقًا، ومع ذلك كانت قدماه صغيرتَين.

لقد كان يَرتدي زيًّ سائقٍ ذي لون رمادي داكن، ويَحمل في يده اليُسرى زوج قفازات جلدية. وبالنِّسبة إلى ملامح وجهه فهي مُنفِّرة مثل أي رجل له نفس الأبعاد غير المُعتادة التي كانت لديه. وكان يَحمل وجهه بالكامل ندوبًا كثيرة تدلُّ على سابق إصابته بمرض الجدري، بينما كان أنفه قصيرًا للغاية ويبدو أنه بلا قصبة، وأنه يَبرز في الوجه باعتباره فتحة أنفٍ واسِعة واحدة. وأذناه كانتا ضخمتَين تتعامَدان على وجهه، بينما فمُه، بسبب القَسوة المُطلَقة، كان يُشبه بشدة فم أسماك القرش الضخمة. وفي اللحظة التي طرق فيها هذا الرجل الباب وفتَحَه ماسكاني، تراجع خلف الرجل الآخر الذي هو رئيسه على ما يبدو، ثم وقف عند زاوية بجانب الباب.

سأل الوافد الجديد، بصوتٍ حادٍّ وفظٍّ والذي بدا طبيعيًّا له: «حسنًا، هل لديك أي معلومات جديدة لتُخبرَني بها؟»

هز ماسكاني رأسه بالنَّفي في تجهُّم.

وأجاب: «كلا.» وتابع: «لكنَّني حاولت أنا وثلاثة من رجالي البحث عنه في كل مكانٍ أمكنني التفكير فيه، لكن لم يُصادفنا التوفيق. إنه ليس في سوهو هذه الليلة، أنا متأكد من ذلك.»

قال الآخر وقد قطَّب حاجبَيه: «لقد كان في ويست إند في الساعة الثانية هذا اليوم.» وأضاف: «هذا ما أنا متأكِّد منه.»

هز ماسكاني كتفيه وهو ما زال على تجهُّمه. وقال: «ربما ما يزال هناك.» وتابع: «كل ما أستطيع قوله إنني قد فتَّشت عنه في سوهو، ولم أستطع إيجاده، ولم أُصادف

أحدًا قد رآه هذه الليلة. كان من المُمكِن أن أُواصِل البحث، لكنك أردتَ منِّي مُقابلتك هنا عند الساعة الحادية عشرة، وعملية البحث تأخُذ وقتًا.»

كانت هناك نبرة تحدٍّ فظ في صوت الإيطالي المولود في سوهو وهو يتحدث؛ نبرة لم يكن الآخر بطيئًا في ملاحظتها. زاد البريق الفولاذي في العينين الشاحبتَين على نحوٍ طفيف، على الرغم من أنه لم يبدُ على أي نحوٍ آخر أنه مُنزعِج أو، بهذا الخصوص، مُهتم.

وقال على نحوٍ هادئ، وبالفعل، ودِّي: «ربما أنا مُخطئ، لكنك تبدو مُستاءً بعض الشيء، أليس كذلك يا ماسكاني؟»

شجعت النَّبرة التي تحدَّث بها رجل العصابات على أن يُزيح عن صدره شيئًا جثم بداخله منذ أن أُحبطَت خطته للخروج مع تيسا دومينيكو بسبب أوامِر هذا الرجل الصارمة.

فقال بعصبية، وقد ظهرت شراستُه الأصلية للمرَّة الأولى أمام الرجل الذي نظَر له دون أن يَرمش: «إن كان ذلك يعني أنني غاضب، فيُمكنُك اعتباري كذلك بالفِعل.» وتابع: «لا بأس أن تأمُر بفعل هذا أو ذاك، وتتحدَّث إليَّ كما لو كنتُ كلبًا في قاع المدينة. لكن لا تنسَ شيئًا واحدًا ...»

قاطعه الآخر، بصوتٍ هادئ على نحو غريب: «وما هو؟»

«لم أكن أنا مَن قتَل المرأة في سوهو سكوير في الليلة الماضية، لستُ أنا مَن يَسعى وراءه مكارثي.»

«أتعتقِد ذلك؟»

«أجل! يُمكنك أن تقول لي إني مشارك في الجريمة مثلما تُريد، وردِّي على هذا أنني لم أكنْ أعلم عنها شيئًا إلى أن رأيتُك ترتكبها، ولو كنتُ أعرف، لم أكن لأُوجَد هناك. تأكَّد من هذا.»

سأل الرجل ذو العينين الجامدتَين وهو مُبتهِج تقريبًا: «وما الفارق، أمام القانون، بين جريمة القتل هذه وجريمة القَتل الأخرى؟» وأضاف: «مَن الذي قتَل مالك عرَبة القهوة؟»

قال ماسكاني بسُرعة: «لم يكن أنا.» وتابع: «لستُ سفَّاحًا كَي أفعل ذلك.»

«أظنُّ أنك إذا وقفت يومًا في قفص الاتِّهام بتُهمة التورُّط في أيٍّ من الجريمتَين، فإن الحقيقة المجرَّدة المتمثِّلة في أنك لم تَرتكِب الجريمتَين فعليًّا بيدَيك لن تُحسن موقفك في القضية. فأنت شريكٌ في الجريمة، مثلَما ينصُّ القانون الإنجليزي، قبل وبعد كلتا الجريمتَين.»

تجهَّم ماسكاني. ثم زمجر قائلًا: «عندما أقفُ في قفص الاتهام بسبب هذا، يُمكن أن تراهن بكل ما تمتلك أنك ستقف بداخله معي. أؤكد لك ذلك.»

«هكذا، إذن؟ هذا ما ستئول إليه الأمور، أليس كذلك؟» تحرَّك المتحدِّث في صمتٍ بخُطوات واسعة سَلِسة نحو ماسكاني، الذي على الفور تراجَع مُبتعدًا عنه ووضَع يده في جيب معطفه الأيمن. وتابع المتحدِّث: «احذر، أيها الأحمق، لا تُحاول سحب سلاحك الذي تضعه هناك إذا كنت حريصًا على حياتك التافهة العديمة القيمة. وسأستعير كلماتك، أؤكد لك أنك ستموت، قبل أن تتمكَّن حتى من تصويبِه نحوي. أنصحك بإخراج يدِك من جيبك قبل ... قبل أن يحدث لك شيء غير سار على الإطلاق.»

نظر ماسكاني نظرة واحدة سريعة إلى هاتين العينين الثابتتين، ثم أخرج يدَه ببطء من جيبه خالية.

«هذا أفضل، أفضل بكثير. والآن، أنصت إليَّ. إن أول خطوة تتَّخذها في أي اتجاه، والتي قد أعتبرها عدائية تجاهي أو تجاه ما أخطط له، ستُصبح آخر خطوة لك. أنا واثق تمامًا من أنك جبان للغاية ولن تَنطِق أبدًا بكلمة قد تضعك، حيث يجب أن تكون منذ زمن بعيد، في قفص الاتهام مع مُرتكبي الجنايات. ورغم ذلك، ها أنا ذا أمنحك هنا والآن هذا التحذير الواضح، وهو شيء أنا لا أُزعج — بوجه عام — نفسي بفعلِه عندما يخصُّ الأمر جرذًا مثلك. أقدَمَ على تصرُّف واحد خاطئ، وأنت تَعرف العواقب.»

سمع صوت طرقة على الباب، وهي تُشبه تلك الطرقة المميزة التي طرقها عندما جاء.

فأمر بإيجاز: «افتح الباب، يا لودفيج.»

ففعل القزم ذلك بدون أن يتفوَّه بكلمة واحدة، وأسرع فازولي إلى داخل الغرفة ثم بسرعة أغلق الباب وسحب المزلاج خلفَه. ونظر نظرة سريعة نحو الرجلَين اللذَين يقفان هناك، وبعد ذلك أخرج شيئًا مسطحًا ملفوفًا في قطعة من المشمَّع من داخل قميصه، وسلَّمه للرئيس.

وقال مع نَبرة خنوع كاملة في صوته: «إليك ما طلبته يا سنيور.»

ثم قال في تملُّق: «لقد لففتُ الأوراق في قطعة المشمع تلك.» وتابع: «كي تمنع اللون الأزرق من تلويث الأصابع.»

قال الرجل ذو العينين الجامدتين: «شكرًا.» ثم فتح اللفافة بحرص واهتمام وفحص محتواها، وأعاد لفَّها بنفس الحرص ووضَعها في جيب صدر معطفِه. وأخرج من محفظته لفافتَين من المال، وأعطى اللفافة الصُّغرى لفازولي، الذي لمَعت عيناه عند رؤية النقود.

وقال صاحب الحانة في تذلُّل تقريبًا، وهو يُمسك بالنقود: «أشكرك يا سنيور؛ أشكرك.»

ثم ألقى الرجل اللفافة الثانية على الأرض عند قدمَي ماسكاني. وقال ببرود: «هذا هو الأجر الذي وعدتُك به.» وأضاف: «دع هذا يُذكرك، يا ماسكاني، بحقيقةٍ مهمَّة للغاية: وهي أنني «أفي» بوعودي عند الثواب، والعقاب.» وأشار بإيماءةٍ مُفاجِئة نحو الباب. وقال آمرًا على نحو فظ: «اخرج.» وتابع: «اخرج قبل أن أُغير رأيي حول طريقة التعامُل معك.»

التقط ماسكاني لفافة النقود دون أن يَنطق بكلمة، ودسَّها في جيبه، واتجه نحو الباب، متفاديًا نظرة الغضب في عينَي الرجل الآخر. فتح فازولي، وقد استشعر قُرب وقوع مأساة عنيفة، الباب على عجل، فاندفع ماسكاني عبره دون أن ينطق بكلمة. وبعد خمس دقائق غادر الضيفان الآخران، ومع تنهيدة ارتياح شديد، أغلق الباب وسحب المزلاج، للمرة الأخيرة، في هذه الليلة، حسبما كان يأمل.

وتمتم بعد أن تناهى إلى سمعه آخر صوتٍ يدلُّ على مغادرتهم للساحة الخارجية: «يا إلهي!» ثم قال: «أنا لا أُحب هذا الرجل! أنا أخاف منه.»

وبمجرَّد أن تسلَّل الاثنان خلسة عبر تعتيم الزقاق الخلفي لمتجَر فازولي، تحدث الرجل ذو العينين الجامدتَين مرةً أخرى.

فقال بهدوء: «سأقود السيارة بنفسي إلى المنزل، يا لودفيج.» وتابع: «أظنُّ أنه من الحكمة بالنسبة إليك أن تُؤدِّي مهمةً صغيرة هذه الليلة، وألا تُخاطر بتركها إلى وقتٍ لاحق.» وأضاف: «وهي مهمَّة محبَّبة إلى قلبك. أتفهم ما أقصد؟»

قال القزم مع ضحكة مكتومة: «أجل أيها البارون.» وتابع: «إنها محبَّبة إلى قلبي، بالفعل!»

وبعد لحظة، اختفى في الظلمة الحالكة للتعتيم في جريك ستريت.

واصل رئيسه المسير باتجاه أكسفورد بخُطى توحي بأن تلك العينَين الغريبتَين لديهما قدرة خارقة على الرؤية في الظلام. وتوقَّف مرةً واحدة فقط عندما سمع حركةً ليست بعيدة عنه، فوقف منصتًا للحظة، ثم واصل المسير مرة أخرى.

وبعد أن فعل ذلك، واصل شخص يتسلل خلفَه كحيوانٍ بري، عملية التتبُّع عبر الجانب الآخر من الطريق، على الرغم من أنه بالتأكيد، إذا كانت هذه عملية تتبُّع، فهو لا يستطيع رؤية فريسته. وعند زاوية ما توقف ذلك الشخص الثاني غير المرئي كما لو أنه قد وقَع في حيرة، ثم تلمَّس طريقه داخل زقاق ضيِّق يصل بين جريك ستريت والجهة

الخلفية من مقرات الشركات فيه. وبعد لحظة تمكَّن بصعوبة من الالتصاق بالحائط عندما دخلت سيارة مُسرعة إلى الزقاق بينما أطفأت أنوارها تمامًا، وقد لمسه تقريبًا واقي الطين الخاص بها. واتجهَت السيارة نحو جريك ستريت، وقبل أن يتمكَّن المُتتبِّع من الوصول إلى الزاوية أضيئت أنوارها بعد أن التفَّت مرةً أخرى داخل أكسفورد ستريت، مُتجهة نحو الشرق. لكن كان هناك ضوء واحد غير مُضاء، والذي كان ينبغي أن ينير، حتى ولو على نحو خافت، وهو ذلك الخاص بلوحة الأرقام الخلفية.

صاح المتتبِّع في أسف: «لقد فقدته.» وتابع: «كان يجب أن أستعدَّ لشيء من هذا النوع.»

الفصل السادس عشر

مقتل فلوريلو ماسكاني!

خرج فلوريلو ماسكاني، بعد أن أُمِرَ بمُغادرة تشيركولو فينيتسيا بقليل، إلى الشارع مرةً أخرى في حالةٍ من الغضب الشديد. وكان الكثير من ذلك الشعور العنيف سببه موقفه الضعيف الذي بدا عليه أمام رجلٍ يحتقرُه، هو لويجي فازولي. هو، نفسه، كان يُعامِل صاحب الحانة باحتقار واضح على الدوام؛ احتقار زعيم عصابةٍ تستطيع عصابته أن تُحطم المكان بكل سهولة إذا تجرَّأ الرجل العجوز على إظهار أي استياءٍ واضح. ونظرًا لمعرفته الجيدة بفازولي، فإن خبر تلقِّي فلو ماسكاني لإهانة لفظية دون أن يُحرك ساكنًا لردِّها، سوف يَنتشِر في سوهو على نحو سريع.

وقد تصاعد غضبه أكثر مع التفكير في أنه لولا الأوامر المُتعالية لذلك الخنزير الألماني التي تقضي بأن يقابله ويُقدِّم تقريره له هناك عند الحادية عشرة، لكان يرقص الآن، أو يستمتع بوقته بأي نحو آخر، مع تيسا. وبعد التفكير للحظة في هذه النقطة أدرك، في نهاية الأمر، أن الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة إلا بقليل الآن، وما يزال لديهما وقتٌ كافٍ للاستمتاع بساعة أو ساعتَين في واحد أو اثنين من الملاهي الليلية الخاصة بالعالم الإجرامي؛ حيث تُقدم له ولأمثاله معاملة خاصة، وحيث تتَّسم أوقات الإغلاق بمرونة فائقة.

ومن ثم توجَّه نحو أقرب كشك هاتف وطلب رقم هاتف مقرِّ إقامتها في داوتي ستريت؛ إذ إن تيسا قد تركت منزل والدَيها منذ أشهر مضَت من أجل العيش في منطقة أفضل؛ فالحياة البسيطة للسيد جاكومو دومينيكو، صانع براميل النبيذ، وزوجته، لوتشيا، لم تَعُد تُناسبها في تلك الأيام.

وقد أجابت على مكالمته صاحبة المنزل الذي تسكن تيسا في غرفة مستأجَرة فيه، لتُبلغه بأنها قد خرجت منذ ساعة تقريبًا، ومن الواضِح أنها ذهبت إلى مطعمٍ أو ملهًى

ليلي حيث ارتدت أفضل ما لديها من ملابس. لكنها لم تقُل أي شيء عن المكان الذي ستذهب إليه، أو الوقت الذي يُتوقع أن تعود فيه.

فاقمت طعنة سريعة من الغيرة المشاعر الوحشية المُتأجِّجة بالفعل في صدره. ونظرًا لمعرفته بها، لم يكن من المحتمَل أن تتأنَّق بهذا الأسلوب لتقضيَ ما تبقى من الليل بمفردها. فمن، إذن، الذي ذهبت لتقابله؟

ومن ثم تجوَّل في الشوارع لبعض الوقت، وبعد ذلك قرَّر تمضية ساعة أو ساعتَين في نادٍ مُعيَّن يرتاده المقامرون، والذي يحمل في اسمه أيضًا الكلمة الملائمة «تشيركولو» من أجل أسبابٍ واضحة؛ حيث جري تبجيل هذا النادي المحدَّد باسم «تشيركولو رومانيا»، على الرغم من قلَّة عدد الإيطاليين الذين يرتادونه وتباعُد فترات ذهابهم إليه. كان يحمل معه كمية كبيرة من المال، وكانت هناك مجموعة متميزة من المُقامِرين على نحوٍ دائم هناك.

ظلَّ يلعب هناك لمدة تقارب نصف ساعة ويفوز باستمرار، وبعد ذلك طلب من مالك النادي أن يطلب رقم هاتف تيسا. تذكر الرجل بعد ذلك أن الساعة قد أصبحت الثانية عشرة والنصف. وقد تلقى الرد بأنها لم تَعُد إلى المنزل بعد؛ وهو ردٌّ نتج عنه زيادة كبيرة في غضب ماسكاني.

أين ذهبت بحق الجحيم؟ ومع من خرجت؟

نخر أحد المقامرين قائلًا، بعد أن فاز ماسكاني للمرة الثالثة بمبلغ كبير في اللعب: «يا إلهي يا فلو!» وأضاف: «كما يقول الإنجليز: المحظوظ في اللعب، تعيس في الحب!»

كاد ماسكاني أن ينهض مع زمجرة، ويمسك في لحظة بعنق ذلك الساخر، لكنه تذكر فجأة أن الرجل يَنتمي إلى مافيا كامورا، وأن تداعيات العراك معه قد تكون غير جيدة على الإطلاق. فواصل اللعب، وهو يصبُّ عليه السباب بينه وبين نفسه.

لكن، على نحوٍ غريب بالقَدر الكافي، انقلب حظ ماسكاني بعد تلك اللحظة. وبدأ يَخسر حتى بشدة أكثر مما كان يكسب من قبل.

وعند الساعة الواحدة تقريبًا رنَّ جرس الهاتف، فذهب أولينتو ديلمورتي، مالك النادي، ليجيب عليه. ووجد أن المتصلة هي تيسا دومينيكو، وهي تطلب محادثة فلو ماسكاني.

وما قيل عبر المكالَمة الهاتفية لا بدَّ أنه قد أبهج رجل العصابات؛ لأنه، لأول مرة في هذه الليلة، ترك وجهه العبوس الجاثم عليه وحلَّ محله شيء يُشبه الابتسامة. وعندما عاد إلى طاولة اللعب، كان يُصفر.

وقال للرجل العجوز الذي تحدَّث معه سابقًا: «لست تعيسًا في الحب للغاية يا جاكومو.» وتابع: «إن لديَّ موعدًا بعد ساعة، لذا اعلم أني سأغادر قبلئذ.»

قال الآخر: «هكذا!» وأضاف: «لكنك تخسر في اللعب، الآن، يا فلوريلو. عندما كنتُ أتحدث، كنت تكسب كل شيء.»

ولكن، وفي مصادفة غريبة، تغيَّر حظ ماسكاني مرة أخرى. إذ خلال ثلاثة أرباع الساعة التالية، عاد ليكسب كل المال الذي خسرَه سابقًا، بل وأكثر، ونهض وهو فائز على نحوٍ جيد. وغادر النادي بإيماءة لا مبالاة وتعليق مفادُه أنهما سوف سيُنهيان المباراة في وقتٍ آخر، ثم اتجه نحو أكسفورد ستريت.

وعلى نحوٍ لا واعٍ لاحَظَ شخصًا قصيرًا عند مدخلٍ مُقابلٍ للنادي؛ بدا من ارتفاع قامته، أنه ربما يكون صبيًّا في الثانية عشرة من عمره. ومع تحرك ماسكاني عبر الشارع، تحرك هو أيضًا، لكن رجل العصابات لم يُلقِ له بالًا بعد ذلك.

وعلى نحو مفاجئ بدأ المطر في الهطول على نحو خفيف، فالتف ماسكاني تجاه زقاق خلفي يعرفه كي يختصر الطريق باتجاه ذلك الجزء من أكسفورد ستريت الذي كان يتجه إليه. وقد لاحظ، تقريبًا دون أن يُدرك ذلك، أن الشخص القصير الذي كان يتبع خطاه عبر الجانب الآخر من الشارع قد اختفى؛ ثم سمعه يُهرول عبر الزقاق أمامه مباشرة. فظن أنه أحد هؤلاء الأطفال المشردين المزعجين الذين ينامون عند المداخل الخلفية في سوهو.

ومن ثم سار عبر الزقاق، تحت الجانب المسقوف من الجدار. شيء ما، ظل، تحرك على نحو مفاجئ في المدخل المنعزل لأحد المتاجر المواجِهة له. فظن أنه هو ذلك الطفل الذي قد تفادى المطر هناك. وعندئذ، وعلى نحو مُفاجئ، وبدون أي أدنى صوت أو تحذير، سُلِّط على وجهه ضوء مصباح يدوي قوي من ذلك المدخل المواجِه، فأفقده القدرة على الرؤية على نحوٍ مؤقت. وفرد يده إلى أعلى كي يُغطِّي عينيه، وكانت هذه آخر حركة يفعلها فلوريلو ماسكاني على وجه الأرض.

إذ انطلقَت نحوه بسرعة وقوة مذهلة عبر المسافة الفاصلة سكين اخترقَت رقبته وثبتت رأسه في الباب القوي خلفه. وتبعه الرامي مثل البرق، حيث غرَس سلاحًا آخرَ في قلبه مباشرة. وظل مثبتًا هناك بلا حراك لمدة ثانية أو اثنتين، بعد أن صدَر عنه تأوُّه كان هو آخر صوت يصدر عنه، وبعد ذلك سحب ثقل وزنه السكين الأول من الباب فسقط متكومًا أسفله على الفور.

وبنفس السرعة التي يَبدو أنه كان يفعل كل شيء بها، سحب الشخص القصير السكين من عنق ضحيته واستعاد الأخرى. وبنفس الهدوء كما لو كان يتناول عشاءه،

مسح كلا السلاحين في ثياب القتيل ووضعهما مرة أخرى في غمديهما. وعلى نحو مُنظم، فتَّش كل جيبٍ من جيوب ماسكاني وسلَب مُحتوياته، ثم انسلَّ خارجًا من الزقاق بلا ضجة مثلما دخله!

ومِن الغريب بالقَدر الكافي أن ذلك المزعج الملعون، باولو فانادي، هو من عثر على جثة رجل العصابات. وأوضحت حقيقة أنه كان حرًّا طليقًا أن الاعتقاد الجازم لدى فازولي بأن الشرطة قد ألقت القبض على ذلك الزبون المشاكس، كالمعتاد، كان خاطئًا بالكامل.

قد يظن المرء، نتيجةً لسجله الإجرامي لدى الشرطة بخصوص الأفعال العدوانية بسبب السُّكر، أن هذا الرجل العربيد القادم من شمال البلاد سيُهرَع للبحث عن أقرب شرطيٍّ دورية كي يُثبت أنه ليس له أي علاقة بالجريمة. وهناك حقيقة أخرى غريبة، وهي غريبة عندما يُؤخَذ في الاعتبار الحالة التي كان عليها منذ ما يَقرُب من ساعتين، وهي أن السنيور فانادي قد أصبَح مُتَّزنًا الآن مثل القاضي الذي يُضرَب به المثل في الاتزان، وبدلًا من اتباع ما يبدو أنه المسلك الطبيعي له كي يتبعه، بدأ يتصرف على نحو غريب للغاية.

أولًا: على ضوء مصباح يدويٍّ صغير كان يُخفيه بين طيات معطفه، فحص الجرحَين المروعَين في الجثة، ثم فتَّش هو الآخر كل جيب من جيوب ملابس القتيل، لكنه، بالطبع، لم يجد شيئًا. وبعد ذلك، بنفس الطريقة المنهجية، وجَّه اهتمامه نحو الباب خلف القتيل، فوجد ذلك الشق الذي أحدثه السكين الأول عندما ثُبِّت ماسكاني في الخشب، ووقف لبعض اللحظات يفكر.

ثم وجه اهتمامه الآن نحو المدخل المقابل والحصى بينهما، وفحصهما بعناية وبدا أنه قد توصَّل إلى رأيٍ ما بخُصوصهما. ومع السير عبر الزقاق في الاتجاه الذي كان ماسكاني يتحرك فيه، وجد أثرًا واضِحًا لقدمٍ ضئيلة غاصَت في الدماء، والذي دلَّه على أن شخصًا ما، امرأة على ما يبدو، رغم أن القدم، مع أنها قصيرة، كانت عريضة على نحوٍ استثنائي بالنسبة إلى طولها، لم يكن على مقربة من المشهد فقط، بل على مقربة شديدة من الجثة كي يخطو على بركة الدماء التي ترقد فيها.

وقد أظهرت له آثار أكثر خفَّة لنفس القدم أن صاحبها قد واصل السير حتى جريك ستريت ثم اتجه شمالًا. كما أظهر له فحص الطرف الآخر من الزقاق أكثر من أثرٍ يدلُّ على الطريق الذي أتى منه ماسكاني. وعلى ما يبدو فقد رأى ما يكفي لتشكيل نظرية في ذهنه عن كيفية ارتكاب الجريمة.

لكن كان لا يزال هناك أمرٌ يحيِّر السنيور؛ أمر صغير والذي، بالحكم من خلال الحيرة والتجهُّم على وجهِه العابس، ترك في ذهنه سؤالًا بلا إجابة، أمر لم يتوافَق مع الموقف. فعاد إلى الجثة مرة أخرى، وبنفس الطريقة الحَذِرة، أضاء مصباحه اليدوي ووجهه نحوها، وبدأ يفتش للمرة الثانية في ثياب ماسكاني؛ فلم يجد أي شيء مثل المرة الأولى. وعلى نحو مُفاجئ، رفع إحدى يدَي القتيل، والتي كانت اليُمنى، وفحَص أطراف أصابعه عن قرب. فرأى عليها شيئًا جعله يقول بعمق، ورضا: «أوه!»، لقد كان بقعة زرقاء خفيفة على طرفَي إصبعي القتيل السبابة والإبهام.

ومن ثم اختفَت الحيرة من على وجه السنيور، وحلَّ محلها حماس شديد. وبعد أن ترك الزقاق اتجه نحو أقرب كشك للهاتف وأبلغ الشرطة، بلغتِه الإنجليزية الضعيفة والغريبة، عن المكان الذي سيعثُرون فيه على جثة القتيل فلوريلو ماسكاني. بعد ذلك فعل السنيور باولو فانادي شيئًا كان سيُسعد كثيرًا مُواطِني سوهو الذين كان يستعرض بينهم سخافاته الوحشية من حين لآخر.

حيث اتجه بهدوء إلى دين ستريت، وفي البداية تأكد بشدة من عدم وجود أحد يتسكع على مقربة، ثم أخرج مفتاحًا، ودخل إلى منزل المفتش المُحقق مكارثي. وبعد حوالي نصف ساعة خرج ذلك الشخص بعد أن عاد إلى هيئته الحقيقية المعروفة عنه بصفته الضابط مكارثي وذهب عبر طريق غير مباشر إلى نادي تشيركولو رومانيا، متجنِّبًا الزقاق الذي كان يعلم أنه الآن قد أصبح خلية عمل للشرطة.

وكانت بضع دقائق من المحادثة الجادة مع أولينتو ديلمورتي — الذي كان يَخشى انتهاك القانون لأقصى درجة عندما يتَّصل الأمر بالمفتش مكارثي — كافية لمنح المفتِّش ما يُريدُه من معلومات.

أولًا: لقد جاء ماسكاني إلى النادي حوالي بعد الساعة الحادية والنصف؛ وقد أبلغ ديلمورتي أن يطلب له رقمًا محدَّدًا عبر الهاتف — والذي قد سجَّله المفتش بعناية — وهو رقم هاتف المنزل الذي تُقيم به تيسا دومينيكو في داوتي ستريت، بالقُرب من هولبرن. وكان ذلك عند الساعة الثانية عشرة والنصف، بعد مرور ساعة. وقد علم أن تيسا الجميلة لم تكن قد عادَت إلى المنزل حتى هذه الساعة.

ثانيًا: عند الساعة الواحدة رن جرس الهاتف، وعند الردِّ عليه، وجد ديلمورتي أن المتَّصلة هي تيسا دومينيكو، وقد كانت تَطلُب محادثة ماسكاني. وقد أُبلغ أن من الواضح أن المكالمة كانت بخصوص موعد للمقابلة حدَّدته تيسا لاحقًا هذه الليلة، أو، على وجه

الدقة، هذا الصباح. فابتهج ماسكاني للغاية بذلك وأخبر رفاقه على طاولة المقامَرة أنه سيستمر في اللعب لمدة تقلُّ عن الساعة بقليل؛ حيث إن لديه موعدًا. ومن ثم غادر النادي عند الساعة الثانية إلا الربع تقريبًا وبحوزته مبلغ كبير من المال.

فقال مكارثي لنفسه: «وعُثر عليه على بعد مسيرة ست دقائق، مقتولًا، وجيوبه خالية!»

ومن نادي تشيركولو، أجرى مكارثي مكالمة شرطية مع إدارة التبادُل، وقد منحوه على الفور العنوان الصحيح الخاص برقم الهاتف الذي أُعطيَ لديلمورتي على أنه يخصُّ تيسا دومينيكو. وبسرعة عرف المزيد من المعلومات، التي مفادها أن المشتركة في خطِّ الهاتف كانت هي السيدة فلانيجان وهي تُؤجِّر غرفَ منزلها لمن يَرغب. هذا كل شيء.

ثم قال وهو يُودِّع مالك النادي: «حسنًا.» وتابع: «لا تُخبر أحدًا بأني سألتك بعض الأسئلة، يا ديلمورتي.»

وبينما هو يُغادر المكان، يتبعه ديلمورتي في خنوع شديد، لاحظ رجلًا يجلس بمُفرده، وهو إيطالي بُني الشعر داكن البشرة يَرتدي زي نادل، وعليه معطف يُغطيه. وكان ما لفَت انتباه المفتش بسرعة إليه أن عينيه الثاقبتَين لمحتا وجود أكثر من بقعة دماء على ياقته، وأيضًا على مقدمة قميصه. وقد زاد وضوح تلك البقع أكثر نتيجة محاولة قوية من الأخير لإزالتها!

إن أي شخص على ملابسه بقع دماء ويُوجد على مقربة للغاية من المكان الذي ترقُد فيه جثة ماسكاني لا بدَّ أنه كان يُثير اهتمامًا كبيرًا؛ وعلاوةً على ذلك، فإن وجه الرجل كان يحمل علامات تدلُّ على أنه ضُربَ بقوة، ولم يَمضِ وقت طويل على ذلك. كما أن لديه تورمًا بين رقبته وفكه يُشير إلى أنه ربما قد رفسه حصان!

فسأل، دون أن يبدو عليه أنه يعير الرجل أي اهتمام خاص: «من هذا الرجل؟»

فأبلغ ديلمورتي مكارثي، وهو يلفُّ ظهره بحرص حتى لا يشك الرجل أنه يتحدَّث عنه، بأن اسمه هو أندريا براجا، وأنه نادل.

وقال لمكارثي بصورة سرية: «لقد جاء إلى سوهو منذ فترة قصيرة.» وتابع: «إنه غير صالح، ما يمكنك أن تطلق عليه حالة ميئوسًا منها أيها المفتش. والليلة ترك العمل في فندق سبلينديد، لأنه تلاعب بباقي حساب أحد الزبائن، إنه أمر مُؤسِف أليس كذلك؟»

قال مكارثي: «إنه من ذلك النوع، أليس كذلك؟» وتابع: «لكن هذا لا يُفسر أين تعرَّض لذلك الضَّرب المبرِّح.»

قال ديلمورتي، وهو ما يزال يتحدَّث بنَبرة خفيضة: «الليلة، صادف رجلًا يدعى باولو فانادي، أظن أنك تَعرفه، أليس كذلك؟ وهو رجلٌ شرس للغاية، إذا جاز التعبير. إنه يأتي إلى هنا من الشمال كل ستة أشهر تقريبًا، ويَشرب كل النبيذ الموجود في سوهو.»

قال مكارثي، دون أن تهتزَّ له عضلة: «أظن أنني قد سمعتُ عنه.»

قال السنيور: «حسنًا، الليلة، كان فانادي مخمورًا للغاية في الشارع، وحاوَلَ براجا هذا سرقته، كي يحصل على ماله. إذ يَحمل فانادي دائمًا الكثير من المال معه عندما يأتي إلى سوهو.»

قال المفتش: «إنه أكثر حظًّا مني يا ديلمورتي.» ثم أضاف: «حسنًا، ماذا حدث؟»

هز السنيور كتفَيه.

«حسنًا، هذا هو ما حدث له. ربما يُعلمُه هذا أن يبعد يدَيه عن جيوب الآخرين.»

أومأ مكارثي. وقال بينما يتوجَّه نحو الباب: «نأمُل ذلك.» وتابع: «يجب أن أُراقب فانادي هذا جيدًا. إن لدينا ما يَكفي من المتاعب في سوهو بدون تدخُّل أمثاله. لا تنسَ أن تنسى أنني جئت إلى هنا الليلة لعمل التحريات.» وأضاف: «إلى اللقاء.»

الفصل السابع عشر

«بيج بيل» يُجري بعض التحريات

كان المفتِّش في حالة تفكير عميق للغاية بينما هو في طريق عودته إلى منزله في دين ستريت. فقد فتح اكتشاف تلك البُقعة ذات الدلالة على طرفَي إصبعي ماسكاني زاوية غير متوقَّعة تمامًا في جريمة سوهو سكوير. إن وجود صلة لماسكاني بتلك القضية على نحو أو آخر قد ثبَت عبر حقيقة أنه كان داخل السيارة التي حاوَلَت دهسه، أو دهس ريجان، ذلك الصباح. لكن وجود الخطط المسروقة في حوزة رجل العصابات هذا بالفِعل كان آخر شيء على الإطلاق يمكن أن يتخيله مكارثي. ولكن لا يُمكن إنكار تلك البقعة؛ التي تدلُّ على قصتها، والتي لا يُمكن تصوُّر وجودها على طرفَي إصبعي الرجل عبر أيِّ وسيلة أخرى.

وبعد تدبُّر الأمر في ذهنه بدا أن هناك طريقة واحدة فقط يُمكن أن يحدث بها ذلك. لقد ارتكبت عصابة ماسكاني، وعلى الأرجح اشترك معهم فلوريلو شخصيًّا، جريمة قتل أنسيلمي وسرقوا عربة القهوة. وعندما، بعد تلك الصرخة مباشرة، ألقيت جثة رونر المذبوحة فيها، سُلمت الخطط على عجل إلى ماسكاني، تحسُّبًا لحدوث أي خطأ أثناء هروب القاتل. ولا بدَّ أنه حصل على أوامر صريحة مُعيَّنة بشأنها، بالطبع. ويبدو أن الاحتمال هو أنه أعادها في تلك الليلة فقط، على الأرجح، إلى الشخص الغامض الذي لَمحه مكارثي، أثناء المراقبة، وهو يغادر حانة فازولي، لكنه فقد أثره في تلك السيارة. وقد كان على استعداد للتضحية براتب شهر من أجل أن يلمح حتى وجه هذا الشخص.

من ناحية أخرى هناك احتمال آخر يجب أخذُه في الاعتبار: إن الخطط كانت لا تزال في حوزة ماسكاني عندما قتل بعد مُغادرته نادي رومانيا، ولكن، بالنظر إلى الأمر من كل الجوانب، لم يعتقد المفتِّش ذلك. ولكن الآن بعد أن أكَّدت تلك البُقعة ذات الدلالة أن الخطط كانت بحوزة زعيم العصابة المقتول، فإنَّ ذلك الأمر المُثير للاهتمام، المُتمثِّل في طرق النافذة التي بجوار المنضدة التي تَتناول البارونة لينا إيبرهارت إفطارها عليها

بانتظام، سيُنظَر إليه من منظورٍ مُختلِف تمامًا. هل كانت فكرته الأولى عن هذا الحدث الاستثنائي نوعًا ما صحيحة، وكانت الطَّرقة إشارة أو رسالة محددة للبارونة؟ عند النظر إلى ذلك في ضوء تقرير ويذرز عن تحرُّكاتها اللاحقة، ولا سيما اختفائها المذهل في مكانٍ ما بالقُرب من حانة فازولي، بدا الأمر كذلك بالتأكيد.

جلبت هذه الفِكرة إلى ذهنِه فكرة أخرى: ما الذي حدَث لويذرز الذي طلب منه أن يلتقيه في مكانٍ ما، أثناء مُهمة المراقبة التي كان يقوم بها بالقرب من تشيركولو فينيتسيا، عند حوالي الساعة الحادية عشرة؟ لم يجدِ المفتش أي أثر له أثناء تجواله في شوارع سوهو، ورغم هذا، اعترف بكل صراحة، أن على سيارة الأجرة التوقُّف بالقرب منه تمامًا حتى يُصبح على علمٍ بوجودِها. ومع ذلك، لا بد أن ويذرز قد اعتاد على التعتيم الآن، وكان من المؤكَّد أنه سيَعثُر على مكارثي لو أنه كان في المكان حسب الاتفاق. وقد أثار عدم وجوده اهتمام المفتِّش إلى حدٍّ كبير؛ لأنه، بوجه عام، كان السائق الضَّخم رجلًا يُعتمَد عليه تمامًا.

بعد أن صرف عن ذهنه فكرة هفوة ويذرز لأنها ليسَت ذات أهمية وهو لم يكن بحاجة إليه، عاد مرة أخرى للتفكير في ماسكاني وموته على نحوٍ مُفاجئ ومُخيف. لا شك أنه يستحق ذلك حقًّا، وخاصة إن كان له أيُّ يدٍ في عملية القتل الوحشية التي تعرض لها جو أنسيلمي المسكين، ناهيك عن مذبحة سوهو سكوير؛ ولكن ليس هذا هو المقصد. إن جريمة القتل هي جريمة قتْل في نظر القانون؛ وليس مهمًّا ما إذا كان المقتول يستحق المصير الذي آلَ إليه أم لا.

وفي هذا الصدد كان هناك شيء آخر حيَّر مكارثي إلى حدٍّ كبير، أثر القدم الضئيلة التي لم يكن لديه شك على الإطلاق أن من تركها وراءه إما القاتل أو شخص مُرتبط به، والذي كان موجودًا عندما ارتُكبت الجريمة. كان من المستحيل أن يكون ذلك هو أثر حذاء رجل، وعلى الرغم من حجمه، فمن الصعب للغاية أن يتركه حذاء حديث لامرأة بسبب شكلِه البَشِع للغاية. تحول عقله تلقائيًّا إلى المرأتين الوحيدتَين اللتَين عرف أنهما على صِلة بماسكاني في غضون الأربع والعشرين ساعة الماضية: البارونة لينا إيبرهارت (والتي خلف اسمها يجب أن تكون هناك علامة استفهام كبيرة جدًّا)، وتيسا دومينيكو. إن قدم الأولى، كما يتذكر جيدًا؛ خلال ساعة الغداء تلك حيث أُتيحت له أكثر من فرصة للملاحظة، ليس فقط الشكل المثالي لقدميها وكاحليها، ولكن أيضًا الحذاء الباهظ الثمن الذي كانت تَرتديه. لقد كان واثقًا للغاية أنه لم يترك ذلك الأثر المحدد.

أحد الأسباب وراء ذلك أن البارونة، على الرغم من جسدها المثالي، كان طولها فوق المتوسط إلى حدٍّ ما، وكانت ذات بِنية قوية على نحوٍ مُتناسب؛ وعلى الرغم من أن قدميها لم يكن بهما أي شيء يثير الريبة، فإنهما بالتأكيد كانتا ذواتي قالب طويل وضيق، ومُختلِف تمامًا عن الأثر القصير والسميك بعض الشيء الذي وجده في الزقاق. وكان هناك جانب آخر من الأمر لا يمكن تجاهله: إذا كانت المرأة النمساوية على صلة بعصابة التجسس هذه التي تقتل بسهولة، فمن المؤكد أنه لن يُعهَد لها بتنفيذ عملية قتل فلو ماسكاني.

كما أنه لم يكن يستطيع بالضبط تذكُّر شكل قدمَي تيسا دومينيكو ذات الجسد المثالي، لكنَّها، أيضًا، على الرغم من تكوينها الأُنثوي المثالي، كانت ذات قامة طويلة، وبِنية قوية. وهو على يقين أن قدمَيها لم تكونا من النوع الضئيل الذي ينتج عنه ذلك الأثر القصير. ولكن هناك شيئًا واحدًا يتعلَّق بها جعله بالتأكيد يُفكِّر، ويُفكِّر مليًّا: وهو حقيقة أنها، بعد أن كانت خارج مسكنها في الوقت الذي اتَّصل فيه ديلمورتي بها بناءً على طلب ماسكاني، هي نفسها، عند الساعة الواحِدة، أجرت مُكالَمة من هناك وحدَّدت ما كان بلا شكٍّ موعدًا لمُقابلة ماسكاني في ساعة لاحقة، ربما الساعة الثانية؛ لأنه لم يُغادِر تشيركولو حتى الساعة الثانية إلا الربع. ونظرًا لأن ماسكاني يَعرف جميع الطرق المختصَرة للشوارع الخلفية في سوهو، فكان بإمكانه الوصول إلى داوتي ستريت على نحو مُريح بحلول الساعة الثانية، حتى مع إعاقته بسبب التعتيم.

كما أن تيسا دومينيكو، التي وُلِدت وترعرعت في سوهو، ومثل معظم سكَّانها الشباب، ركضت في شوارعها ليلًا ونهارًا لسنوات، تَعرفها كما يعرفها حبيبها. فهي تَعرف بالضبط الطرق المختصرة التي سيَسلُكها كي يصل إلى أقرب نقطة إلى داوتي ستريت. وسيُصبح لديها أيضًا فكرة جيدة إلى حدٍّ ما حول الوقت الذي سيُغادِر فيه نادي رومانيا؛ ومن المحتمل جدًّا أنه قد أخبرها بذلك في حديثهما عبر الهاتف.

خطرت على ذهنه كلمات ويذرز التي مفادها أن تيسا ما زالت تُرافِق ماسكاني بسبب الخوف أكثر منه الحب الذي قد تُكنُّه له؛ وهو تعليق ساخِر اتَّفقَت معه. هل كان لها، بسبب أي دافع خفي ناجم عن هذا الموقف؛ أي علاقة بإزاحة هذا الحبيب الغيور الذي تُرافقه خوفًا منه؟ هل كانت تلك المكالَمة الهاتفية هي الوسيط الذي سهَّل التخلُّص من فلو ماسكاني؟

ولكن ها هو، مرة أخرى، يجد نفسه في مواجهة نظرية لم يستطع أن يُعطيَ مصداقية لها. إذا كانت آثار الأقدام هذه ستؤخَذ على أنها ذات قيمة على الإطلاق من أجل توضيح الجريمة، فيجب أن تكون تيسا دومينيكو إما قد ارتكبت جريمة القتل بنفسها

أو كانت موجودة على أي حال عند ارتكابها؛ لم يكن أيٌّ من هذين الاحتمالين، عند النظر فقط للطريقة التي ارتكبت بها جريمة القتل، في رأيه، سيظلُّ صامدًا للحظة واحدة. وفي الحالة الأخيرة، لماذا لم يَترك القاتل أي آثار أقدام؟

لكن تظل الحقيقة أن المكالَمة التي حددت الموعد مع ماسكاني جاءت من تيسا دومينيكو وأنه في غضون بضع دقائق من مغادرته لمقابلتها قُتل بلا رحمة. مرة أخرى، إذا كان لعصابة التجسس هذه التي كان على صلة بها بلا شك أي علاقة بوفاته، إذن فهناك محاجة محتملة بأنها، هي أيضًا، لا بد أن تكون مرتبطة بهم بطريقةٍ ما. وهو يعتقد أنه لم يكن من الممكن بالنسبة لهم أن يعرفوا، إلا عبر المعلومات الواردة منها، أن ماسكاني سيُغادر النادي في الوقت الذي غادر فيه، ليقابلها. ومع ذلك، وبصرف النظر عن الطريقة التي استُخدمت، يجب متابعة أمر هذه المكالمة وإخضاع تيسا الجميلة لاستجواب لا يترك أي شيءٍ بشأن تحركاتها في تلك الليلة موضع شك.

كان المفتش مكارثي معتادًا أن يتصرَّف على الفور بمجرد اتخاذه قرارًا، لكنه أدرك أن الذهاب إلى ذلك المنزل الكائن في داوتي ستريت في تلك الساعة من الصباح، وبدون أمر قضائي، أو أيِّ سلطة أخرى، وإيقاظ الفتاة من نومها كي يستجوبها أمر غير مُجدٍ على الإطلاق، وعلى الأرجح سيضرُّ غاياته. لذا قرر أن يعود إلى بيته وينام لمدة ساعة أو ساعتَين.

ومن ثم استيقظ عند الساعة السادسة مرةً أخرى وارتدى ملابسه؛ وبعد أقل من ساعة خرج إلى الشارع وهذه المرة في هيئة المفتش مكارثي المهذَّب الأنيق الذي يعرفه العالم، ويُحبه ويحترمه.

كان يسير عبر نيو أكسفورد ستريت عندما توقفت بجانبه فجأة سيارة أجرة تسير بسرعة غير قانونية تمامًا مع صوت صرير الفرامل. في مقعد السائق، جلس السيد ويليام ويذرز، وقد ارتسم الأسف على نحو شديد على وجهه الضخم، ومن الواضح أنه جاء يشقُّ طريقه من مقر إقامته في منطقة كليركنويل.

وصاح، قبل أن يتمكن مكارثي من النطق بكلمة: «أيها الرئيس، أنا أعرف تمامًا ما ستقوله وأنا لا أملك إجابة عنه. لقد أدَّيتُ المهمَّة التي طلبتَها مني الليلة الماضية؛ على أي حال»، تابع ملطفًا، «أنا لم أقم بها عن قصد مني، فقط بسبب فقدان أعصابي. وعندما عدتُ مرة أخرى، لم أجدك في أي مكان.»

أجاب مكارثي بهدوء: «لا عليك، يا ويذرز.» وتابع: «بحسب ما اتَّضح، لم أكن في حاجة إليك. ماذا حدث على أي حال؟»

«حسنًا، إن الأمر على هذا النحو يا سيدي، وأنا لا أختلق أي أعذار لنفسي. لقد كنتُ متجهًا إلى سوهو سكوير عبر جريك ستريت، عندما جاء شخصٌ يقود سيارة كبيرة بسرعة عبر أكسفورد ستريت دون أن يُضيء أي أضواء، وأخذ الزاوية بسرعة شديدة، وإذ به يصدم سيارتي بشدة. لقد ارتطم بواقيات الطين الخاصة بي بشدة، على الرغم من أنه لم يخلعها. ويمكنك رؤيتها بنفسك، أيها الرئيس، كي تتأكَّد من صدق كلامي، ومما فعله ذلك الوغد!»

بدأ مكارثي يستمع بحماس وألقى نظرة سريعة على واقيات الطين؛ فوجد أن حالتها على جانب واحد تُؤيد بالفعل قصة ويذرز.

وسأل بسرعة، وهو يتذكَّر في ذهنه تلك السيارة الأخرى التي انطلقت في أكسفورد ستريت دون أضواء: «متى حدث ذلك؟»

أجاب «بيج بيل» على الفور: «حوالي الساعة الحادية عشرة وخمس وعشرين دقيقة، يا سيدي.» وتابع: «أنا متأكِّد من ذلك؛ لأنني كنتُ أعلم أنني متأخِّر عن موعدك، بعد أن أخذت فترة استراحة قصيرة.»

«هل حصلت على رقم السيارة؟»

«كلا يا سيدي. فقد كانت اللوحة الخلفية كلها مُغطَّاة بالطين أو ما يُشبهه.» وأضاف متأملًا: «لكن ليس من الممكن أن يكون الطين على الرغم من ذلك؛ لأن الأمطار لم تسقط إلا بعد ذلك بفترة قصيرة.»

قال مكارثي: «إذا كانت تلك هي السيارة التي أفكر بها يا ويذرز؛ فقد حدث ذلك عن قصد.» وتابع: «من المحتمل أن تكون هي نفس السيارة السابقة. وسيُصبح من السهل الإفلات من ذلك وسط حالة التعتيم. حسنًا، ماذا حدث؟»

«حسنًا، هذا هو الوقت الذي فقدتُ فيه أعصابي، يا سيدي، وانشغلت عن مهمَّتك. فقد صرخت في الرجل، لكنه لم يُعرني أي اهتمام كما لو كنتُ كومة من القمامة. ومن ثم تبعته إلى سوهو سكوير، وخرجت مرة أخرى عن طريق ساتن ستريت وتشارينج كروس رود. بحلول ذلك الوقت كان قد أضاء المصباح الخلفي، لذلك تمكَّنت من تتبُّعه.»

سأل مكارثي: «هل استمرَّ متَّجهًا نحو الشرق؟»

«كلا يا سيدي، كان هذا مجرَّد تضليل. فقد سار حتى بلومزبري ستريت، ثم التفَّ هناك إلى بيدفورد سكوير، وقطع طريقه عائدًا إلى شارع توتنهام كورت رود، ثم إلى أكسفورد ستريت، متجهًا غربًا.»

«بعبارة أخرى لقد استدار عائدًا إلى نفس المكان، أليس كذلك؟»

«بالفعل، يا سيدي. لقد ذهب مباشرة على طول بارك لين ثم انحرف نحو أبر بروك ستريت.»

صاح مكارثي متعجبًا: «أبر بروك ستريت!» وتابع: «هذا يُؤدي إلى جروفينر سكوير، يا ويذرز.»

«وهذا هو المكان الذي ذهب إليه بالضبط يا سيدي، بل والأكثر من ذلك لقد توقف عند المنزل الذي تسكن فيه تلك السيدة التي راقبتها اليوم.»

انطلقت صافرة لا إرادية من شفتَي مكارثي. ها هو، بالفعل، شيء ملموس أخيرًا.

وسأل بسرعة: «ماذا فعلتَ عندئذٍ يا ويذرز؟»

زمجر قائلًا: «لا شيء يا سيدي. بمجرد أن رأيت المكان الذي ذهب إليه، توقفتُ على الفور وخاطرت وأطفأت أنواري. لا يعني ذلك أن هناك الكثير منها كي يُطفأ في ليالي التعتيم هذه.» وأضاف: «ونزلت من السيارة سريعًا وفتحت غطاء المُحرِّك بحيث في حالة وصول شرطي يُصبح لديَّ ذريعة للتوقُّف بأنه قد تعطَّل. لقد اعتقدت أنه سيُصبح أكثر فائدة بالنسبة لك، أن أراقب هذا الرجل قدْر استطاعتي، بدلًا من الذهاب إلى الباب والتشاجُر معه بسبب واقيات الطين الخاصة بي.»

صفَّق مكارثي بشدة وهو يقول: «عمل جيد يا ويذرز، عمل رائع.» وأضاف: «وماذا فعلت بعد ذلك؟»

«لقد ظلَّ في المنزل لمدة نصف ساعة تقريبًا، يا سيدي، وعندما خرج، خرجَت معه إلى الباب تلك المرأة التي تتبعتُها من مطعم فيري، وأخذا يتحدثان معًا بسرعةٍ شديدة ودون توقف.»

سأل المفتش بلهفة: «هل سمعتَ شيئًا مما كانا يقولانه، يا ويذرز؟»

هز ويذرز رأسه نافيًا. وقال: «كلَّا يا سيدي. لقد كانا يتحدَّثان بلغة أجنبية؛ الألمانية، على ما أعتقد. الشيء الوحيد الذي سمعته عندما كان عند البوابة وصاح: «عليكِ أن تتأكدي من استعداد هاينريش للعبور بالأشياء في مساء الغد»، وقالت هي: «بالتأكيد»، وكلمة تشبه «أورف فيدرشاينس».»

صحَّح له مكارثي: «أوف فيدرزين (إلى اللقاء).» وتابع: «وماذا حدث بعد ذلك ...»

«بعد ذلك، ركب السيارة مرة أخرى وعاد إلى بارك لين، ودخَل إلى الفناء الأمامي لذلك المبنى الجديد المكون من عدة شقق الذي افتُتح للتو. وأسرع إلى هناك، وبعد دقيقة أو دقيقتين خرج رجل، وهو خادم من نوعٍ ما، وقاد سيارته إلى داخل المرآب. وظللتُ أنا

بلُطف وهدوء من وراء سور هايد بارك أراقبه. كان من الممكن أن أخاطر وأطرح عليه سؤالًا أو اثنين، لكنني اعتقدت أن الأمر قد يصل إلى سيادته، وربما يضرُّ ذلك أكثر مما ينفع. لذا عدتُ إلى سوهو على أمل أن أجدك. وعندما لم أجدْك، انصرفتُ إلى منزلي واتصلت بك على الهاتف، لكن لم أحصل على أي إجابة. أنا آسف إذا كنتُ قد أفسدتُ أي شيء، أيها الرئيس، بسبب عدم الوجود في الوقت المحدد، لكنني فعلتُ ما اعتقدتُ أنه أفضل شيء.»

أكد له مكارثي قائلًا: «عزيزي ويذرز، إن دزينة من أفضل رجال سكوتلاند يارد لم يكن بإمكانهم فعل المزيد. سأَحرص على أن تنال مكافأة كبيرة من أجل ما فعلته الليلة الماضية.»

هنا، بالفعل، كان يفكر، ما إذا كان قد حدث هذا الأمر غير المتوقع تمامًا بسبب الفطنة التي يتمتع بها «بيج بيل» ويذرز مثل كل أهل منطقة إيست إند بلندن، بالإضافة إلى القليل من الحظ الشديد. لقد اعترف بالجزء الأخير من الأمر بحرية، لكن كل الحظ في العالم لم يكن لينفع كثيرًا لو لم يكن ويذرز قد استخدم فطنته إلى أقصى درجة. هنا، إذن، توجد صلة مباشرة، وربط مُطلَق بين حانة فازولي والبارونة الأرستقراطية لينا إيبرهارت.

عندما فقَد ويذرز أثرها في تلك المنطقة السيئة اليوم لا بد أنها كانت في طريقها إلى تشيركولو فينيتسيا. نفس الجُحر السيئ السُّمعة الذي تركه ماسكاني بعد الساعة الحادية عشرة بقليل للذهاب إلى نادي رومانيا، ومنه استُدعي لميتة رهيبة عبر مكالَمة هاتفية من تيسا دومينيكو. لقد التقطت الآذان المُنتبهة لباولو فانادي المشاكس ما يكفي لإخباره أن فلو ماسكاني كان لدَيه موعد مع شخصٍ ما في حانة فازولي عند الساعة الحادية عشرة، وفي وقتٍ لا يتجاوز تلك الساعة غادر الشخص الذي كان يتبعه ذلك المكان؛ ليشقَّ طريقه مباشرة إلى قصر البارونة لينا إيبرهارت في جروفينر سكوير. ومعه ماذا، إن لم يكن الخطط التي لا بد أنه قد استعادها إما من ماسكاني، الذي تعامل معها في وقتٍ ما أو آخر بالتأكيد، وإما من شخص آخر في ذلك المكان؟

ومن ثم سأل: «أنتَ لم تُتَح لك الفرصة أبدًا لرؤية وجه الرجل، على ما أظن، يا ويذرز؟» وتابع: «سواء في جروفينر سكوير أو خارج تلك الشُّقق.»

هز ويذرز رأسه بالنفي. وقال: «كلا أيها الرئيس، لم تُتح لي الفرصة أبدًا في أيٍّ من المكانَين. لم يكن هناك أي ضوء في جوار المنزل في جروفينر سكوير، وكذلك خارج تلك الشقق كان الظلام حالكًا. وعلاوةً على ذلك، كان الرجل يَرفع ياقة معطفه حتى أذنيه، ويخفض قبعته بحيث لا يمكنك رؤية وجهه من أي زاوية.»

«إنه لأمر مُؤسف، يا ويذرز، لكن العلاقة واضحة بما يكفي لتجعلني متأكدًا من هوية الرجل، وهذا يعني أنه نفس الشخص الذي أعتقد أنه على صلة بجريمة القتل في سوهو سكوير.» وأضاف: «وأيضًا بمقتل فلوريلو ماسكاني في وقتٍ مبكر من صباح اليوم.»

ردَّد ويذرز: «ماسكاني!» وأضاف: «يا للعجب! إنهم لم يقتلوا ذلك الجرذ، أليس كذلك؟»

قال مكارثي: «لقد قُتل، وهذا مؤكد.» ثم أضاف: «والآن أنت ستُوصلني إلى داوتي ستريت، كي أتحدث قليلًا مع السيدة التي اتصلَتْ به لمقابلتها قبل أقل من ساعة من العثور عليه مطعونًا حتى الموت في زقاقٍ ما. بدأت الأمور تتضح يا ويليام؛ بدأت الأمور تتضح بالتأكيد.»

الفصل الثامن عشر

تيسا دومينيكو ترتقي لأعلى

عندما وصلا أمام رقم المنزل الذي تسكن فيه تيسا دومينيكو، طلب المفتش من ويذرز أن يبتعد إلى الأمام قليلًا ويقف على الجانب الآخر من الطريق.

«أريد أن أُلقيَ نظرة عامة جيدة على المكان قبل أن أدخل هناك. إنه شيء غريب، يا ويذرز، كيف يُمكن للجزء الخارجي من المكان أن يُخبرك بالكثير من المعلومات عنه وكيف تجري الأمور بداخله، ولكنه بالتأكيد يمكنه ذلك.»

وجد أنه أحد المنازل الجورجية القديمة الكبيرة التي يُوجَد مدخلها الرئيسي في وسط الجزء الأمامي منها مع وجود نوافذ على جانبَيه والتي لا يزال يُوجَد عدد قليل منها في المنطقة المجاورة، على الرغم من أن الغالبية العظمى منها قد تحوَّل منذ فترة طويلة إلى مكاتب يشغلها المحامون في الجزء الأكبر منها. وخارج النوافذ الفرنسية للطابق الأول، والتي يَبدو أنها تنتمي جميعًا إلى غرفةٍ واحدة ضخمة، كانت تُوجَد إحدى تلك الشرفات المزخرفة ذات القضبان الحديدية والمحبوبة جدًّا من أجداد أجدادنا.

كانت اثنتان من تلك النوافذ مفتوحتَين، وإن لم تمنعه ستائر الدانتيل التي لم تكن شديدة النظافة من إلقاء نظرة خاطفة على الغرفة. كان هناك شيء وحيد لا يمكن أن تُخطئه العين هو وجود لافتة كرتونية مطبوعة كبيرة معلَّقة على إحداها تحمل عبارة «غرفة معيشة ونوم أمامية كبيرة ومريحة للإيجار». ومن ثم، فكَّر على الفور في أن هذا سبب مناسب للدخول إلى المكان وتبادُل بضع كلمات هادئة مع صاحبة المكان قبل استجواب الآنسة دومينيكو نفسها. لقد كان من المدهش حقًّا مدى سهولة استدراج السيدات اللائي يتَّسمن بالثرثرة، وقد أراد التحقُّق من حقيقة أن مكالَمة الساعة الواحدة قد أجريت من الهاتف الخاص بالمنزل، وأيضًا أن من أجرتْها هي تيسا نفسها. لقد جعلته

الخبرة السابقة يُدرك جيدًا أن القليل جدًّا يحدث في منزل من هذا النوع دون أن تكون صاحبته على علمٍ به، سواء كانت راضية أم لا.

كان على وشك عبور الطريق عندما جاءت سيارة إيطالية كبيرة الحجم وباهظة الثمن للغاية وتوقفت أمام الباب. ونزل منها، مما سبَّب له دهشة عميقة، آخرُ شخص في العالم كان يتوقع أن يراه؛ الرجل ذو العينين الجامدتَين. فواصل مكارثي على الفور سيره البطيء عبر الرصيف، متخذًا الاحتياطات اللازمة إذ أسدل حافة قبعته المرنة على عينيه؛ إذ إن آخر شيء أراده هو أن ينظر هذا الرجل باتجاهه ويعرفه. ولحُسن الحظ، ظلَّ نظرُه مستقيمًا، وصعد الدرجات الست أو السبع إلى الباب الأمامي، وطرق الباب. ولكن قبل حدوث ذلك، جاءت سيدة بسُرعة من الغرفة المؤدية إلى الشرفة ولوَّحت للزائر، الذي كانت تنتظره كما يبدو، وهي تَرتدي قبعةً ومن الواضح أنها كانت ترتدي كذلك ملابس للخروج.

ردًّا على الطرق، انفتح الباب وظهرت في البداية امرأة تبدو غير مهندمة إلى حدٍّ ما والتي تحدث إليها الرجل، ثم استدار مرة أخرى ووقف منتظرًا بجانب باب السيارة. لاحظ مكارثي أن من يقودها هو رجل يرتدي زي سائق خاص وكان من المؤكد أنه غريب المظهر. وكان بنفس القدر غريب السلوك؛ لأنه لم يقُم بأي محاولة للتحرُّك وأداء أي من الأمور المعتادة الشائعة للسائق الخاص. بدا وكأنه يجلس على شيء يرفعه إلى أعلى بطريقةٍ غريبة لم يستطع المفتش فهمَها تمامًا؛ في الواقع، كما لو كان مدعَّمًا بوسادة يجلس عليها مثل لعبة جاك في الصندوق.

وكذلك لم يحاول الخروج وتقديم يد المساعدة عندما ظهرت خادمة — غير مهندَمة، بالمناسبة، مثل سيدتها — ورجل يرتدي صديري بكُمَّين مثل زي «مُلمِّع أحذية في فندق»، ونزلا على السُّلَّم حاملَين صندوق ملابس جديدًا وباهظ الثمن للغاية. وشرَعا في وضعه على رفِّ الأمتعة في الجزء الخلفي من السيارة، وتركاه غير مربوطٍ وسارعا عائدَين، على الأرجح لإحضار آخَر. ومما أثار دهشة مكارثي إلى حدٍّ كبير أن السائق ذا المظهر الغريب ظلَّ جالسًا بثباتٍ خلف عجلة القيادة وتركهما يُتابعان العمل. وعندما عاودا الظهور بصندوقٍ ثانٍ من نفس الحجم والفئة، حتى لم يُدِر رأسه نحوهما؛ من الواضح أنه شخص مُتكبِّر للغاية.

مع مجيء الصندوق الثاني، شرَع الرجل الذي يرتدي الصديري الذي بكُمَّين في ربط الاثنين بإحكام، ومن أجل ذلك تلقَّى بقشيشًا سخيًّا للغاية من الرجل ذي العينين

الجامدتَين، إذا كان بإمكان المرء أن يحكم من خلال المظهر المُتفاجئ على نحوٍ سعيد الذي ظهر على وجهه المهموم إلى حدٍّ ما. ومن ثم وجد مكارثي، الذي كان يتطلَّع إلى الصندوقَين ولدَيه فكرة جيدة إلى حدٍّ ما عن تكلفة تلك النوعية من السِّلَع، نفسه يُفكر في أن الأمور كانت على ما يبدو في ازدهار مع تيسا الجميلة (أو، على وجه الدقَّة، الغامِضة للغاية).

ثم جاءت تلك السيدة نفسها عبر الباب، مُرتدية الآن معطفًا طويلًا من الشينشيلا كان مكارثي ليراهن بأي مبلغ على أنَّ سعره لا يقلُّ عن أربعة أرقام. فهو لدَيه خبرة كبيرة في استرداد البضائع المسروقة من تلك الفئة وعلى دراية جيدة بالأسعار التي تُقدَّر بها. مما لا شك فيه أن الفتاة الصغيرة ابنة العجوز دومينيكو قد ارتقت إلى آفاق لم يَحلُم بها أبوها وأمها اللذان يعملان بجد. وقد أرشدت إلى السيارة كما لو كانت ملكة، وجلس الرجل ذو العينين الجامدتَين على مقعده بجانبها، وبدأت السيارة تتحرَّك، وسارَت في اتجاه هولبرن.

وعلى الفور بدأ هذا الحدس الخاص الذي يُعطي المحقِّق الموهوب بالفطرة تلميحًا عن دوافع أولئك الذين يهتمُّ بهم، يعمل بشدة في ذهن مكارثي. لماذا تشرع تيسا دومينيكو في علاقة جديدة خلال ساعات قليلة من جريمة القتل البشعة للرجل الذي أعطته موعدًا قبل فترة قصيرة جدًّا من وقوع الجريمة، ومن المعروف أنها كانت ستتزوَّجه قريبًا جدًّا؟ إذا كان بإمكان المرء أن يحكم من خلال الهدوء والسكينة على ملامحها البريئة؛ فقد كانت الإجابة هي أحد أمرَين؛ إما أنها قاسية تمامًا بخصوص موت ماسكاني، أو في جهل تامٍّ بها. وماذا عن السبب الحقيقي وراء مجيء ذلك الرجل ذي العينين الجامدتَين لها، ذلك الرجل الذي مثْلَ نوعٍ عصري من الأمير الوسيم الذي جاء إلى سندريلا، والذي يَملك سيارة سعرها أكبر بكثير من أي عربةٍ زجاجية ملَكية صُنعت على الإطلاق؟

ماذا عن هذين الصندوقين الفاخرَين الجديدَين تمامًا؟ كيف يمكن تفسير أمرهما في ضوء حقيقة أنه في موعِدٍ لا يتجاوز الساعة الواحدة من ذلك الصباح، اتصلت تيسا بخطيبها — حسبما يعرف كل من في سوهو وشارع سافرون هيل — ودَعتْه إلى مقابلتها؟ والآن ها هو ماسكاني قد قُتل، فانطلقت تيسا مع رجل في مكانةٍ مختلفة تمامًا. إن الأمرَين متناقضان؛ هناك أمر مُثير للريبة، في تصرُّفات تيسا الجميلة.

وبعد الإسراع بالعودة إلى سيارة الأجرة، قال: «تتبَّعْهم، يا ويذرز، ولأجل الربِّ عليك أن تتوخَّى الحذر. لا أريد إثارة أدنى شكٍّ في ذِهنَي هذين الرفيقَين بأن هناك من يراقبهما.»

تحرك الركب من هولبرن واتجه مباشرة إلى أكسفورد ستريت، ومن هناك إلى زاوية بارك لين، حيث التفَّ وتوجَّه إلى الفناء الأمامي لمجموعة الشُّقَق الفخمة التي بُنيت حديثًا،

والتي تتبَّع ويذرز الرجل في وقتٍ سابق من ذلك الصباح حتى وصل إليها، والتي بالتأكيد يبلغ إيجارها مبلغًا باهظًا مثل كل شيء في ويست إند في لندن. وتصادف أن مكارثي كان يعرف أن أسعارها تُذهل حتى فاحشي الثراء.

توقَّفَت السيارة خارج المدخل الرئيسي وخرج منه عامل استقبال ضخم يرتدي زيًّا فخمًا، تعرَّف المفتش على وجهه على الفور على أنه شخصٌ قد رآه في مكانٍ ما أو آخر، وعلى نحوٍ مِهَني، ثم فتح باب السيارة لهما. وبعد ذلك، أثناء مرورهما إلى الردهة المزخرفة للمبنى، استدعى عامل الاستقبال عاملَين آخرين يرتديان زيًّا رسميًّا بصوت صافِرة يحملها.

صاح «بيج بيل» من خلال النافذة الداخلية الصغيرة التي تَفصل بين السائق والراكب: «يا للعجب، أيها الرئيس!» وتابع: «انظر إلى ذلك الرجل الضخم، جيم ديلاني، المتأنِّق مثل ميجور جنزال لعين! أقسم بأنه لم يكن في الخدمة الليلة الماضية عندما جاء هذا الرجل. لكنها نفس السيارة بالفعل؛ يُمكنك أن ترى العلامات الموجودة على واقي الطين الخاص به نتيجة اصطدامه بسيارتي.»

أطلق مكارثي صافرة منخفضة. وقال: «هذا صحيح، يا ويذرز، لقد كنتُ أحاول تذكر أين قابلت هذا الرجل من قبل. ديلاني، أتساءل كيف حصل على هذه الوظيفة بالتحديد؟ إنها حالة أخرى من رسائل التزكية المزورة، كما أظن.»

وهو شك منطقي تمامًا؛ حيث إن الرجل، منذ فترة قصيرة، قد اشتُبه في تورُّطه بواحدة أو اثنتين من عمليات السطو على شُققٍ في ويست إند في مبانٍ كان هو موظف استقبال على مدخلها. وعلى الرغم من أنه أفلت من التُّهمة في كل حالةٍ بأعجوبة، فإن لدى الشرطة شيئًا أقوى بكثيرٍ من الشك في أن الحارس الفخم كان هو في الواقع الشريك «الداخلي» في عملية السطو.

قبل ذلك، كان لدى السيد ديلاني سجلٌّ إجرامي في إدارة الشرطة يتضمَّن العديد من «السوابق» الإجرامية المثبتة، وكيفية حصوله على هذه الوظيفة بالذات، إلا من خلال رسائل التزكية «المزوَّرة»، كانت بلا ريب أمرًا لا يعلمه مكارثي. لا بد أن لديه «واسطة» في مكانٍ ما؛ قد يكون الأمر أن شخصًا ذا صلة بالمكان هنا علم قصَّته وأنه قرَّر العيش باستقامة في المستقبل. وإن كان قد قرَّر ذلك فكلُّ الأمنيات له بالتوفيق. ولكن ... من خلال هزة رأسٍ مُتشككة للغاية قرَّر المُفتِّش طرد السيد ديلاني من عقله في الوقت الحالي، ولكن في الوقت الحالي فقط.

في هذه الأثناء، من خلال الموقع الذي ينظرون منه عبر سور الحديقة، شاهدا اثنين من الحمَّالين يفكَّان أربطة الصندوقَين ويستعدَّان لإنزالهما من السيارة. لكن في هذه المرة، قرَّر السائق الخاص الإشراف على الأمور ونزل من السيارة. ولدهشة المُفتِّش، كان الرجل قزمًا حقيقيًّا، بالكاد يَزيد ارتفاعه عن أربع أقدام، رغم المظهر الخادع تمامًا لكتفَيه العريضتَين وارتفاعه وهو يجلس فوق وسادة موضوعة على كرسي السائق. وبينما كان يدور حول السيارة، متوقفًا أولًا للحظة ليَفحص، في عبوس، العلامات على واقيَي الطين، بدا مثل شمبانزي كبير يرتدي زيًّا رسميًّا أكثر من أي شيءٍ آخر.

صاح الرجل الذي تسبَّبت سيارته في إحداث تلك العلامات: «يا لَلعجب! إنه مجرَّد قزم حقير! اللعنة، إنه أقصر من ديك قزم!» وقال للقزم: «هذا صحيح، أيها التافه، افحصها جيدًا؛ إنك لن تصلح تلك الخدوش بسهولة.»

سأل مكارثي في حيرة: «كيف بحقِّ الجحيم يُمكنه استخدام الدبرياج وفرملة القدم مع هاتَين الرِّجلَين القصيرتَين، يا ويذرز؟»

«لا تتعجَّب، يا سيدي. لا بد أن هناك بالسيارة نوعًا من الأدوات المجهَّزة؛ فهو لن يستطيع أن يصل إليهما أبدًا باستخدام أرجُله القصيرة، هذا شيء مؤكد.»

وافق مكارثي على ذلك بقوله: «لا بد أن هناك شيئًا من هذا القبيل.» وخطرت في ذهنه فكرة أن القزم لا بد أن يكون خادمًا شخصيًّا ذا فائدة كبيرة في عدة أوجه؛ لأنه لا يُوجَد رجل عاقل، بدون المعرفة الفردية للشخص المعني، يمكن أن يختار مثل هذا الفرد الغريب الهيئة لقيادة سيارة بهذا الحجم وتلك والجودة.

بينما كانت تلك الفكرة تدور في ذهنه، قفَز القزم مرة أخرى إلى مقعده المرتفع، وبدأت السيارة تتحرك ببطءٍ بعيدًا عن الباب.

قال مكارثي بسرعة: «من المؤكد أنه سيأخذها إلى مرآبها.» وأضاف: «تتبَّعها. وتأكَّد من مكان وقوفها، وعُدْ إلى هنا في أقرب وقتٍ مُمكن. سأذهب للحديث مع صديقنا ديلاني.»

إن القول بأن المُشتبه به السابق قد فُوجئ بالظهور المفاجئ وغير المتوقع تمامًا للمفتش المُحقق مكارثي لهو تقليل إلى حدٍّ كبير من التعبير المرتسِم على وجه الرجل. فقد تحوَّل لون وجهه من لونٍ وردي صحِّي تمامًا، إلى مزيج من الرمادي والأخضر الباهت.

حيَّاه مكارثي بهذا الصوت الناعم الخافت: «آه، ديلاني!» وتابع: «ها نحن نلتقي مرة أخرى، تخيل!»

ألقى الرجل نظرة خائفة على الردهة حيث يُمكن سماع الحمَّالَين وهما يدخلان بالأمتعة في مصعد.

وشرع يقول: «أنا ... أنا لم أفعل شيئًا أيها المفتش»، عندما قاطعه مكارثي بتلويحة من يده.

وقال بهدوء: «لم يَقُل أحد أنك قد فعلت يا جيمس.» وأضاف على نحوٍ جدِّي: «كل ما أطلبه هو القليل من المعلومات، المعلومات الرسمية.» وتابع: «وكلما حصلتُ على المزيد من المعلومات الصحيحة منك، كان من المرجَّح أن أنسى ... أشياء أخرى.»

في أقل من دقيقتَين، حصل مكارثي على معلومات مفادها أن السيدة والرجل اللذَين وصلا لتوِّهما هما الكونت والكونتيسة هيلنر، وهما من النُّبلاء النمساويين حسبما فهم! وأن الرجل قد أخذ أغلى جناح مؤثَّث في المكان لنفسه ولزوجته قبل حوالي ثلاثة أيام؛ وأن حقائبه لم تصل بعد.

إن إيجار تلك الشقة بالتحديد — أشار إلى أنها تلك التي لها ستُّ نوافذ ذات شرفة على يمين الواجهة والتي تُطلُّ على بارك لين وتلك الحديقة نفسها — هو ١٥٠٠ جنيه في السنة، وهذا، عند التفكير فيه، يعني أن مجرَّد الحصول على مثل هذه الشقة يعدُّ دليلًا ليس فقط على الغنى الشديد، ولكن أيضًا على الاحترام؛ حيث كانت الاستعلامات التي أجراها المدير في كلا الاتجاهَين دقيقة.

كان هناك عدد كبير من الأشياء الأخرى التي علمَها مكارثي بسهولة أو أجبر الحارس الضخم على الإفصاح عنها، الأمر الذي عزَّز أكثر من أي وقتٍ مضى الرأي القائل بأنه، عندما يتصل الأمر بجمال تيسا دومينيكو، فإن هناك بالتأكيد شيئًا خفيًّا أكثر مما تراه العين.

ثم طرح سؤالًا أخيرًا، لكنه أكثر أهمية، على عامل الاستقبال.

قال: «أظن، يا جيمس، لو أنني أردتُ القيام بزيارة صغيرة للشقة، زيارة رسمية بحتة، أنت تعي ما أقصد، دون أن تُتَّخذ الإجراءات الشكلية ويَجري الإعلان عنها، أو، في هذا الصدد، يعلم بها أي شخص، فسوف يمكنك تدبُّر الأمر، أليس كذلك؟»

ظهرت نظرة خائفة إلى حدٍّ ما على وجه الرجل.

فقال بهدوء: «لا تنسَ أن سكوتلاند يارد هي التي تسأل يا ديلاني.» وتابع: «ونحن لا ننسى الخدمات الصغيرة.»

قال السيد ديلاني بعصبية: «أنا ... أنا أظن ...»

قاطعه مكارثي بمرح: «إذن كلُّ شيء على ما يرام.» وأضاف: «ربما أعود لاحقًا ... ربما في وقتٍ يُمكنك فيه ترتيب الأمر بحيث تكون في مهمة تأخذُكَ بعيدًا عن الباب الأمامي. ليس هذا هو المهم!»

في تلك اللحظة عادت سيارة الأجرة الخاصة بويذرز وانتظرت في المكان الذي كانت تقف فيه قبل ذلك.

فتمتم مكارثي في بهجة: «إلى اللقاء يا جيمس، إلى اللقاء.»

ومع تلويحة أخرى من يده غادَرَ واستقلَّ سيارة الأجرة.

ومن ثم قال: «أظن، أننا سنعود أولًا سريعًا إلى داوتي ستريت. إذ يتوجَّب عليَّ الحديث مع صاحبة المنزل الذي كانت تسكُن فيه تيسا دومينيكو. أستميحها عذرًا، الكونتيسة هيلنر.»

كان سؤال مكارثي الوحيد لتلك السيدة مختصرًا ومحددًا. هل أجرت المستأجِرة السابقة، الآنسة تيسا دومينيكو، مكالَمة هاتفية من هاتف المنزل عند الساعة الواحدة هذا الصباح؟ وجاءت إجابة السيدة المالكة بنفس القدْر من الاختصار والتحديد. إذ لم تُجرِ الآنسة دومينيكو أي مكالمة هاتفية، لسببٍ بسيط جدًّا؛ هو أنها منذ مغادرتها المنزل عند حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف في الليلة السابقة، لم تَعُد إليه سوى عند الساعة السابعة والنصف هذا الصباح.

شرعت تقول بنبرة أخلاقية: «مثل تلك التصرُّفات»، عندما قاطعها مكارثي.

وقال بينما ينظر حوله على الردهة المتَّسخة: «أنا أعلم؛ أنا أعلم.» وتابع: «مثل تلك التصرفات لم تَعهديها في هذا المنزل المحترم من قبل. حسنًا، أنا أصدقك يا سيدتي، لكن هناك الآلاف ممن لن يصدقوك، ومن ضِمنهم رجال القسم «إي»، في شرطة العاصمة.»

لكن على الرغم من رُوح السخرية هذه، غادر مكارثي المكان في حالةٍ من التفكير العميق، وفي الواقع، من العبوس الشديد.

الفصل التاسع عشر

مكارثي يكاد يُصيب مديره بالشلل من الدهشة

رن جرس هاتف السير ويليام هاينس بشدة عند فترة منتصف النهار، وعندما رفع السماعة وجد أن مُحدثه هو الرجل الذي تصادَف أنه يُفكِّر فيه في هذه اللحظة؛ المفتش المُحقِّق مكارثي.

ومن ثم صاح قائلًا: «غير معقول يا ماك.» وتابع: «يبدو أن الأحداث قد ازدادت سخونة في سوهو الليلة الماضية. هل تعلم أن هناك جريمةً ثالثة قد ارتُكبت هناك بعد منتصف الليل؟»

سأل مكارثي بصوتٍ يُوحي بأن الأمر لا يَعنيه مطلقًا: «حقًّا؟ مَن القتيل هذه المرة؟»

قال المفوض المساعد، بحماس تقريبًا: «لن يُمكنك التخمين ولو بعد مائة سنة.»

قال المفتش بهدوء: «أنا لا أحاول.» وأضاف: «إذا كنتَ تعني فلوريلو ماسكاني، لكان يُمكنني إخبارك بذلك بعد ربع ساعة من وقتِ وقوع الجريمة. ودعني أُصحِّح لك معلومةً أخرى يا بيل. إن جريمة قتل العجوز جو أنسيلمي، والتي أظنُّ أنها واحدة من الجرائم الثلاثة التي ذكرتها، قد ارتُكبت قبل منتصف الليل، وليس «بعده». ليس قبله بفترة طويلة، ربما بعشر دقائق أو نحو ذلك، لكن المهمَّة الأولى للمفوض المساعد في إدارة الشرطة هي الحصول على معلوماته بنحوٍ دقيق.»

سأل المفوض المساعد، على نحوٍ سريع إلى حدٍّ ما: «إذن فقد كنتَ تعرف خبر مقتل ماسكاني أليس كذلك؟»

«بيني وبينك يا بيل، لقد كنتُ أنا أول من عرف أي شيءٍ عن مقتل ذلك الرجل، ولكي أكون أكثر دقة، أنا مَن اكتشف الجثة وأبلغ الشرطة، بعد أن انتهيتُ من فحصها.»

«أنت من اكتشف ...»

كرَّر مكارثي: «أنا من اكتشف الجثة وأبلغ الشرطة.» وأضاف: «وكان مشهدًا بشعًا. ولا يمكن مقارنته ببشاعة مقتل «السيدة» في سوهو سكوير، بالطبع، لكنك لا ترى مثل تلك المشاهد البشِعة كل يوم، حمدًا لله.»

سأل السير ويليام باهتمام: «هل هناك جديد في هذا الاتجاه، يا ماك؟»

أجاب مكارثي بهدوء: «هناك عدة أشياء، على الرغم من أنها ليست جاهزة بعدُ لتُوضَع في تقرير رسمي كامل. وعندما تجهز أظنُّ أنها ستُصبح مادةً مُشوقة للقراءة من أجل صحف الأحد.»

سأل المفوض المساعد: «من أين تتحدَّث الآن؟»

قال مكارثي: «من كشكِ هاتفٍ بالقُرب من أكسفورد ستريت.» وتابع: «لقد كنتُ أُجري بعض التحريات لقليلٍ من الوقت هذا الصباح يا بيل، قبل أن تستيقظ بكثير، حسبما أظن. بالمناسبة لقد ظهر الطبيب الشرعي العجوز بحماسٍ غير معتاد في المشرحة بعد أن اتصلتَ أنت به هاتفيًّا. لا بد أنك قد تملَّقته للغاية يا بيل؛ لقد كان نشيطًا على نحو غريب.»

قال بقلق: «الأمر المُهم هو إن كان قد توصَّل إلى أي معلوماتٍ مفيدة من خلال قيامه بالتشريح. هل هناك أي شيءٍ يُساعدنا في منع خروج تلك الخطط خارج البلاد يا ماك؟»

قال مكارثي مُطَمْئنًا: «سنفعل ذلك، بكل تأكيد.» وأضاف: «وأنا أريدك أن تساعد في ذلك بدون أن تسأل أي أسئلة يا بيل. هناك جُحرٌ قذِر في حانة تُسمَّى تشيركولو فينيتسيا أريد أن تَجري مراقبته. وعندما أقول مراقبته، فأنا لا أعني أنني أريد ثمانية أطنانٍ من اللحم البشري لتنتشِر خارج وحول المكان بحيث يُدرك الجميع من هم، وماذا يفعلون. إنما أريد شبابًا بارِعين يتولَّون المهمة؛ شبابًا لا يبدو عليهم أنهم من رجال الشرطة، ولا يتصرَّفون مثلهم، هل هذا واضح؟»

«تمامًا. ألن تُعطيَني تلميحًا لما أنت مُقدِم عليه؟»

«يمكنني أن أُخبرك بما يلي يا بيل. لقد نُقلت تلك الخطط إلى حانة فازولي بالأمس، وفي رأيي أن هناك شخصًا واحدًا له علاقة بذلك وهو فلوريلو ماسكاني. وما إذا كان قد قُتل بسببها، هذا ما لا أعرفه؛ لكنني متأكد تمامًا من أمرٍ واحد، وهو أنه قد استُدرِج إلى مكان قتله، بكل تأكيد. هناك زاوية أخرى لهذه الجريمة تتكشَّف بشدة، وهي تبدو لي كحدس قوي، حدس غامض تمامًا لديَّ وسيُؤدِّي إلى نهاية سعيدة. على أي حال، تولَّ أنت أمر الجزء الخاص بحانة فازولي، وإذا بدأ أي من المسئولين الكبار في وزارة الداخلية

أو وزارة الحرب في إزعاجك حول تلك الخطط، أخبرهم أن لدَيك سببًا للاعتقاد أنها سوف تُسترجَع إلى حوزتهم رسميًّا قبل نهاية اليوم.»

قال هاينس بقلق: «سيضعني هذا في موقفٍ لا أُحسَد عليه إذا لم تُسترجَع، يا ماك.»

قال مكارثي بمرح: «انسَ ذلك، ودع ذهنك يتخيل المجد الذي ستناله عندما تُعيدها إليهم.»

ودون سابق إنذار، أدار دفة الحديث في اتجاهٍ آخر مثلما اعتاد على نحوٍ مفاجئ ومُربك.

وقال: «بالمناسبة يا بيل، هل ذهبتَ إلى منزل البارونة لينا إيبرهارت مؤخرًا؟ ربما ينبغي أن أسأل كم مضى منذ أن زُرتَها آخر مرَّة؟»

سأل السير ويليام بحدة: «ما علاقة هذا بالقضية؟»

قال مكارثي بسخرية: «إن مهمَّة المُستجوَب هي الإجابة على الأسئلة على نحو مُباشر وبسيط قدْر الإمكان، وليس توجيه الأسئلة في المقابل، والتي تكون إجابات مراوغة.»

«أنت تَنتقِل من موضوع إلى آخر مثل الـ... الـ...»

قال مكارثي: «الذبابة.» وأضاف: «أنا أُكرر السؤال، يا بيل، كم مضى منذ أن زرتَ منزل البارونة لينا إيبرهارت آخر مرة؟»

«على الرغم من أنني ما زلتُ لا أرى صِلةً بين هذا السؤال وهذه القضية، فسأجيبك. أظن أنه قد مرَّ شهران تقريبًا منذ أن تناولتُ معها شاي المساء هناك.»

قال مكارثي بلُطف: «انظر إلى ذلك، الآن!» وأضاف: «إن المفوض المساعد يَتناول شاي المساء مع البارونة الجميلة داخل منزلها في جروفينر سكوير.» وتابع: «وأظنُّ أنه خلال تلك الزيارة، أو أي زيارات سابقة قمتَ بها، من المحتمل أنك قد قابلت بعضًا من أصدقائها.»

«بالطبع، لقد قابلتُ بعضًا من أصدقائها، الكثير منهم. إن البارونة امرأة معروفة وذات شعبية في المجتمع، ومن الصعب أن تَذهب إلى أي مكانٍ دون أن تُقابل معارف لها.»

قال المفتش رافضًا: «أوه، ها أنت تُراوغ مرةً أخرى، يا بيل.» وتابع: «أنا لم أكن أتحدث عن معارفها على المستوى الاجتماعي. أنا أقصد أصدقاءها المُقربين، هؤلاء الذين تُقابلهم في منزلها.»

قال المفوض المساعد، مع نبرة ارتباك في صوته: «لقد قابلتُ بعضًا ممن يمكن أن نُطلِق عليهم أصدقاءها المقربين بالفعل.» وتابع: «وقد قابلتهم في منزلها.»

قال مكارثي بلطف: «أه!» وأضاف: «الآن سنَصل إلى ما نريد. وهل كان أيٌّ منهم نمساويًّا، مثلها، يا بيل؟ أقصد ممَّن كانوا محظوظين للغاية في الفرار قبل الاتحاد المهيب للنمسا مع هتلر، أو حتى بعده؟»

توقف السير ويليام للحظة قبل أن يجيب.

«كان البعض منهم كذلك يا ماك. اسمع، ماذا وراء كل هذا الاستجواب؟»

قال المفتش ببساطة: «أعطني الإجابات يا بيل، واترك لي ما هو وراء هذا الاستجواب.»

وتابع: «صدقني أنا لن أُضيِّع وقتي بلا فائدة.» وتابع: «هل أنت متأكد تمامًا من أنهم «كانوا» نمساويين، وليسوا ألمانًا، بأي حال من الأحوال؟ أعتقد أنني أعرف الأوروبيين جيدًا إلى حدٍّ ما، ولكن هناك أوقاتًا يُصبح فيها معرفة الفارق بينهم صعبًا.»

ظهرت النبرة المضطربة في صوت المفوض المساعد مرة أخرى.

وقال باندفاع: «بقدْر ما أستطيع أن أقول لك يا ماك، كانوا نمساويِّين، لكن ربما أكون مخطئًا، بالطبع. لقد قدَّمَتهم لي بالتأكيد على أنهم نمساويُّون، ومعظمهم من الطبقة التي نتحدَّث عنها. ليس لديَّ سبب للشك في البارونة. هل لديك أنت؟»

«أنا؟ حاشا لله أن أسمح لنفسي بمثل هذا الأمر! ماذا عن خدمها؟ هل استرعى انتباهك أن أيًّا منهم ربما يكون مِن الألمان؟»

مرة أخرى توقف هاينس قبل أن يجيب.

ثم أجاب بنبرة تفكير طويلة الأمد: «كلا.» وتابع: «لا أستطيع أن أقول إن أي شخصٍ قابلته قد استرعى انتباهي لكونه كذلك.»

سأل مكارثي: «ماذا عن هاينريش؟» وتابع: «هل تعرفه؟»

كرر هاينس: «هاينريش؛ هاينريش.» وقال: «أجل، لقد تصادف أن عرفت ذلك الشخص بالتحديد. إنه كبير خدمِها، خادم خاصٌّ أحضرَتْه معها من فيينا.»

قال مكارثي مرةً أخرى، بتلك الطريقة الناعِمة والغامضة التي يتَّسم بها: «انظر إلى ذلك، الآن.» ثم أضاف: «وهل هناك أي شيءٍ بخصوص هاينريش قد يقودُك إلى الاعتقاد بأنه من أصلٍ ألماني؟»

أجاب هاينس بتمعُّن: «حسنًا.» وتابع: «بخصوص ذلك، يا ماك، بالنسبة للبِنية والمظهر العام، فمن المؤكَّد أنه «يُمكن» أن يكون ألمانيًّا، من النوع القديم لضبَّاط الصف الذي اعتدْنا بشدة عليه في الحرب.» ثم أضاف على عجل: «لكن، بالطبع هذا لا يَعني أنه ألماني للحظة. لا أستطيع أن أُصدِّق أن السيدة التي تَكره النازيِّين وجميع أعمالهم بقدْر

ما تفعل ستَستعين بألماني ليعمل لدَيها ككبيرٍ للخدم؛ لأنه حسبما فهمت هذه عمليًّا هي وظيفة الرجل هناك.»

قال مكارثي بلُطفٍ، بل في الواقع بكثير من اللطف إلى حدٍّ أضاف المزيد من الارتباك إلى عقل رئيسه: «لا يبدو ذلك مُرجَّحًا للغاية، أليس كذلك؟»

فصاح قائلًا: «اسمع يا ماك.» وتابع: «دعْنا نَنتهي من كل هذا. أكره أن أقول ذلك، لكن بصفتي رئيسك المباشر أُطالب بمعرفة ما وراء كل هذه الأسئلة. لديك شيء ما في ذهنك، ومن صميم عملي معرفة ما هو. ما الذي تُحاول قوله بخصوص البارونة لينا إيبرهارت؟»

عاتبه مكارثي قائلًا: «اهدأ، اهدأ.» وتابع: «إن التوتُّر العصبي يا بيل، لا يُفيد أي شخص، وعلى وجه الخصوص، يُشوِّش على أحكام أولئك الذين يَشغلون المناصب الرفيعة، مثلك. إن السؤال الذي يَشغل بالي حقًّا هو متى من المُحتمَل أن تَتناول الشاي مع السيدة مرةً أخرى؟ اهدأ ولا تفقد أعصابك؛ فقط أعطِ السؤال اهتمامك اللطيف والسائل إجابةً لطيفة.»

عبر الخط، سمع مكارثي المفوض المساعد وهو يبلع شيئًا بصعوبة. ثم قال بحدة وبجُهد واضح: «إن لديَّ دعوة لزيارة البارونة في أيِّ وقتٍ أرغب فيه.»

سأل مكارثي: «لقد جُدِّدت لك الدعوة مرة أخرى بالأمس، على الأرجح، أليس كذلك؟»

أجاب هاينس على نحو لاذع: «إذا كان هذا له أي صلة بعملك، فقد حدَث ذلك بالفعل.»

قال له المفتِّش: «إنه من صميم عملي يا بيل.» وتابع: «وما هو أكثر من ذلك أنك لا تحتاج إلى التعامُل مع الأمر بتكبُّر وعنجهية. إذا كنت ستَفعل ما أريدك أن تفعله، فستذهب لتتناول معها كوب شاي دون إخطار مُسبق بعد ظهر هذا اليوم، مع مراعاة الاقتراح الذي قدَّمته لك بشأن هاينريش، كبير خدم السيدة، أو خادمها الخاص، أو أي شيء آخر تُحب أن تُطلقه عليه.»

كاد الشعور بالدهشة من الطلب أن يُصيب المفوض المساعِد بالشلل وهو ما بدا واضحًا للغاية من النبرة التي أجاب بها.

فسأل وهو غير مصدق: «هل أنت جادٌّ في هذا؟» وتابع: «هذا ليس بعض ...»

قال مكارثي بجدية: «هذا ليس أي شيء سوى الملاحَقة المناسبة للمهمة التي كلفتَني بها.» وأضاف: «لديَّ أسبابي الخاصة، وهي وجيهة للغاية، كي أرغب في شخص لدَيه عين

رسمية أن يتفحص أمر هذا الرجل بالذات، ويحصل على فرصةٍ لتقييمه. ولا يُوجد أي شخص آخر في سكوتلاند يارد يُمكنه فعل ذلك، دون إثارة الشك، وهذا في الوقت الحالي هو آخر شيء أريده. الأمر متروك لك بالطبع. أنت الرجل صاحب القرار، وليس أنا.»

كشفت نبرة معينة في صوت المفتِّش للمفوض المساعد أنه، مهما كان هناك ما يُسميه مكارثي «حب الدعابة» في تركيبته المعتادة، فهو في الوقت الحالي جادٌّ للغاية.

فقال، على مضض: «حسنًا، يا ماك.» وتابع: «بما أنك تَعتقِد أن الأمر ضروري، سأذهب. هذا على الرغم من أني لا أعلم ما ستظن السيدة حيال زيارتي لها بهذه الطريقة. سأضطر إلى اختراع عُذر ما مثل مروري بالقُرب من منزلها، ومحاوَلة جعل ذلك يبدو معقولًا.» واختتم حديثه بتجهُّم: «لكن يُمكنني أن أقول لك هذا؛ إنه إذا ...»

قاطعه مكارثي: «إذا لم تكن النتيجة جيدة بنسبة مائة في المائة، فليَرحم الله الرحيم باتريك ألويشوس مكارثي برحمتِه؛ إذ إن أي شخصٍ آخر في سكوتلاند يارد لن يفعل هذا. سأغامر بهذا الأمر. توجه إلى هناك، يا بيل، ومن أجل الرب»، وتابع بعناد: «لا تنس أيًّا من الحِيَل الصغيرة التي علَّمتْك إياها والدتُك وأنت تجلس على رُكبتها في ردهة منزلكم. دعم جهازك، وسيُصبح جهازك داعمًا لك. واعلم كذلك أنه قد يكون هناك ضيوف مميزون آخرون قد تجدُهم في صحبتك. لا يُمكنك الجزم بهذا الشأن، كما يقول السيد برنارد شو.»

وقبل أن يتمكَّن المُفوَّض المساعد من العثور على أي ردٍّ مناسِب على هذا المزاح، كان مكارثي قد أنهى المكالمة، تاركًا السير ويليام هاينس يستخدِم لغة غير مناسبة تمامًا لضابط سابق ورجل نبيل، ناهيك عن كونه أحد كبار المُديرين في إدارة نيو سكوتلاند يارد.

الفصل العشرون

مكارثي يُواجه مأزقًا غير متوقع

كانت الساعة حوالي الثالثة بعد الظهر عندما توقفَت سيارة الأجرة الخاصة بويذرز مرةً أخرى أمام سور هايد بارك المقابل لتلك المجموعة الرائعة من الشقق الفخمة. كان يجلس في الكشك الصغير الخاص به في الردهة، المجرم السابق جيمس ديلاني وهو يُطالع صفحات صحيفة بعد الظهر وأثناء ذلك سقط ظل على وجهه مما جعله ينتفض. وانتفض أكثر عندما اكتشف هوية الشخص الذي ألقى ذلك الظل، المُحقق المفتش مكارثي!

سأل المفتش مع إيماءة برأسه نحو الأعلى: «هل هما هنا؟»

أجاب ديلاني في توتُّر إلى حدٍّ ما: «كلَّا إنهما بالخارج.» وأضاف: «ليس من المُتوقَّع أن يعودوا حتى حوالي الرابعة والنصف. الطابق الأول، وأول شقة على اليمين. وهي بجوار المصعد مباشرة.»

قال المفتش: «سأستخدم السلالم.» وأضاف: «إن المصاعد تُصيب الإنسان بالخمول.»

ودون المزيد من الحديث، صعد سلَّمًا رخاميًّا رائعًا. وأثناء ذلك، رأى ديلاني من زاوية عينه يُغادر على عجل عبر المدخل.

كانت بسطة السلَّم، التي تؤدِّي إلى ممرٍّ أقل فخامة من المدخل، خالية تمامًا. لم تكن هناك علامة على وجود أي شخص، سواء على ذلك المستوى أو على السُّلم المؤدي إلى الأعلى. وبعد أن أخرج طفاشة من جيبه، أدخلها ببراعة في ثقب المفتاح في ذلك الباب الذي على يمين المصعد، وحرَّكها بمهارة، ثم فتح الباب ودخل بهدوء.

وجد نفسه في ردهة داخلية صغيرة، ولكن أيضًا مؤثثة بنحوٍ مبهرَج، تؤدي إلى غرفة استقبال كبيرة. وبعد أن اتجه نحو النوافذ الأمامية، وجد أنها تطلُّ مباشرةً على بارك لين. ومن الشرفة في الخارج كان بإمكانه تحية ويذرز بسهولة كما لو كان على الرصيف.

وسرعان ما قرَّر أن هذه الغرفة بالتحديد ليس بها ما يُهمه. لقد سُكنت حديثًا بحيث لا تحتوي على أي شيءٍ يُحتمل أن يكون مفيدًا له. لكنه تفحَّصها واهتمَّ بشيء أو شيئين قد يثبت أنهما مفيدان فيما بعد. ومنها انتقل إلى غرفة نوم كبيرة للغاية، وبالتأكيد مبهرجة تمامًا مثل غرفة الاستقبال نفسها. وقد وُضِع فيها الصندوقان الجديدَان الباهظَا الثمن هذان واللذان نقلتهما تيسا دومينيكو من مكان إقامتها في داوتي ستريت ذلك الصباح. كانا لا يزالان مُقفلَين، ويبدو أنهما لم يُلمسا منذ أن وضعهما خادما الشقق هنا. كان سيمنحهما بعض الاهتمام الشخصي بمجرد أن يُكمل تفحُّص الشقة؛ فقد علَّمته التجربة أنه من السيئ عدم معرفة تفاصيل أي مكان قد تُواجهك فيه المتاعب في أي لحظة.

وكان ملحقًا بهذه الغرفة المريحة للنوم حمام رخامي بالكامل يتجاوز في الفخامة أي حمام استمتع بالاغتسال فيه، حتى في أغلى الفنادق. وكان له بابان؛ واحد يُدخَل إليه من غرفة النوم، والآخر ينفتح على غرفة مُلحقة لتبديل الملابس، والتي تنفتح مرة أخرى على ممر داخلي يحتوي على أربعة أبواب.

وبتجربة الدخول إلى أولها، اكتشف أنه خاص بغرفة نوم أخرى. وبعد أن أغلق الباب من بعده ذهب إلى الباب التالي؛ فوجدها أيضًا غرفة نوم أخرى، وحتى هذه الغرفة التي من الواضح أنها إضافية أو «احتياطية» كانت مؤثَّثة على نحو يُثير انبهار الرجل العادي. لا شك في أنه إذا كانت هذه الشقق بالتحديد، حسبما قُيِّمت، هي الأغلى في لندن، فمن المؤكد أنها تمنح الشخص الذي استأجرها الكثير مقابل الأموال التي دفعها فيها.

كان على وشك المرور إلى الباب الثالث عندما تناهى صوت إلى أذنه جعله يتوتر ويستمع باهتمام قدر إمكانه. وعلى الرغم من أن غرفتَين وممرًّا كانوا يَفصلونه عنه، فإنه كان مُتأكدًا تمامًا من أنه سمع صوت قفل الباب الخارجي، إن لم يكن ذلك الخاص بالباب الذي يؤدى إلى غرفة الاستقبال الرائعة تلك. فعاد بسرعة إلى غرفة الملابس وأنصَت هناك للحظة؛ كان هذا كل ما يحتاجه ليتأكد أن ساكني الشقة قد عادُوا عل نحوٍ غير مُتوقع تمامًا، وأنه حوصر في موقف لا يُحسد عليه.

بعد الإسراع مرةً أخرى إلى الممر، بحث عن باب للخدَم قد يُوفِّر له مخرجًا، لكن لم يكن هناك واحد. كما أن غرفة الطعام في الشقة، والتي ربما بها باب للخدم، كان مدخلها من غرفة الاستقبال والخروج من الأمام. وللوصول إليها، كان عليه المرور عبر غرفة النوم وغرفة الاستقبال، واحتمالات حدوث ذلك، دون أن يُلاحظه أحد، كانت قليلة للغاية. وبينما كان يُحاول أن يتخذ قراره بشأن أفضل تصرُّف، دخلت تيسا دومينيكو إلى غرفة النوم، وتبعها رفيقها، مما جعل هذه الفرص مُنعدمة تمامًا.

تسلَّل مكارثي إلى باب الحمام على أطراف أصابعه، وفتحه قليلًا جدًّا دون ضوضاء ليرى كيف تطور الموقف. فوجد الأمور غير مُواتية للغاية؛ لأنه بينما تخلصت تيسا من معطف الشينشيلا الرائع الذي كانت ترتديه وألقته على السرير مع قُبَّعتها، ومن الواضح أنها كانت على وشك إصلاح مكياجها، ببساطة استند الرجل ذو العينين الجامدتَين بتكاسُل على الباب الذي يجب أن يمر من خلاله مكارثي بالضرورة للخروج. وهو ما، في رأي المفتش، عقَّد الأمور بالكامل.

ومن الواضح أنهما لم يكن لديهما أدنى شك في وجود أيِّ طرف ثالث في الشقة، وبدا ذلك جليًّا من خلال طريقة محادثتهما. كان الرجل هادئًا ورزينًا للغاية مثلما حدث عندما خرج من مطعم السنيورا سبادوجليا في الليلة قبل السابقة، لكن نَبرة صوت تيسا دومينيكو أثبتت أنها مضطربة على أقل تقدير، إذا لم تكن هناك عاطفة أقوى تسيطر عليها في هذه اللحظة.

سألت: «أين سمعت أنهم يعملون بجدٍّ للتحقيق في موت» — ارتجف صوتها للحظة — «موت، موت ماسكاني؟»

أخذ سيجارة من علبته وأشعلها قبل الرد.

ثم قال بلا مبالاة تامة: «ألم تتوقَّعي أنهم سيفعلون؟» وتابع: «يا عزيزتي تيسا، هذه هي الطرق الغريبة لبلدك هذا؛ حيث تُولي الشرطة نفس القدْر من الاهتمام لقتل أحد رجال العصابات كما لو كان رئيس الوزراء. بطبيعة الحال سيكون الغضب في الصحف أقل، لكن طريقة العمل هي نفسها تمامًا.»

لفت انتباه مكارثي على الفور، وهو من ذوي الخبرة في الأشكال المُختلفة من اللغة الإنجليزية التي يتحدَّث بها العديد من جنسيات العالَم في سوهو، أن هذا الرجل بلا شك ألماني على الرغم من أنه يتحدث الإنجليزية جيدًا، ولكن بطريقة مدرسية. لم يكن هناك شيء من العامية في صياغة عباراته. لقد ذكَّر مكارثي عبر كلٍّ من أسلوبه في الكلام وعباراته بذلك المذيع الذي يُدرك أن ما يقوله كوميديٌّ، اللورد هاو هاو من هامبورج، أكثر من أي شخص سمعه من قبل. والفارق الوحيد هو في نوع من الشر الكامن في صوت هذا الرجل الذي افتقر إليه المذيع الألماني تمامًا.

وتابع الرجل قائلًا: «أنا أتحدث على نحو شخصي تمامًا، وأعتقد أنه لا يُوجَد ما يدعو إلى الخوف كثيرًا من نتائج مساعي سكوتلاند يارد. إنهم لا يسترعون انتباهي لأنهم لا يَمتلكون أي قدر من العبقرية أو الإلهام. ومن أجل طمأنتك، يُمكنني القول إنَّ لودفيج قد

أدَّى مهمة، هل نقول، التصفية مرات عديدة، وهو مُحترِف إلى درجةٍ تجعلُه لا يترك وراءه أي أثر ليحصلوا عليه. أظن أن كلمة «خيط» هي الكلمة التي كان يجب عليَّ استخدامها.»

وبينما كان يُراقبها مكارثي وهي جالسة أمام مرآتها، رأى ارتجافة نفور تسري في أوصال تيسا الجميلة.

وصاحت: «أنا أكره ذلك القزم الرهيب!» وتابعت: «أنا أخاف منه.»

قال: «هذا كلام بلا معنى، وغير عادل.» وأضاف: «ليس لديك سبب لتخافي من لودفيج. في واقع الأمر لقد قدم لكِ خدمة رائعة بأن أزال من طريقك ما كان يُهدِّد بأن يكون خطرًا كبيرًا عليكِ.»

لو كان مكارثي أحد الحيوانات، لكان، إذا استخدمنا هذا التعبير البالي، قد «استنفر أذنيه». إذن ذلك السائق القزم هو القاتل الفعلي لفلوريلو ماسكاني، بتحريض من هذا الألماني ذي الدم البارد، بالطبع. هل هذا المسخ هو أيضًا قاتل ذلك الشخص رونر؟ شك مكارثي في ذلك، حيث أظهرت بعض الأدلة المؤكدة التي يُمكن رؤيتها بوضوح عند المدخل الذي قُتل فيه رجل العصابات، أنه قد رُشق أولًا بسكين على نحو متقَن. أما في قضية سوهو سكوير، لا بد أن الوضع مختلف تمامًا: أيًّا كان من قتل رونر فقد تصارع معه بالتأكيد، وشل حركته بقوة كبيرة أثناء ارتكاب الفعل المروع. وبالحكم من خلال بِنية جسم ذلك المتشبه بالأنثى فإنه من المستبعد تمامًا أن القزم هو من ارتكب الجريمة على الرغم من قوة جذعِه وذراعَيه بلا شك. وكذلك في قضية هاربر، كان مكارثي على يقين من أن الجرح الذي تسبَّب في قتل الشرطي الطويل للغاية والقوي على نحو غير عادي، قد حدث مباشرة باليد، ولا يمكن للقزم أن يصل إلى النقطة الواقعة أسفل كتف هاربر حيث يُوجَد الجرح المميت. وما لم يكن مخطئًا تمامًا، كان الرجل الذي ارتكب جريمتي القتل في سوهو سكوير يقف على بُعد بضع أقدام منه في تلك اللحظة.

قالت بعصبية: «مع ذلك، كنت أتمنَّى لو أن هناك طريقة أخرى للتخلُّص من فلوريلو.»

مرة أخرى هزَّ كتفيه ذواتَي المظهر الرياضي ونظر إليها بمرح.

سأل وأوحَت نبرته بأن الأمر برمته ليس له أدنى قدْر من الأهمية بالنسبة إليه: «وما الطريقة الأخرى التي يمكن أن تكون فعَّالة إلى هذا الحد؟» ثم أضاف: «هل تعتقدين أنه كان من الممكن شراء سكوت رجل عصابات ومُبتز مثله، لأي فترة من الوقت؟ لقد هدد مرارًا وتكرارًا بقتلك في حال كانت لديك الجرأة لتفضيل أي شخصٍ آخر عليه. وأنت ليس لديكِ أدنى شك في ذهنكِ أنه كان يعني تلك التهديدات، ومن المؤكد أنه كان سيُنفذها.»

اعترفت قائلة: «هذا صحيح بالفعل.» وتابعت: «كان سيقتلني عاجلًا أو آجلًا.»

أومأ برأسه موافقًا. وقال: «بالضبط؛ كانت لديه كل غرائز الوحش البري، فيما عدا شجاعته. كان القتل هو الطريقة الوحيدة للتعامل معه. لقد واتته الجرأة أيضًا لتهديدي، وإن كان في موقف مختلف تمامًا. أنتِ، بنفسكِ، أبلغتِني أنه أطلق تهديدات ضدي الليلة الماضية.»

«لقد كررتُ لك ما قاله بالضبط؛ وأنه كان يعنى ذلك، ليس لديَّ أدنى شك على الإطلاق.»

«ولا أنا؛ لقد كان من تلك الطبقة من الجرذان البشرية.» وتابع قائلًا: «وقد تصادف أنني لستُ الرجل الذي يتحمل التهديدات من أي نوع ومن أي شخص. لقد منحتُه الفرصة الكاملة لترجمة كلماته الشريرة إلى أفعال الليلة الماضية في حانة فازولي. لقد أذللتُه في التراب الذي ينتمي إليه، لكن لم يجرؤ على الرد.» ثم ضحك ضحكة قصيرة وقاسية. وتابع: «هذا حسم مصيره بالنسبة لي.» وأضاف: «والآن، دعينا ننتهي من ذلك. لقد كان مفيدًا لبعض الوقت، وبعد أن انتهت تلك الفائدة، لقيَ المصير الوحيد المُمكن لعديمي الفائدة في هذا العالم.»

واختتم بإيماءةٍ فسَّرَها مكارثي على أنها إنهاء موضوع فلوريلو ماسكاني للأبد، ثم بخطوته البطيئة تلك عبر الغرفة وضع عقب سيجارته في منفضةٍ وسط الغرفة. في نفس اللحظة، نهضت الفتاة، ورفعت قُبعتها عن السرير وارتدتها مرة أخرى، وقد أخذت تنظر إلى نفسها في المرآة بينما تفعل ذلك. فرفع الرجل، هيلنر، مثلما دعاه ديلاني، معطف الشينشيلا وأعطاه لها. من الواضح، أن مكارثي شعر بالسعادة، أن الاثنين قد خرجا مرةً أخرى، حيث ابتسم حظ مكارثي المعروف على نحو رائع! وبطريقتِه الصامتة انسلَّ من خلال غرفة تبديل الملابس إلى ذلك الممر الذي تُوجَد فيه غُرَف النوم الأربع، وأغلق الأبواب خلفَه بحذَر.

لم يتحرَّك مرة أخرى حتى سمع للمرة الثانية ذلك الصوت الحاد للباب الخارجي وهو يُغلَق من بعدهما، وحتى عندئذٍ توجَّه فقط حتى باب الحمام للتأكُّد من مغادرتهما. لبضع دقائق، وقف يُنصِت باهتمام، لكنه لم يسمع أي صوت على الإطلاق. كان من المُمكن أن يغامر بالتسلُّل إلى نوافذ غرفة الاستقبال ويسترق نظرةً إلى أسفل ولكن نظرًا لأن ستائر الشقة المُبهرجة كانت مفتوحة، فمن المُمكن أن يَنكشِف أمره إذا ألقى هيلنر أو الفتاة نظرة إلى أعلى. فقرَّر أولًا أن يُواصل فحص غُرَف النوم هذه؛ فلا بدَّ أن أمتعة

الرجل في واحدة أو أخرى منها؛ لأنه لم يرَ أي أثر لها في الغرف التي مرَّ بها بالفعل. لقد قال ديلاني شيئًا عن ذلك، لكن ماذا قال بالضبط، هو لا يستطيع التذكُّر. وتساءل كثيرًا عما إذا كانت متعلقات تيسا الجديدة قد تحمل أي شيء يثير اهتمامه.

أكمل فحصه للغرف واحدة تلو الأُخرى، ولم يجد شيئًا مما سعى إليه. من الواضِح أن مُتعلِّقات هيلنر الشخصية لم تصِل بعد.

كان عائدًا إلى الممر مرةً أخرى عندما رأى بعض الألواح الداخلية التي قد تكون بسهولة تامة المدخل المموَّه جيدًا لدولاب خفيٍّ في الحائط. وبينما هو مُنحنٍ لفحصها ودون أدنى تحذير دعاه ذلك الصوت الحاد الذي كان يَستمع إليه منذ لحظات ليرفع يدَيه، وبسُرعة؛ وفي نفس اللحظة دُسَّت ما كان يبدو واضحًا للغاية أنها فوَّهة مسدس دوَّار أو مسدس آلي في ظهره. وأنبأ التهديد الكامن وراء النبرة الهادئة مكارثي أنه كلما استجاب لهذا الطلب على نحو أسرع كان ذلك أفضل.

لكن، على نحو لا إرادي تقريبًا، التفَّ مكارثي ليجد السلاح قد انتقل بسرعة إلى فُم معدته وهو يُحدِّق في العينين ذواتَي اللون الأزرق الثلجي الثابتتَين تمامًا وقد ضاقتا الآن. ورأى الآن أن ما دفعه في ظهره كان مُسدسًا آليًّا، مُلحقًا به كاتم صوت، والذي كان لديه القدرة على قتل أي شخص يُفرغ فيه. لجزء من الثانية فقط، ومضَت في ذهن المفتِّش فكرة أن يخاطر ويبادر بالهجوم، لكن العينين اللتَين كانتا تَنظران إليه بازدراء شديد لم تعودا فارغتَين وخاليتَين من التعبيرات؛ كان هناك في قساوتهما الشاحبة ما أخبر مكارثي أن هذا الرجل سيقتل دون أدنى ندم. كان الأمل الوحيد الذي لدَيه هو التلاعُب لبعض الوقت والاستفادة من أي فرصة قد يَمنحها له الآخر، وهو الأمر الذي يقلُّ احتمال حدوثه.

قال بمرح، مع ابتسامته المتَّقدة: «يبدو أن الأمور لم تَسِر على النحو المطلوب بعض الشيء.»

رد الآخر بنبرة هادئة مساوية: «بل على نحوٍ كبير، بالنسبة إليك.»

حاول مكارثي المخادعة قائلًا: «ربما.» وتابع: «أعتقد أنه من دواعي سروري التحدُّث إلى السيد — أم أنه البارون؟ — هيلنر؟»

«هذا الاسم سيفي بالغرض مثل أي اسم آخر. لتبسيط الأمور سنتَّفق على هيلنر، البارون هيلنر. وأنت، كما أعتقِد، المُحقِّق المفتش مكارثي، من سكوتلاند يارد.»

صحَّح مكارثي بنفس الطريقة اللطيفة قائلًا: ««نيو» سكوتلاند يارد.» وأضاف: «رغم أنه خطأ شائع بين الأجانب.»

اعتقد المفتش أن الآخر ابتسم ابتسامةً باردة، باردة بشدة لدرجة لا تُبشِّر بالخير.

تساءل هيلنر: «هل لي أن أسأل ماذا تفعل هنا؟»

رد مكارثي بذكاء: «كنت أظن أن ذلك سيبدو واضحًا على الفور لرجل في مثل ذكائك.» وأضاف: «ومع ذلك، إذا كنت تُريد التوضيح بكلمات كثيرة، فأنا كنت أتفحص المكان، معتقدًا على نحو خاطئ أنك والسنيورا دومينيكو قد خرجتما مرة أخرى.»

قال هيلنر، بطريقته المدرسية في نُطقِ اللغة الإنجليزية: «كان من المفترَض أن نفعل ذلك لولا المصادفة المحضة.» وتابع: «لحُسنِ حظِّي، ولسوء حظك بالتأكيد، بينما كنتُ أساعد «السنيورا» كما تُسميها، على ارتداء معطفِها، تصادف أن أُلقي نظرة على مرآتها من زاوية مُعينة. أعطتني تلك الزاوية منظرًا مثاليًّا لك، وأنت تَختبئ بالخلف، وتسترق النظر عبر باب الحمام.» وأضاف بتجهُّم: «كان بإمكاني أن أطلق عليك الرصاص في التوِّ واللحظة، يا مكارثي، وفي ظل ظروف أخرى، كنتُ سأفعل ذلك بكل تأكيد. ولكن تصادف أن السيدة كانت بالفعل في حالة عصبية شديدة، لذا لم أرغب في إفزاعها بأحد التصرفات الهستيرية الذي ربما لا يُناسب هدفي. على المرء أن يفكر في هذه الأشياء.»

الفصل الحادي والعشرون

تبدل الأمور

أومأ مكارثي برأسه. ثم قال بجدية: «لقد فهمتُ مقصدك.» وتابع: «من المؤكَّد بنسبة ألف إلى واحد أنها كانت ستَصرُخ في رعبٍ وعلى الأرجح ستَجلب الناس إلى المشهد وهو ما لا تريده أنت هنا، ليس في هذه اللحظة.» وأضاف كما لو كان يناقش نقطة محلَّ اهتمامٍ على نحو موضوعي تمامًا: «وفي نهاية الأمر، من المتوقَّع بالقطع أن امرأةً من هذا النوع «ستُصبح» في حالة توتُّر عصبي شديد عندما تعلم أنها ليست فقط على صلة بقاتلٍ سفَّاح، لكنها أيضًا متورطة تمامًا، وليسَت فقط شريكة، في الجريمة التي ارتُكبت بالأمس، والتي تَعلم الشرطة بكافة تفاصيلها. في الواقع، بصفتي الضابط المسئول عن القضية، لا أظنُّ أن هناك شكًّا في أن تيسا الرقيقة قد أجرت المكالَمة الهاتفية التي وضعت ماسكاني في الفخ كي يتمكَّن ذلك القزم القذِر التابع لك من قتله. أنت تُناديه لودفيج، أليس كذلك؟»

بدا أن العينين الشاحبتَين، اللتَين يُراقبهما مكارثي بعناية، قد أصبح لونهما شاحبًا أكثر إن كان هذا ممكنًا، كما أصبحت نظرة التهديد فيهما بكلِّ تأكيد أكثر عُمقًا. لكن الرجل على ما يبدو كان مُتماسك الأعصاب بشدة ولم يبدُ عليه ولو للحظة الغضب أو حتى الانزعاج.

وقال: «أظن أن المفتش مكارثي لن يطلب التقدير بسبب الحصول على معلومات عبر التنصُّت على محادثة خاصة؟»

سارع المفتش بالموافَقة قائلًا: «بالقطع لا؛ بالقطع لا.» ثم أضاف: «لكنها كانت مفيدة بشدة وسوف تُوفِّر الكثير من الوقت، والمال. إنها مجرَّد بضع ساعات قليلة قبل أن يجد السيد لودفيج نفسه خلف القضبان، في طريقه إلى الإعدام عبر محكمة الجنايات المركزية في أولد بيلي.»

قال هيلنر بحدة: «هذا مجرَّد احتمال.» وتابع: «وسأَقتبِس هنا مقولتكم الإنجليزية، الكثير من المياه ستجري تحت الجسور من الآن وحتى حينها.»

قال مكارثي بحماس: «لا تُصدقها، أيها البارون.» وأضاف: «نحن لا نرتكب الكثير من الأخطاء بخصوص القتَلة في هذا البلد، بمجرَّد أن نتأكد من أنهم كذلك. والمكانة الاجتماعية لا تمثل فارقًا. ونحن سنضع حبل المشنقة حول عنقك في أسرع وقت من أجل جريمة قتل الجاسوس الذي يُطلِق على نفسه «مدام رونر»، وكذلك القتل الغادِر للشرطي هاربر عند البوابة الخلفية، مثلما سنفعل في سائقك القزم.»

سأل الألماني بهدوء: «أهكذا؟»، ولاحظ مكارثي وهو ينظر لأسفل أن إصبعه قد توتَّر على الزناد.

أجاب على الفور: «هكذا.» وتابع: «وهذا جزء من العمل أنا أفخر به نوعًا ما، خاصة بالأخذ في الاعتبار الوقت الذي استغرقتُه في المهمة. لقد كان الانطباع الأول عندي بأنك القاتل هو ما أطلق عليه مجرد «حدس». أنا لا أعلم ما إذا كان لديكم في اللغة الألمانية كلمة تقابلها تمامًا أم لا. إنها تعني فقط نوعًا من الغريزة. وبسبب هذا «الحدس» تتبعتُك إلى خارج سوهو سكوير، ثم أوعزت لصديق لي أن يُواصِل تتبعك. وعند هذه النقطة، أيها البارون، ارتكبتَ أنت خطأك الكبير الأول، إذا كنت لا تُمانع أن أوضحه لك.»

«بالتأكيد ليس لديَّ مانع. فالمرء يعيش ويتعلم من تجاربه.»

قال له مكارثي وهو يهزُّ رأسه: «على نحو ما لديَّ شعور بأنك لن تفعل أيًّا منهما لوقت طويل.» وأضاف: «إن خطأك الأول هو عدم ترك داني ريجان حيث وضَعه أصدقاؤك — رجال عصابة فلو ماسكاني، بالمناسبة — وتركوه. لم يكن هذا ليُغيِّر من الأمر شيئًا في الواقع، ولكنه كان سيأخذ وقتًا أطول قليلًا قبل أن أكتشف أنا، شخصيًّا، الصلة بين المرأة التي وُجدت مقتولة في هامبستيد هيث والشخص الذي قُتل في سوهو سكوير.» وتابع باهتمام: «وبالمثل، قبل أن أكتشف الصِّلة بين مدام رونر المزيفة والشخص الذي سرَق خطط الدفاع المضادة للطائرات من وايتهول بعد ظهر ذلك اليوم.»

كان من الواضح للغاية بالنسبة إلى المفتِّش أن هذا الكلام كان بمنزلة سهم غير متوقَّع تمامًا، والذي قد أصاب هدفه. إذ بدت للحظة تلك العينان الشاحبتان كما لو كانت تلمَع، ومرةً أخرى توتَّر إصبعه على الزناد. لكن الرجل احتفظ بقُدرته التامة على التحكُّم في صوته وهو يسأل سؤاله التالي.

«وكيف حدثت معجزة الكفاءة هذه؟»

أجاب مكارثي بإيجاز: «العطر.» وأضاف: «رائحة محدَّدة كانت تفوح على نحو واضح في غرفة وايتهول التي سُرقت منها الخطط. وكانت تفوح بشدة في المكان الذي قُتل فيه رونر؛ حيث، بالمناسبة، تركتَ أنت خلفك الخنجر المدبَّب ومنديل الدانتيلا. ونفس الرائحة كانت تفوح على نحو واضح عندما أحضر رجال شرطة جولدرز جرين الجثة إلى المشرحة. ليس هذا فقط لكن كانت هناك بُقعة محددة على الملابس الداخلية لتلك «السيدة» والتي دلَّتني على أنها بكل تأكيد قد أمسكت بالخطط المسروقة، وبالفعل، حملتْها بين طيات ملابسها، أو ملابسه، إذا أردت الدقة. إن الاستدلال واضح؛ أن جريمة القتل قد ارتُكبت من أجل الحصول عليها.»

قال هيلنر بهدوء: «أرى أنني لم أكن أُقدِّر ذكاءك حق قدره، أيها المفتش.» وأضاف: «أكمل.»

«وعندما، في وقتٍ لاحق، وجدت بقعًا مُماثلة على أطراف أصابع جثة ماسكاني، لم يكن من الصعب تجميع الخيوط واستنتاج الأمور. لقد كنتُ أعلم بالفعل أن ماسكاني مُتورِّط في القضية، من خلال الحقيقة المجرَّدة أنه كان ضمن المجموعة التي كانت داخل السيارة التي حاولت أن تصدمني أنا وداني ريجان بينما كنا عائدَين من المشرحة. لا بد أنه كان لديك شكٌّ كبير حتى آنذاك، أيها البارون، أني قد ربطتُ بينك وبين تلك الجريمة.»

أجاب هيلنر، وظلَّت عيناه الثابتتان مُركزتين على عينَي المفتِّش الناعمتَين والمخادعتَين للغاية: «لقد كان لديَّ هذا الشك بالفعل، لسببٍ غير مُفسَّر تمامًا حتى بالنِّسبة إليَّ.» وأضاف: «من فضلك تابع؛ إنه أمر مُثير للاهتمام للغاية.»

قال مكارثي: «لقد تلقَّيتَ أنت ضربةً أخرى من الحظ السيِّئ.» وتابع: «إذ بعد أن غادرت حانة فازولي بالأمس، اصطدمتَ بسيارة الأجرة الخاصة بصديقٍ مُحترَم للغاية من أصدقائي والذي، في واقع الأمر، كان قادمًا إلى سوهو ليَصحبني. ونظرًا لأنك، على ما يبدو، واجهتَ اعتراضه بذلك الاحتقار الذي تُبديه للأشخاص الأقل حظًّا من الطبقة الأكثر تواضُعًا بعكس طبقتك، فقد التفَّ وتتبَّعك، أيها البارون.»

«تتبَّعَني أنا!»

كرَّر مكارثي قائلًا: «تتبَّعَك أنت.» وأضاف: «حتى جروفينر سكوير، وبعد ذلك تتبَّعَكَ مرة أخرى حتى هذا المكان.»

قال البارون بحدة: «لم ألحظْه مُطلقًا.»

قال مكارثي في سرور: «لقد استطاع بمهارة أن يَخدعك.» وتابع: «لقد تصادَفَ أنه رجل ذكي يُساعدني من حينٍ لآخر، وقد أدرك أنه اكتشف الصِّلة التي كنتُ بانتظارها منذ أن زارت سيدة صديقة لك حانة فازولي في فترة ما بعد الظهر.»

قال الألماني بالألمانية دون أن يتمكَّن من كبح جماح نفسه: «يا إلهي!»

وقد جاء التغيير الذي ينتظره مكارثي على نحوٍ مُفاجئ وبدا واضحًا على تعبير تلك العينين. إذ إن الكشف عن تتبُّعه حتى جروفينر سكوير ومشاهدته هناك، مع الاستدلال الواضح أن الزيارة تربطه بالتأكيد بالبارونة لينا إيبرهارت، يُعدَّان، بلا شك، ضربةً قاصمة، لكلٍّ من كبريائه وإحساسه بالأمن.

قال مكارثي برفق: «إنَّ النساء لا يَصلُحن مطلقًا في عمليات التجسُّس، أو أي نوع آخر من التآمُر من أجل ذلك. فهنَّ لا يُجِدن كتم الأسرار. وعلى الرغم من ظنِّهنَّ أنهن بارعات، وماكرات بلا شك، فهن دائمًا ما يرتكبن الخطأ الذي إما عاجلًا أو آجلًا يُدمِّرهنَّ ويُدمر كل من له صِلة بهن. إن صديقتي الصغيرة، تيسا دومينيكو، ستفعل نفس الأمر عندما يَقبضُون عليها وتذهب إلى سكوتلاند يارد للاستجواب. أتوقَّع أنهم قد قبضوا عليها الآن. إنها ستُفصح عن كل ما تعرفه، أنت تُدرك أني مُحق، يا هيلنر. وفازولي، هناك نوع ضعيف من الأشخاص يمكن أن تَحصُل منه على ما تريد بالضغط عليه عندما تصعب الأمور. إن الطيور الصغيرة التي تُغرِّد على أشجار ميدان لنكولنز إن فيلدز لا يُمكنها التغريد بسرعة أكبر من السرعة التي سيُفصح بها فازولي عن كل ما يعرفه.»

صدرتْ زمجرة خفيضة تُشبه زمجرة حيوان من حلق الألماني.

وقال بصوت خفيض جدًّا: «اللعنة عليك.» وتابع: «أيًّا كان ما سيَحدث، فأنت، على الأقل، لن تظلَّ حيًّا لتراه!»

قال مكارثي بحدة، وهو يشدُّ قامته: «أخرج هذه الفكرة من رأسك تمامًا.» وأضاف: «سأظل حيًّا، دون شك، وسأُعطيك آخر معلومة، مرفَقة بنبوءة، بلا سبب. هاينريش «لن» يستطيع إخراج الخطط المسروقة خارج إنجلترا هذه الليلة!»

وبسرعة البرق اندفعَت إحدى يديه لأسفل باتجاه الخارج، لتبعد المسدس عن وسطه؛ فانطلق على الفور وسمع صوت الطلقة الثقيلة تشقُّ طريقها نحو إطار الباب. وفي نفس الوقت اندفعَت يده اليمنى نحو وجه الرجل بقوةٍ هائلة، مُسبِّبة جرحًا حتى العظام. فانبثق الدم من الجرح، مما أعاق للحظة هيلنر عن الرؤية ومنح مكارثي ذلك الجزء من الثانية الذي يحتاجه ليُمسِك بمعصم يد الألماني التي تحمل المسدس.

لكنه اكتشف أن خصمه يحتاج إلى أكثر من لكمة واحدة، رغم أنها كانت قوية للغاية، كي يتغلب عليه. إذ اصطدمت قبضة هيلنر اليُسرى بقوة في وجه مكارثي، ودفعت رأسه نحو الباب بقوة مذهلة. بعد لحظة أصابته ضربة ركبة في الأربية بألم مُبرح، لكنها أدت أيضًا إلى شيء آخر لم يتوقعه الخصم أبدًا بالتأكيد.

لقد أشعلت الغضب في دماء المفتِّش الأيرلندي المقاتلة! وبينما هو لا يزال يُمسك بمعصم يد الرجل التي تحمل المسدس، ضرَب وجهه الملطخ بالدماء بشراسة لا يستطيع أحد تحملها لفترة طويلة. فوجَّه هيلنر، الذي يُماثل مكارثي في الطول والقوة، ضربة رأس حديدية نحو وجهه بقوة رهيبة، ليقابل في المرة الثانية التي جربها بلكمة لأعلى كادت أن تُمزِّق تلك الرأس من فوق كتفيه. وبقوة مطلقة، دفع مكارثي خصمه إلى الخلف بعيدًا عن طريق الباب عبر الممرِّ وبمواجهة الحائط.

مع محاولة الألماني للإمساك بحلقه، ضرب مكارثي تحت القلب بيده الحديدية حتى أصبح تنفس الرجل لهاثًا قصيرًا على نحو واضح. ولكن، وعلى الرغم من إصابته، فقد كان شديد الخطورة مثل الأفعى ذات الجرس في كل ثانية من الوقت.

لكن الدم الذي كان يَفقدُه أصابه بالضعف. لقد كان يتدفَّق من وجهه مثل السيل الآن، ليغطي ملابسه، وملابس مكارثي. وحاول عبثًا تنفيذ حركة قفل الساق وطرح رجل سكوتلاند يارد أرضًا، ولكنه فشل؛ إذ إن مكارثي، الخبير في نمط الفنون القتالية المُسمَّى الجوجيتسو، كاد أن يمزق طرفه من مفصله.

ومن ثم كافح بشدة من أجل تحرير يدِه التي تُمسك بالمسدس، لكن المفتش، الذي كان يُدرك أنه إذا حدث ذلك، فقد حانت آخر لحظة له، تشبَّث بها بإصرار مثل كلب بولدوج. مرارًا وتكرارًا أخذ يوجه تلك الضربات الشديدة تحت القلب، ولكن رغم أنها كانت تبطئ الرجل، فمن المؤكد أنه لم يظهر أي علامة على ذلك سوى أنفاسه اللاهثة.

ثم، مع التفافٍ مفاجئ لجسده بالكامل، لكنه لا يزال يُمسك بمعصِمه، انحنى مكارثي بسرعة، وحمل جسد الرجل على كتفه، وأطاح به على الأرض. ومع الإمساك بمعصِمه، أخرج مفصل الذراع تمامًا من تجويفِه وسقط المسدَّس من أصابع اليد التي فقَدت القدرة على التحكم.

ولكن حتى عندئذٍ لم يكن قد أجهز على الآخر بعد. إذ انطلقَت إحدى يدَيه الملطَّخة بالدماء وأمسكت مكارثي من كاحله، وحاول أن يَسحب المُحقق معه على الأرض. وحينها تمكن رجل سكوتلاند يارد من تنفيذ المسكة التي كان يريدها.

لقد انحنى سريعًا مرة أخرى، ونفذ قبضة المقص المتصالب على رقبة الرجل، ودفع إبهاميه إلى أعلى تحت أُذنَيه، وضغط بقوة. ومع شهقة لاهثة، فقد هيلنر الوعي!

ومن ثم فتش مكارثي كل جيب من جيوب الألماني، وبحث بحثًا دقيقًا، ولكن لم يكن هناك أي أثر للخطط المسروقة. لا بد أن هيلنر قد سلَّمها إلى البارونة إيبرهارت خلال زيارته السريعة في الليلة الماضية. على أي حال، كان هذا هو الاستنتاج الذي توصَّل إليه مكارثي، وكان يأمل بشدة أن يكون استنتاجًا صائبًا، نظرًا لأنه لم يجدها معه.

وبعد أن وضع يدَي الرجل الفاقد للوعي خلف ظهره بدأ مكارثي في البحث حوله عن شيءٍ يُوثقه به كي لا يتمكَّن من تحرير نفسه مرة أخرى. فوجد غطاء سرير حريري قوي مزَّقه وجدَّله ليصنع منه حبلًا. وربط معصمَي هيلنر معًا بإحكام خلف ظهره، ثم ربط كاحلَيه بحيث أصبح من المستحيل أن يتحرَّك بوصةً واحدة حتى لو تمكَّن من الوقوف على قدمَيه. وللتأكد من ذلك رفعه، وألقى به على أحد الأسرَّة، ونزع غطاء سرير من غرفةٍ أخرى وربطه به بإحكام؛ ونظرًا لأنه كان في حالة فقدان وعي لم يجرؤ على أن يُكمِّمه تحسبًا لئلا يختنق الرجل حتى الموت. لقد كان متأكدًا تمامًا من أنه مع إغلاق جميع الأبواب، لن يسمعه أحد أبدًا إذا صرخ بصوتٍ عالٍ، فهذه الشُّقَق بالتحديد جدرانها سميكة.

وبعد أن أسرع إلى غرفة الاستقبال، اتَّصل بإدارة سكوتلاند يارد عبر الهاتف ووصل إلى هاينس تمامًا في الوقت الذي كان الرجل يُغادر فيه مكتبه، أغلب الظن كي يُنفِّذ مهمته في فترة ما بعد الظهر.

قال بسرعة: «بيل، يجب تعيين قوة للبحث عن تيسا دومينيكو على الفور. إنها في مكانٍ ما من ويست إند، ربما تتسوَّق. مهما حدث يجب ألا يُسمَح لها بالعودة إلى هنا.»

سأل هاينس في جدية: «وأين تقع هنا تلك؟»

وبعد أن أعطاه العنوان، قال بأنه من الأفضل وضع رجلَين عند المدخل الأمامي لترقُّب وصولها، في حالة عدم نجاح مهمة البحث.

«والآن أعطِ الأوامر لمداهمة حانة فازولي وإلقاء القبض على لويجي دون إضاعة المزيد من الوقت. وأيضًا أَلقِ القبض على كل رجلٍ معروف بانتمائه لعصابة ماسكاني. واحتجزوهم جميعًا للاستجواب إلى أن أتمكَّن من الوصول إلى الإدارة.»

سأل المفوض المساعد باهتمام: «هل استعدتَ تلك الأوراق المسروقة؟»

رد مكارثي: «سأفعل بحلول المساء يا بيل.» وتابع: «لا تدَعِ التفكير فيها يُزعجك. حافِظ أنت على موعد بعد الظهر الخاص بتناول الشاي.»

سأل هاينس بانزعاج: «هل ما زلتَ مُصرًّا على هذه الفكرة المجنونة يا ماك؟»

قال له المفتش على نحوٍ قاطع: «أكثر من أي وقتٍ مضى.» وأضاف: «لا تخذُلني في ذلك، مهما حدث.»

أنهى مكارثي المكالمة قبل أن يتمكَّن المفوض المساعد من إثارة أي اعتراضات أخرى، وهُرِع إلى الطابق السُّفلي، وتوقف للحظة فقط عند كشك ديلاني.

وقال لذلك الرجل الذي حدَّق في حالته الشعثاء الملطخة بالدماء في دهشة: «سأحتفظ بمفتاح تلك الشقة لبعض الوقت.» وتابع: «لا تدع أحدًا يقترب منها. إذا حدث ذلك، فستواجه مشكلة.»

وخرج مسرعًا إلى سيارة أجرة ويذرز، وعند القول إن دهشة ويليام الضخم القوية من حالته كانت كبيرة، فإن هذا لا يكفي لوصف مشاعره مطلقًا.

صاح: «يا إلهي!» وأضاف: «يبدو أنك تعاركتَ، أيها الرئيس. كم كان عددهم؟»

أخبره مكارثي، محاولًا أن يبتسِم من خلال شفتَين مجروحتين: «واحد فقط، لكنه كان قويًّا للغاية. أعِدْني إلى دين ستريت للاغتسال وتغيير ملابسي.»

قال ويذرز في أسف: «يبدو أن هذه البدلة قد تلفَت تمامًا، أليس كذلك؟»

قال مكارثي وهو يهز رأسه حزينًا: «كلمة «تلفت» ليست كافية.» وتابع: «إنها من ماركة سافيل رو، يا ويذرز - ولم أدفع ثمنها بعد!»

الفصل الثاني والعشرون

مداهمة مزدوجة!

كانت الساعة الخامسة بالضبط عندما وصل المفتش، وهو لا يزال يستقلُّ سيارة أجرة «بيج بيل»، إلى جروفينر سكوير، تلك الساعة التي عندها كان كلٌّ من لدَيهم الوقت، أو الميل، عمومًا يتناولون الشاي الذي، كما قيل لنا، يُنعش، لكن لا يُسكِر.

على الرغم من أنه قد أولى اهتمامًا كبيرًا لنفسه بعد تغيير ملابسه التالفة في دين ستريت، فإن العلامات التي خلَّفتها لكمات عميل المُخابرات الألمانية كانت لا تزال واضحةً على ملامحه. وقد استبدل ببدلة سافيل رو التي تلفت تمامًا أخرى مختلفة بالكامل؛ من النوع الذي قد يَرتديه أي موظَّف في عمله.

كان الشيء الذي يشغل عقل مكارثي للغاية في هذه اللحظة هو المهمَّة الصعبة المُتمثلة في الدخول إلى منزل البارونة إيبرهارت دون أن يَنتبه أي من ساكنيه. فكر أنه إذا توجَّه إلى الباب الأمامي وطلب الدخول، فربما سيَمنح ذلك تلك السيدة القليل من الوقت اللازم لإخفاء الأوراق التي تحوي الخطط، أو حتى تهريبها خارج المنزل؛ وحينها فإن الحصول عليها مرةً أخرى سيُصبح مهمةً شديدة الصعوبة، هذا إن كان بالإمكان إنجازها من الأساس.

وفي ظل هذا الوضع، مع كل شيء جاهز لتهريب تلك الخطط المهمة للغاية إلى خارج البلاد هذه الليلة، كان من المُرجَّح للغاية أنه ليس فقط السيدة نفسها، ولكن أيضًا المتورطون في عملية التجسس هذه من الموجودين في منزلها، سيُصبحون مُنتبِهين ومتشكِّكين ويقِظين حتى لا يحدث أي شيء قد يضر بما يخططون له. ومع جرائم القتل التي ارتكبت خلال عملية الحصول على الأوراق، فربما هم مُتحفِّزون تجاه أي شيء، أو أي شخص، قد يُخرِّب مُخططهم، حتى في اللحظة الأخيرة.

لقد ترك ويذرز مع السيارة بالقُرب من زاوية في الميدان بحيث لا يراه أحد من المنزل، وكان يلقي نظرة هادئة على محيطه الخارجي عندما وقعت عيناه على السير ويليام هاينس وهو يقترب بسرعة من اتجاه بارك لين، ومن المؤكَّد أن المفوض المساعد قد أتى بكامل أناقته لأداء المهمة. إذ كان معطفه الصباحي على أحدث طراز، وبنطاله مكويًّا بعناية، بينما كان حذاؤه وقبعته مُلمَّعين على نحوٍ واضح. أدار مكارثي على الفور ظهره لمشهد الأناقة هذا، لم يكن لدَيه أدنى رغبة في أن يتعرَّف عليه المفوض المساعد في تلك المرحلة من اللعبة، ولكن حتى قبل أن يفعل ذلك، رأى أن وجه صديقه لم يكن سعيدًا. إذ لم يجد المفوض المساعد أي متعة خاصة في هذا الجزء من القضية.

أظهرت له نظرة سريعة ثانية إلى الخلف السير ويليام عند أعلى درجة خارج المدخل الأمامي الضخم، ويَنتظِر، مع بطاقة في يده، الباب كي يُفتح له. كما أظهرت له نفس النظرة أيضًا أن شاحنتَين من الشاحنات الثقيلة التي دخلت الميدان قد توقَّفَتا أمام فتحة الفحم الموجودة في الرصيف والتي من الواضح أنها تخصُّ المنزل؛ وعلى ما يبدو، أنهما تحملان إمداد السيدة الشتوي من الفحم. ولَّد هذا في عقل مكارثي الذكي فكرة.

فأسرع بالعودة إلى سيارة الأجرة، وأشار لويذرز بالنزول منها.

وقال له: «اذهب وتعرف على رئيس عمال الفحم هؤلاء وأحضرْه هنا.» وتابع: «لقد أوحى لي مشهدهم بطريقةٍ لدخول هذا المنزل ومداهمة الأشخاص الذين أريدهم قبل أن يحصلوا على أدنى فرصة لتهريب الأوراق التي نسعى للحصول عليها.»

«هل سنُداهم ذلك المكان هناك أيها الرئيس؟ أنت وأنا فقط؟»

قال المفتش: «هذه هي الفكرة كما أراها في الوقت الحاضر، يا ويذرز.» وأضاف: «بمساعدة هؤلاء السادة المحترمين، سنُداهمهم قبل أن يشعروا بنا.» وأردف: «وأنا لا أشك في أننا سنحصل على قدر كبير من الإثارة المُمتعة خلال هذه المهمة.»

ألقى السيد ويذرز نظرة سريعة جدًّا على بروزٍ مُريب تحت الجانب الأيسر من معطف المفتش؛ بروز يشير على نحوٍ صريح إلى أن مكارثي يحمل مسدسًا آليًّا أو مسدسًا دوَّارًا من عيار ثقيل نسبيًّا. ودون أن يَنبِس ببنت شفة، أعاد فتح الباب الذي بجانب مقعد السائق، وانحنى ووضع يده في صندوق الأدوات الخاص به وأخذ منه مفتاح ربط ثقيلًا مقاس ١٨ بوصة وأسقطه في جيب معطف القيادة الذي يَرتديه. قد لا تكون هناك حاجة لذلك، ولكن مع المفتش في هذا النوع من المهام، لم تكن لتَعرف أبدًا ما الذي سيحدث بعد ذلك!

ومن ثم أحضر ويذرز الشخص الضخم المسئول عن عمال الفحم أمام المفتش، الذي أظهر له أولًا بطاقة تُثبت منصبه، ثم طلب مساعدته بمقابل. أعلن الرجل المعني على الفور أنه فخور وسعيد جدًّا بتقديم المساعدة. علاوة على ذلك، أضاف أنه إذا اعتقد المفتِّش أنه من المحتمل حدوث بعض العراك، فسيُصبح هو ورفاقه سعداء للغاية للانضمام.

قال مكارثي، بعد أن شكره على نحوٍ مُناسب على هذا العرض الكريم: «أكثر ما أريد معرفته هو طريقتكم المعتادة في أداء هذا العمل.»

فأخبره على الفور بالطقوس التي تحكم هذا الإجراء. عندما تُفرَغ شحنة الشاحنتَين الثقيلتين، واللتين تحمل كلٌّ منها خمسة أطنان من الفحم في أجوال، داخل فتحة الفحم، ينزل اثنان من رجاله على درجات السلم إلى البدروم ويدخلان إلى قبو الفحم. وهناك يجرفان الفحم على نحوٍ جيد ومستوٍ لتسهيل وصول خدم المنزل إليه. كان هذا هو الروتين المُعتاد على مدى السنوات الثلاث الماضية، وبعد ذلك تُقدَّم زجاجة من الجعة لكلٍّ من العمال مع بقشيش، ثم يغادرون المكان.

قال مكارثي: «حسنًا إذن.» وتابع: «عندما يصل العمل إلى مرحلة النزول إلى البدروم، أنا وصديقي، هنا، سنَنزل ونجرف الفحم بدلًا من رَجُلَيك. حتى لا تُثار أي شكوك بأي حال من الأحوال، يُمكن لاثنين من فريقك التسلُّل والجلوس في سيارة الأجرة هنا حتى نعود، أو يمكنهما بأي نحو الابتعاد عن الأنظار حتى يحين الوقت المناسب لهما للظهور مرة أخرى.»

لكن رئيس العمال هزَّ رأسه على نحو مُتشكِّك عند هذا الاقتراح.

وقال: «لن يَنجح الأمر، أيها الرئيس، لأنه عمل صعب ويجب وجود شخص يعرف كيف يؤدِّيَه. ونحن نُراقَب طوال الوقت من قبل كبير الخدم الشرس هذا، الذي اسمُه هاينريش، أو شيء من هذا القبيل، والذي يبدو لي كما لو كان يعمل رقيبًا في الجيش الألماني الذي واجهناه في الحرب. فهو يُراقبنا طوال الوقت كما لو كنا سنَسرق شيئًا ما. سأنزل إلى هناك معكما، حتى لا يظنَّ أن هناك أمرًا غريبًا؛ لأنه يعرفني جيدًا، على الرغم من أنه ليس سعيدًا بذلك. انتظرني دقيقة!»

ومن ثم التف حول الزاوية نحو الشاحنتَين وعاد إلى الظهور الآن مع اثنين من رجاله اللذين سرعان ما جرَّدا أنفسهما من مئزرَيهما الجلديَّين، وصديرِيَّيهما ذَوَي الأكمام وغطاءَي الرأس الخاصين بهما، وسلموها إلى ويذرز ومكارثي.

وقال رئيس العمال: «والآن، انتظرا أنتما الاثنان في سيارة الأجرة هذه، ولا تخرجا منها حتى يُطلب منكما ذلك.» وأضاف: «فقط عندما تسمعان جلبة شديدة جدًّا، انزلا منها وافعلا شيئًا مفيدًا.»

وبعد التأكُّد بشدة من هذا الأمر، تبع مكارثي وويذرز الضخم قائدهما إلى الشاحنتَين. وعندما حان الوقت، تقدمَّهما عبر درجات السُّلَّم المُؤدية إلى بابٍ صغير ولكنه صلب للغاية وطرق عليه؛ لاحظ مكارثي أنه قد سُحبَت ثلاثة مزاليج ثقيلة قبل فتحه. من الواضح أن منزل البارونة إيبرهارت كان منزلًا لا يسمح بدخول أي مُتسلِّلين عبر البدروم.

وقرَّر مكارثي أن رئيس العمال لم يُغالِ في وصفه للرجل المُكتنز والمتجهِّم بشدة الذي فتح الباب لهم. إذا لم يكن ضابط صف ألمانيًّا من النوع العتيق الوحشي، فإن مكارثي سيكون مخطئًا للغاية. لم يُلقِ الرجل عليهم أي «تحية» أو أي شيء يدلُّ على أنه شخص مُتحضِّر، لكنه أشار فقط عبر مَمرٍّ مظلم يُشبه ممرات السجون نحو بابٍ من ضمن ثلاثة أبواب تقع في صفٍّ واحد. لاحظ المفتش أن اثنَين منهما مُغلقان بإحكامٍ بقفل وقضبان من الخارج. أما الذي أشير إليه فكان مفتوحًا وبالقطع وراءه قبو ضخم يُمكن أن يتَّسِع لتخزين عشرة أطنان من الفحم في المرة الواحدة.

ومن ثم توجه إليه رئيس العمال مباشرة وقال لمرءوسيه على نحوٍ فظٍّ: «والآن، إذن، فلنبدأ العمل!» وقادهما إلى أكثر قبوٍ كئيب المنظر يتذكَّر مكارثي أنه قد شاهده في حياته. كان مصدر الإضاءة الوحيد له هو شعاع من ضوء النهار يأتي عبر فتحة الفحم الموجودة في الرصيف. وبعد أن تلقَّيا الأمر بدآ العمل على نحوٍ حقيقي في الكومة الضخمة من الفحم، التي كانت لا تزال تتزايد بفعل الرجال بالأعلى. وظلَّ كبير الخدم هذا، هاينريش، يُراقب الباب طوال الوقت، وهو يُشبه أكثر من أي شيءٍ آخر كلب بولدوج يُوشك على الانقضاض عليهم.

تمتم «بيج بيل» بينما كانت أسنانه مُغلَقة: «ماذا لو لم يغادر المكان ويصعد إلى أعلى، أيها الرئيس؟»

أجاب مكارثي بنفس الطريقة: «إذن سوف تَجري إزاحته!»

ولكن مرَّت خمس دقائق ولم تبدُ أي إشارة تدل على أنه سيصعد لأعلى، وكان مكارثي قد قرَّر التصرف بنفسه عندما رن جرس من الأعلى على نحوٍ حاسم، ثلاث مرات. ومن ثم تمتم لنفسه باللغة الألمانية، على الرغم من أن ذلك كان بنبرة خفيضة للغاية بحيث لم يتمكَّن المفتش من التقاط كلماته، وتحرَّك، بعد نظرة فاحصة أخرى على الثلاثة رجال، نحو الجزء السُّفلي من سلمٍ حجري على بُعد نحو عشرين قدمًا عبر الممر.

كان من الصعب سماع وقع خطوات الرجل على السُّلَّم بسبب صوت المجاريف وهي ترفع الفحم الذي ينزلق أيضًا مُحدثًا ضوضاء شديدة، لكن مكارثي أعطاه ما اعتبره وقتًا

كافيًا كي يصلَ إلى أول بسطة ويَغيب عن مجال الرؤية، وبعد ذلك اتجه بسرعة عبر الممر. إذ كان يجب أن تجري المحاولة الآن.

كان من المنطقي الاعتقاد أن البارونة هي من تجلس مع هاينس، وربما ضيوف آخرون، على الرغم من أنه كان يشكُّ في دعوتها لأي ضيوف في ظلِّ ما يحدث داخل بيتها في هذا اليوم بالتحديد. وبعد أن همس لرئيس العمال بأنه على وشك القيام بالمُحاولة التي حدَّثه عنها، وطلب من ويذرز أن يَتبعه، توجَّه بحذَرٍ نحو السُّلم الحجري.

ولم يكد يبدأ حتى سمع صوت الرجل وهو عائد، حيث كان يَصنع وقع أقدامه رنةً واضحة على الدرجات الحجَرية وهو يَهبط. إذ يبدو أن شيئًا ما قد أثار شكَّه، على الرغم من أن مكارثي لم يستطع تخمين السبب مُطلقًا. ثم خطر على ذِهنه فجأةً أن وجهَه ووجهَ ويذرز النظيفَين تمامًا، واللذَين يخلُوان بالكامل من غبار الفحم أو أي علامات تدلُّ على وظيفتِهما المفترضة، لا بد أنه هو سبب شك رجل من هذا النوع.

لقد كانت ملامح صديقهما الذي يَجرف الفحم في القبو مُغطاة بالسواد مثل لون المادة التي يتعامل معها؛ وكذلك كان الرجال الذين يُلقونها من أعلى، بينما ملامح ويذرز، على الرغم من أنه ليس حسَن المظهر، كانت بيضاء مثل الثلج عند مُقارنتها بملامحهم. وبالنسبة إلى وجهه هو، فهو يُدرك تمامًا أنه بعد أن اغتسل وبرغم الكدمات البادية عليه، فلا بد أنه كان يَلمع إلى حدٍّ ما مثل وجه طفل رضيع نظيف تمامًا. لقد كان في واقع الأمر تقديرًا أحمقَ للموقف، وهو بلا شكٍّ سبب قرار ذلك الرجل المتشكِّك بطبيعته ألا يتركهم للحظة. حسنًا، لقد فات أوان فعل أي شيء الآن لتدارُك الموقف، وكان عليهما فعل أي شيء كي يتمكَّنا من الصعود إلى المنزل.

وفي اللحظة التي وضع فيها الرجل قدَمَه على أرضية الممرِّ مرة أخرى وقعت عيناه الصغيرتان القاسيتان على مكارثي وهو يجلس القرفصاء هناك، على بُعد نحو خمس ياردات أو أكثر من القبو الذي كان يجب أن يعمل بداخله.

فزمجر قائلًا بالألمانية: «يا إلهي!» واستدار وهو ينتوي بوضوح أن يصرخ ليُحذِّر شخصًا ما لا بد أنه كان يعلم بوجوده أعلى السلالم ويمكنه أن يسمعه. ولكنه لم يتمكن من فعل هذا!

إذ اندفع مكارثي نحوه كالنمر وأوقف أي صوت قد يَصدُر من فمه بلكمة عنيفة شقَّتْه حتى اللثة. وتبعتها أخرى وقعت على فك الرجل وأرجعت رأسه إلى الخلف مع رجَّة عنيفة. كانت اللكمة كفيلة بأن تُفقِد أغلب الرجال وعيَهم، ولكن هذا المخلوق الشبيه

بالثور احتملَها ثم وضع يده على فمه كي يَصرخ على مَن هم بالطابق العلوي. وعندئذ، وقبل أن يتمكَّن مكارثي من القيام بحركة أخرى ليوقف الصوت المخيف، هبطت ضربة من شيء ما على جمجمة الرجل فسقط فاقدًا الوعي كالحجر. كان هذا الشيء هو مفتاح الربط الخاص بويذرز.

وقال هذا الرجل الرائع: «معذرة يا سيدي، لكنني أعلم أنه ليس لديك وقت لتُضيِّعه مع أمثاله، وإذا بدأ في الصراخ، فلا أحد يعلم مَن سيَجلب من الأعلى. ماذا سنفعل معه؟»

قال مكارثي هامسًا: «ضعه في إحدى هذه الأقبية.» وأضاف: «لن يسمعوا صراخه من داخلها.»

وقد نُفذ الأمر فور صدوره.

ومن ثم اتجه المفتِّش على الفور نحو السُّلَّم الحجري، وتنصَّت للحظة، ثم بدأ في الصعود. وعندما أوشك على الوصول إلى أعلى، اكتشف أن ويذرز قد تبِعه.

فقال هامسًا في شك: «أنا لست واثقًا بشأن مشاركتك معي يا ويذرز.» وتابع: «فأنا لا أدري مدى قوة العصابة هنا، وليس لديَّ أي حق في المخاطرة بك وأخاف أن تُقتَل أو تُجرح. ففي نهاية الأمر أنت رجل مدني.»

قال ويذرز: «يُمكنك أن تعتبرني في هذه اللحظة شرطيًّا.» وأضاف: «نوع من رجال الشرطة الخاصين.»

قال المفتش: «في مكانٍ ما على بسطة الدرج سنجد وكرًا للخدم.» وتابع: «إن بيتًا بهذا الحجم من المؤكد أنه يحتوي على عددٍ كبير منهم، ويُمكنك أن تراهن على أن جميعهم، رجالًا ونساء على حدٍّ سواء، من نفس الصنف. فبمجرد أن يدركوا حقيقة مُهمتنا، سيقاتلوننا بضراوة.»

قال «بيج بيل» بقوة: «هذا من سوء حظِّهم هم.» وأضاف: «ما هي الخطة أيها الرئيس؟»

أشار مكارثي نحو بابٍ على بسطة الدرج، كان بإمكانهما سماع همهمة أصوات من خلفه.

وقال هامسًا: «أظن أن هذا هو المطبخ.» وتابع: «بعد أن أزحنا هاينريش عن الطريق، إذا تمكنَّا فقط من حبسِهم بالداخل هناك، فسيُصبح الطريق ممهدًا أمامنا لنصعد للدور العلوي.»

أشار ويذرز إلى المفتاح الذي يمكن رؤيته بوضوح وهو بداخل قفل الباب.

«ما رأيك أن نُدير المفتاح ونغلق قفل الباب عليهم، وهكذا يكون قد انتهى الأمر، إن جاز لي القول.»

هز مكارثي رأسه. ثم قال: «الأمر ليس بهذه السهولة، يا ويذرز.» وأضاف: «فنحن لا نعلم ما إذا كانت هناك أبواب أخرى لتلك الغرفة يُمكنهم الهرب عبرها، وربما يوقعوننا في فخ. علينا أن ندخل إلى هناك أولًا، ونتأكد من ذلك.»

ومن ثم سحب مُسدَّسه الآلي من جراب كتفه، وأخرج كاتم الصوت الخاص به من جيب معطفه وثبَّته جيدًا في الفوهة.

وقال موضحًا: «نحن لا نُريد إحداث ضوضاء حتى لا ينتبه أحد بالطابق العلوي.» وتابع: «فكلَّما تمَّت المهمة بسرعة وهدوء، كان ذلك أفضل.»

دون تردُّد سار نحو الباب، وفتحه، ودخل، وتبعه ويذرز، ومفتاح الربط في يده تحسبًا لأي طوارئ. كان من الواضح أن الحظ يُحالفهما للغاية حيث بدا أن غالبية خدم المنزل، على الأقل، قد تجمَّعوا بالداخل، وكذلك كان الحال فيما يتعلَّق بحقيقة أنهم بوغتوا تمامًا بمفاجأة هذا الوصول غير المتوقع.

بدا أن رئيسهم هو طباخٌ سمين للغاية، يَرتدي الزي المُميز لمهنتِه، والذي شحب وجهه كالموتى عندما وقعت عيناه على السلاح الذي لوَّح به مكارثي نحو جميع الموجودين.

على طاولة مطبخ ضخمة، كانت تجلس أربع خادمات، وكذلك خادمان؛ كان جميعهم، بدون استثناء، بالتأكيد من الألمان وهو ما وشت به ملامحهم. حاول خادم من الخادِمَين النهوض على قدمَيه، لكنه جلس مرة أخرى حينما وجَّه مكارثي فوهة سلاحه البشع نحوه.

نصحه المفتِّش في تجهُّم قائلًا: «أظن أنه من الأفضل أن تظلَّ جالسًا.» وتابع: «سأشعر بالأسف للغاية إذا اضطُرِرتُ لقتل أحدكم بمسدسي هذا، لكني أستطيع أن أؤكد لكم أني سأفعل ذلك بدون أدنى تردُّد إذا جرت أي محاولة للمقاومة من أي شخصٍ منكم.» وحرك المسدس ليُغطي مداه الطباخ مرةً أخرى. وأضاف في سرور: «أظن أنه من الأفضل أن تجلس أنت أيضًا أيها الطباخ، وهناك عند ذلك الركن حيث لا يُوجَد أي أدراج في مُتناول يدك والتي من المحتمَل أن تحتوي على أدوات حادَّة. عليكم أن تفهموا أنكم قيد الاعتقال، على الرغم من أن تحديد إلى أيِّ مدًى أنتم مُدانون بشيء يضرُّ بأمن هذه المملكة لهو أمر سيُناقَش فيما بعد.»

وتفقدت عيناه الغرفة ببطء فوجد أن لها بابَين آخرَين، أحدهما مفتوح، حسبما رأى، على حجرة مُؤَنٍ ضخمة. وعندما ذهب إليها اكتشف أنها تحصل على الضوء والتهوية

عبر نافذةٍ صغيرة للغاية، وقد غُطي الجانب الخارجي منها بالزنك المثقوب، ولن يستطيع أيٌّ من الموجودين الذين يتَّسمون بالبِنية الضخمة، ناهيك عن البدانة، أن يمرُّوا عبرها. وحتى أنحف الخادمات يصعب مساعدتها على المرور عبرها، وبالنسبة للطباخ، نفسه، فهذا سيكون مُستحيلًا.

«سأزعجكم جميعًا، بما فيكم السيدات، وأطلب منكم رفع أيديكم باتجاه السقف، وإبقاءها على هذا النحو، وإلا ...»، وتابع حينما نفَّذوا الأمر على الفور: «ويذرز، اذهب وفتِّش ثياب الرجال بحثًا عن أي أسلحة مخفية ربما يحملونها معهم. على الأرجح هم لا يحملون أسلحة، لكن هناك احتمالًا أنهم ربما يفعلون ذلك. ولا أظنُّ أن عليك تفتيش السيدات. لا يبدو عليهن أنهن من النوع الذي يحمل أسلحة، أو يمكنهن استخدامها بمهارة إن حملنها.»

وبعد أن فتش السيد ويذرز جميع الذكور بدقة تجعل احتمال وجود أي أسلحة مُميتة معهم مُستبعدًا للغاية، أشار مكارثي نحو باب غرفة المؤن بمسدَّسه.

وقال: «ليدخل الرجال أولًا، وليضعوا أيديهم خلف رءوسهم.» ثم وجَّه كلامه للطاهي، الذي رغم شحوب وجهِه الشديد كان يتصبَّب عرقًا بغزارة: «بالمناسبة ...» «كم عدد الموجودين في قاعة الخدم، إن كان هذا هو المصطلح الصحيح؟»

فقيل له إنه باستثناء كبير الخدم، هاينريش بوشيل، فإنَّ جميع خدم المنزل موجودون هنا.

صاح مكارثي بارتياحٍ حقيقي للغاية: «رائع!» وأضاف: «وربما يُمكنك أيضًا إخباري عن الضيوف الموجودين في الطابق العلوي، باستثناء ضيف تصادف أني أعرفه.»

فأبلغَتْه إحدى الخادمات أن البارونة تَستضيف شخصًا واحدًا في تلك اللحظة، رغم أنهم علموا أن لديها ضيوفًا آخرين سيأتون لاحقًا لتناول العشاء.

قال المفتِّش وهو يهزُّ رأسه في أسف: «أخشى أنهم سيَأتُون في فترة صعبة.» وتابع: «والآن ادخلوا، من فضلكم، واجعلوا أنفسكم مرتاحين قدْر الإمكان.» وأضاف مُحذرًا: «واعلموا أن هناك رجلًا يقف للحراسة والذي لن يتردَّد على الإطلاق في التعامل بحسمٍ مع أي شخصٍ يحاول الهروب.» وأردف مؤكدًا: «لن يتردَّد «على الإطلاق».»

وبعد أن أغلق الباب، أغلق القفل بعناية، ثم وضع كرسيًّا تحت مقبضه. وقال: «أعتقد أن علينا وضع صديقنا رئيس عمال الفحم هنا للحراسة فقط كإجراء احترازي.» وأضاف: «إذا قرَّر الطباخ أن يُلقي بثقله على الباب، فأنا أشكُّ في أن القفل أو الكرسي سيتحملان.»

«إنه مرعوب بشدة؛ لن يُحاول فعل ذلك. عندما فتشتُه كان يرتجِف مثل الهلام.»

قال مكارثي: «لن نجازف»، واستدعى رئيس عمال الفحم، وشرع في إعطائه تعليماته. ونظرًا لأن الرجل، كان يتوقَّع مثل هذه المهمة، فقد أحضر مجرافه معه، والذي اعتُبر سلاحًا كافيًا تمامًا لهذه المهمة. ونظرًا لأنه أكد لمكارثي أنه لن يتردد في استخدامه تجاه أي ألماني، ذكرًا كان أم أُنثى، بعد أن أمضى عامَين في معسكر اعتقال ألماني، فقد تُرِك لأداء المهمَّة مع ثقةٍ تامة بأنه سيؤديها على نحو جيد.

«والآن، يا ويذرز، على الرغم من عدم ارتدائنا ملابس ملائمة لمثلِ هذه المناسبة؛ إذ، في الواقع، هي غير ملائمة للغاية، فسنَصعد إلى الطابق العُلوي إلى غرفة الاستقبال، ونُوجِّه تحياتنا إلى البارونة. أشكُّ في أنها ستصبح سعيدة برؤيتنا، لكن ما باليد حيلة.»

تنبأ «بيج بيل» مع ابتسامةٍ عريضة: «أُراهن أن السير ويليام سيفاجأ بشدة عندما نقتحم المكان.»

وافقه مكارثي قائلًا: «أراهن أنه سيَفعل.» وتابع: «في الواقع، فإن اليقين بأنه سيفاجأ هو أحد أكبر الأشياء التي كنتُ أفكر فيها عندما طلبتُ منه المجيء إلى هنا. سيُعلِّمه هذا أنه حتى المفوضون المساعدون لا يَعرفون بقدْر ما يعتقدون أنهم يعرفون.»

الفصل الثالث والعشرون

المفتش يوضح الأمور!

كانت البارونة، في رأي السير ويليام هاينس، في أفضل حالاتها بعد ظهر ذلك اليوم. لم يحدث قط، في المناسَبات العديدة التي كان من دواعي سرور المفوض المساعِد أن تستضيفه خلالها في منزلها، أن بدت جميلةً للغاية، وساحِرة بوجهٍ عام، كما كانت في هذا اليوم. ومهما كانت المفاجأة التي ربما تكون قد غمرتها عندما أُبلِغت عن الزيارة غير المتوقَّعة تمامًا، فهي لم تسمح لأي علامة على ذلك أو، في الواقع، أي اضطراب من أي نوع، بأن يظهر على ملامحها.

لم يستطع السير ويليام أن يُدرك بالضبط ما يخطط له الماكر مكارثي عندما أصر على أن يفاجئها بهذه الطريقة، لكنه كان مُتأكدًا تمامًا من أن هذا الضابط المُلتزم سيَضع نفسه في موقفٍ محرج جدًّا إذا حاول الادِّعاء بأن هذه السيدة تحديدًا لها صِلة بواقعة السرقة التي حدثت في وايتهول. ومن جانبه، أبقى الأمور المهنية بعيدًا عن المحادثة، وفسَّر سبب زيارته من خلال حقيقة أنه كان لدَيه مهمة عمل في منزلٍ آخر في جروفينر سكوير، واغتنم هذه الفرصة. كما لم يذكر اسم المحقِّق المفتش مكارثي، على الرغم من أن البارونة وجَّهت الحوار أكثر من مرة على نحوٍ مُحدد في هذا الاتجاه. بلا شك فإن المفتش الجذَّاب كان مصدر اهتمامٍ كبير لها.

لكنه لاحظ أنها بينما كانت مُضيفة مثالية في كل النواحي، فإنها كانت قَلِقة إلى حدٍّ ما، وتَتنقَّل في الغرفة كثيرًا. وعلى وجه الخصوص، استمرَّت في التحرك نحو النوافذ البارزة الكبيرة في غرفة الاستقبال والتي تَفتح على شُرفة رخامية ومكسوَّة بالفُسيفِساء تطلُّ على الميدان وتعلو مباشرة حديقةً صخرية صغيرة مُصمَّمة على نحوٍ مثير للإعجاب.

على الرغم من حقيقة أن السيدة كانت لطيفةً للغاية، فإنَّ السير ويليام، في ظلِّ هذه الظروف، بدأ يجد صعوبة في إجراء محادثة معها مع مرور الوقت، فلم يكن لديه أي

فكرة إلى متى توقَّع مكارثي منه أن يَستمر في هذا الموقف السخيف اللعين. وقد أولى، وفق ما طُلب منه، اهتمامًا كبيرًا لخادم السيدة، أو كبير خدمها، أيًّا كان ما تُفضل مناداته به، عندما قدم لهما هذا الشخص ذو المظهر الكئيب شاي العصر. من المؤكد أنه بدا نموذجًا لهيئة ضابط صف ألماني، وكان هناك شيء واحد مؤكَّد تمامًا، وهو أنه على الرغم من إتقانه أداء دور الخادم، فإن مظهره، بملامحه الضخمة والوحشية، لا يدلُّ على كونه خادمًا على الإطلاق.

لكن السير ويليام قال في نفسه حتى وهو يتحدَّث بمرحٍ مع السيدة إن هذا لا يجعل من سيدته طرفًا في مخطَّط تجسُّس عملاق. إن الكثير من الأشخاص المُحترَمين للغاية مظهرهم غير جذاب، ولم يكن الحكم على رجل من خلال مظهره فقط يومًا جزءًا من نظام العدالة الإنجليزي. لو كان الأمر كذلك فإن عددًا لا بأس به من الضباط المُحترمين بشدة في سكوتلاند يارد نفسها كان يجب سجنهم بناءً على هذا الأساس.

ومع ذلك، بينما هو يُشاهد الهيئة الرائعة لمُضيفتِه وهي تتحرَّك برشاقة في غرفة الاستقبال، كانت هناك حالة من عدم الارتياح في ذهن السير ويليام. إذ لم يكن مكارثي من النوع الذي قد يرتكب خطأً فظيعًا في حق أشخاصٍ ذوي مكانة اجتماعية، ومالية، وهو يعلم أن هذا الخطأ قد يوقع إدارة سكوتلاند يارد، وهو نفسُه على وجه الخصوص، في مأزقٍ رهيب إذا كان الاتهام غير صحيح.

وبينما هو يتذكَّر السرعة غير العادية التي ربط بها المفتِّش الذي لا يَعرف الكلل بين عملية السطو في وايتهول وجريمة القتل في سوهو سكوير، وكذلك، لاحقًا، جريمة قتْل ماسكاني وأيضًا الرجل العجوز صاحب عربة القهوة، لم يكن هناك شيء كان يُمكنه فعله لزعزعة الشك الذي أصر على البقاء في ذهنه. بدا أمرًا لا يُصدَّق أن هناك أدنى صلة بين هذه السيدة وتلك الأحداث المروعة، ولم يكن بإمكانه إلا أن يأمُل عندما يَنتهي مكارثي من تحقيقاته أن يكتشف أنه كان يتتبع مسارًا خاطئًا بخصوصها. على أي حال، كان ينوي منح المفتش خمس دقائق أخرى كمهلة، ثم يستأذنها في المغادرة في الوقت الحالي.

ولكن لم تمر أكثر من دقيقتَين من تلك الدقائق عندما تلقَّى ما كان من المُحتمَل جدًّا أن يكون أكبر صدمةٍ له في حياته المهنية؛ لأن الباب القابل للطيِّ في غرفة الاستقبال انفتح فجأة، وبدلًا من ظهور هاينريش ذي المظهر الكئيب ليُعلن عن وصول ضيوف آخرين، هناك على العتبة وقف مكارثي نفسه، بينما وقف خلفه «بيج بيل» ويذرز بجسده الضخم، ومفتاح الربط في قبضة يده اليُمنى الضخمة.

كان واضحًا للغاية أن مكارثي قد مرَّ بوقتٍ عصيب منذ أن رآه آخر مرة. إذ بدت على وجهه علامات معركة وقعت منذ وقتٍ قصير، والتي بالتأكيد لن تندمِل بسرعة. بالإضافة إلى ذلك، بدت البدلة القديمة التي كان يرتديها مغمورة بغبار الفحم على الرغم من أن وجهه المُصاب بكدمات عديدة كان خاليًا إلى حدٍّ ما من تلك المادة. ولكن أكثر ما أزعج هاينس، عندما تغلب على صدمة هذا الظهور غير المتوقَّع، كان مظهر الانتصار الهادئ الذي أشرق في عينَي المفتش اللطيفتَين ذواتَي المظهر الإيطالي؛ وهي نظرة قد رآها كثيرًا ولا يُمكن أن يُخطئها. وأيًّا كان ما يمكن أن يُنبئ عنه ظهوره، وهذا الزي الذي كان يَرتديه وتلك الحالة التي كان عليها، فلم يكن هناك شك في ذهنِ المفوض المساعد أن مكارثي قد أتمَّ مهمَّته بنجاحٍ مرَّة أخرى.

ربما لمدة خمس ثوانٍ سادَ صمتٌ تامٌّ في الغرفة، بخلاف صيحة التعجُّب تلك التي صدرت عن هاينس عند ظهور هذين الرجُلين المُتباينَين في الشكل على نحو غريب. وقد كُسر الصمت أولًا من قبل البارونة إيبرهارت، التي وقفت تُحدق في مكارثي، المختلف تمامًا عن ذلك الذي التقت به في مطعم فيري، كما لو كانت تُحدِّق في شبح خرج من القبر.

وقالت دون أي علامة على الاضطراب: «هذا مصدر سرور غير متوقع تمامًا أيها المفتش»، لكن مكارثي لاحظ أن الابتسامة التي ظهرت على شفتَيها كانت ثابتةً وجامدة، وبطريقة ما أعطت تعبيرًا مختلفًا تمامًا لوجهها.

فقال بسلاسة: «حسنًا، الآن، أشك في ذلك. في ظل هذه الظروف ربما سأتفاجأ أنا نفسي. لكن، بطريقةٍ أو بأخرى، شعرتُ عندما تركتك في مطعم فيري أنه لن يمرَّ وقت طويل قبل أن نلتقي مرة أخرى.»

قالت: «هذا أمر مُثير للاهتمام.» ثم التفتت إلى السير ويليام. وأضافت: «هل كانت لديك أي فكرة أن المفتش مكارثي ينوي أن يزورَني هذه ... الزيارة غير التقليدية؟»

انتفض السير ويليام هاينس، ثم نظر إلى سبب شعوره بالإحراج. وأجاب بسرعة: «لم يكن لدي أدنى فكرة.» ثم عدل كلامه بسرعة قائلًا: «بالرغم من ذلك، بطريقةٍ ما، كان لديَّ فكرة أنه ... سيكون في مكان ما في ... في هذه الأنحاء.»

أومأت البارونة. ثم قالت بتمعُّن: «فهمت.» وتابعت: «هل يعدُّ سبب هذه الزيارة من الأسرار الرسمية أم من المُمكن أن تُخبرني به أيها المفتش؟ فهناك دافع ما وراء زيارتك، بكل تأكيد.»

«حسنًا، في البداية، على نحوٍ ما، هذا هو نتيجة تتبُّع «حدسي» في البداية. لا أعرف ما إذا كانت الكلمة مألوفة لك يا بارونة أم لا، إنها كلمة تعني فعل شيء بدون أدنى منطق

أو سبب أو أي شيء آخر يمكن أن يُبرره: إنني أفعل هذا النوع من الأشياء، مثلما يمكن أن يخبرك السير ويليام هنا، ويكون هذا مصدر إزعاج جهنمي أصنعه لنفسي بوجهٍ عام أثناء تتبعي له. وكان ذلك الحدس هو ما جعلني أُراقب صديقكِ البارون هيلنر — أعتقد أن هذا هو الاسم — وأتتبعه خارج سوهو سكوير بعد جريمة قتل المدعوَّة مدام رونر.»

قالت باستخفاف: «أه، جريمة قتل سوهو سكوير.» وأضافت: «لكن أولًا يجب أن أُصحح لك نقطة واحدة. أنا ليس لديَّ صديق بهذا الاسم.»

قال مكارثي بسلاسة: «ربما ليس هذا هو الاسم الصحيح.» وتابع: «لكنه سيفي بالغرض في الوقت الحاضر. أما بالنسبة إلى كونه ليس صديقًا لكِ فأنا أعترف أنني لا أفهم ذلك. فقد خطرت لي الفكرة من خلال زيارته لكِ هنا الليلة الماضية، بعد جريمة قتل ماسكاني.»

تمتمت: «ماسكاني.»

«بالضبط، فلوريلو ماسكاني. الرجل الذي قتلت عصابته، بتحريض من هيلنر، رجلًا مسنًّا مُسالمًا يُدعى أنسيلمي للاستيلاء على عربة القهوة الخاصة به واستخدامها كوسيلة لإخراج جثة مدام رونر المزعومة من سوهو سكوير.»

تمتمت بنفس الطريقة الغامضة: «مدام رونر.»

أومأ مكارثي برأسه. وقال: «بالضبط.» وتابع: «وكان هذا هو السبب الثاني الذي أحضرني إلى هنا اليوم. إذا لم تذكري في مطعم فيري حقيقة أنك قد ذهبتِ في ذلك الصباح لاستشارة الوسيط الرُّوحي، أو المستبصر، أو أيًّا كان المصطلح الصحيح، الخاص بكِ، وعلاوةً على ذلك، أبلغتني أنا والسير ويليام بأنك قد حدَّدت الموعد عبر الهاتف، فربما لم أكن لأشكَّ بك أبدًا للحظة، بخصوص جريمة القتل وسرقة تلك الخطط من وايتهول، بالطبع.»

وجهت البارونة نظرَها باستفسار بعيدًا عنه نحو هاينس، الذي كان يُحدق في السقف متسائلًا عما سيأتي بعد ذلك، ثم نظرت مرةً أخرى إلى مكارثي. كان وجهها حالة مثالية للخلوِّ التام من التعبير.

قالت: «أخشى أن ...» عندما قاطعها مكارثي بإشارة من يده.

«سوف نأتي إلى ذلك لاحقًا. يكفي ذكرُ أنني قد علمت بالصدفة أن البارون هيلنر قد سلم الأوراق المسروقة إليك الليلة الماضية وتأكَّد من أن هاينريش سيُخرجها من إنجلترا اليوم.»

سألت: «تأكد ممَّن أيها المفتِّش؟»

قال لها: «منكِ، أيتها البارونة.» وتابع: «إن ذاكرتك بالتأكيد ليسَت سيئة لدرجة أنك نسيت ذلك. لقد أحضرها إليك على الفور بعد أن حصل عليها من حانة صغيرة قَذِرة في سوهو، تُعرف باسم تشيركولو فينيتسيا، يُديرها شخص يُدعى فازولي، وهو بالمناسبة، مكان مألوف لك تمامًا، حيث ذهبت إلى هناك بلا شك البارحة بعد الظهر. وبعد أن ترك هيلنر ذلك المكان، قتل صديقنا الصغير البغيض، لودفيج، ماسكاني، أيضًا بتحريض من هيلنر.» استمر المفتش في حديثه مع ابتسامته الجميلة: «لسوء الحظ، لقد أثار سوء أخلاقه المؤسِف تجاه من يعتبرهم أقلَّ شأنًا منه في الحياة غضب صديق مُعين لي، والذي تبِعه إلى جروفينر سكوير، وبكل فِطنة، استمع إلى المحادثة التي أجريتِها مع هيلنر على باب منزلكِ. إنه خطأ كبير، أيتها البارونة؛ إنه لأمر مُدهِش كيف تَنتقِل الأصوات في سكون التعتيم.»

لم تقل السيدة شيئًا؛ كانت ابتسامتها ثابتة كما هي دائمًا، لكن مكارثي رأى عينيها تنظران باتجاه حبل جرسٍ قديم الطراز بجانب إحدى النوافذ الناتئة الكبيرة التي تَنفتِح على الميدان. فتحرك بتكاسل ليضع نفسه بينها وبينه.

«لن يجدي نفعًا على الإطلاق، أيتها البارونة، أن تَطلُبي المساعدة أو ... أو أي شيء آخر قد يكون في ذهنك أن تفعليه. إن جميع خدمِكِ مُحتَجَزون، حيث لن يتمكنوا من الخروج على عجل، مع وجود رجل قوي للغاية يحرسُهم مع مجرافه. وهاينريش في وضعٍ سيِّئ بنفس القدر، وبالتأكيد هو ليس في حالة تسمح له بالرد على أي استدعاء قد توجهينه إليه.»

صاحت بحدة: «هل احتجزتَ هاينريش؟»

«حسنًا ... تقريبًا. فقد كان من دواعي سروري، من دواعي سروري الشديد في رأيي، أن أُفقِد ذلك الرجل وعيه قبل أن أصعد إلى هنا.» ثم صحح كلامه على عجل: «أو على وجه الدقة، صديقي، السيد ويذرز الموجود هنا معي، هو مَن ساهم بهذه المساهمة القيمة للغاية في هذه المداهمة، وما يفعله في هذا الصدد، يفعله على أتمِّ وجه، يُمكنني أن أؤكد لك هذا.»

فسألت بحدة: «أين البارون هيلنر الآن؟»

«إن هذا الرجل المحترَم، الذي، بالمناسبة، أنتِ لا تعرفينه، يَقبع في الوقت الحالي مُستريحًا في زنزانة في قسم الشرطة الموجود في فاين ستريت أو كانون رو، وذلك إذا سارَت

الأمور وفقًا لتعليماتي، وهو مما لا شكَّ فيه. ومعه، أو في مكان قريب منه، تلك السيدة الشابة الجميلة للغاية، والتي يؤسِفني أن أقول غير المحظوظة، السنيورا تيسا دومينيكو، التي بمُساعدتها استُدرج ماسكاني كي يَلقى مصرعه. في الوقت الحالي، كل شخص شارك في هذه الجريمة، وجريمة قتل سوهو سكوير، هو قيد الاعتقال، مع استثناءَين ملحوظين، لودفيج وأنتِ. وهذا ما نحن بصدد تصحيحه في أقرب وقت.»

وبينما هو يتحدَّث، ألقى نظرة خاطفة عبر النافذة ليرى سيارةً تدخُل ببطء إلى الميدان وهي السيارة التي كانت تُقلُّ تيسا دومينيكو وأغراضها من داوتي ستريت إلى بارك لين. وقد جلَس القزم، لودفيج، أمام عجلة القيادة بأسلوبه المُعتاد، مثل جاك في الصندوق.

فقال بهدوء: «ويذرز، إذا نزلت إلى البدروم؛ فمِن المُحتمَل أن تُقابل الشخص الذي كنتُ أتحدث عنه للتوِّ. القزم الذي رأيناه يُوصل تيسا دومينيكو إلى بارك لين هذا الصباح. لا تتردَّد بشأنه، وتأكَّد من اعتراضه قبل أن يتمكَّن من الوصول إلى المطبخ حيث احتجزنا الآخرين. لا أريد أن أجد صديقنا القويَّ رئيس عمال الفحم مطعونًا بسكين في ظهره، الأمر الذي سيُصبح على الأرجح نهايته إذا علم هذا المأجور ذو الوجه البشع طبيعة المهمَّة التي يؤديها.»

قال «بيج بيل» بتجهُّم: «اترك لي هذه المهمَّة، أيها الرئيس»، وغادر بسرعة ونزَل السلم. وفي الحال واجه مكارثي البارونة، وبدَت عليه كل علامات الصرامة.

وقال بتجهم: «سأحصل على تلك الأوراق المسروقة أيتها البارونة إيبرهارت.» وتابع: «إن إنكارك لأيِّ معرفة بها أمر لا طائل من ورائه. لقد وُضِعت بين يديك الليلة الماضية كي تُهرَّب خارج إنجلترا بواسطة خادمك هاينريش. على أيِّ حال، من واجبي إبلاغك بأنك رهنَ الاعتقال بتُهمة التجسُّس، وعلاوة على ذلك، التورُّط في ثلاث جرائم قتل والتواطؤ بشأنها قبل حدوثها وبعده. كما أنه مِن واجبي إبلاغك بأن أيَّ شيء قد تضطرِّين إلى قوله سيُدوَّن ويُستخدَم كدليل ضدك.»

فقط مَن سيُؤدِّي عملية «التدوين» هذه، هذا ما لم يكن باستطاعة مكارثي تحديده في الوقت الحالي، ما لم يكن، بالطبع، السير ويليام هاينس. وقد جلَس ذلك الرجل المحترم يُحدق من أحدهما إلى الآخر كما لو كان عقله في متاهةٍ تامَّة، ولم تصدر عنه أيُّ حركة على الإطلاق تُشير إلى أنه على وشك أن يُصبح الكاتب المساعد لمكارثي في هذه القضية الصعبة.

ومن دون أن تَنبِس ببنت شفة، ولكن مع هزٍّ كتفَيها في حزن فيما بدا وكأنه اعترافٌ بالهزيمة، تحرَّكت البارونة ببطء نحو منضدة مزخرفة ومطعمة موضوعة بجوار الباب مباشرة. ووضعت يدها على مقبض أحد أدراجها وفتحته. لكن صلابة معيَّنة مفاجئة في حركة ظهرها وكتفَيها حذَّرت مكارثي من أن هذه المرأة لم تُهزَم بعد. ومع صيحة حادة جعلت هاينس ينتفض واقفًا على قدمَيه، اندفع نحوها عبر الغرفة وأمسك بمعصمها بينما هي تستدير نصفَ استدارة نحوه، وفي يدها مسدس آلي! ورغم حركته السريعة، وجدت الوقت لسحب صمام الأمان ولكن الرصاصة التي كانت ستعثُر بالتأكيد على مثوًى لها في واحد أو آخر منهما طاشت نحو سقف غرفة الاستقبال. كما لم يكن نزعُ سلاحها أمرًا سهلًا؛ لأنها قاوَمت مثل قطةٍ برية، واكتشف أن خفة حركتها كانت مسألة قوَّة عضَلية وليست رشاقة مكتسَبة. استغرق الأمر دقيقة كاملة من المقاومة الشاقة، ساعده خلالها السير ويليام الذي كان لا يزال شِبه مذهول، قبل أن يُجبِرَها على الجلوس فوق كرسي بذراعَين ويُقيِّد أحد معصمَيها بالأصفاد فيه. ومع ذلك، فقد تركت بعض العلامات الجديدة على وجهِه المُصاب بالفعل من قبل.

«ليس هناك طريقة، يا بيل، سوى إحضار فرقة من الشُّرطة إلى هنا كي تُفتِّش هذا المكان من الأقبية إلى العِلية. إن هذه الأوراق موجودة هنا بكل تأكيد، ثق في ذلك.»

في تلك اللحظة ظهر ويذرز، وهو يجرُّ جسد القزم لودفيج الفاقد للوعي عبر السُّلَّم بينما قدماه تصطدمان بكل درجة منه.

وقال في شبه اعتذار: «اضطررتُ أن أُفقِده الوعي، يا سيدي.» وتابع: «ربما هو قصير القامة، إن جاز التعبير، لكن العجيب أنه قويٌّ مثل الغوريلا من الخصر لأعلى.»

أمره مكارثي قائلًا: «قيِّده يا ويذرز، وتأكد من فعل ذلك جيدًا.» وأضاف: «إنه يستحق الإعدام بسبب قتلِه فلو ماسكاني.»

انبعثت صيحة من الشارع. فركض مكارثي نحو النافِذة ورأى الهيئة المُكتنزة لهاينريش تتسلل عبر الميدان بأسرع ما يُمكِن له أن يتحرَّك دون لفت الكثير من الانتباه إليه. وعلى الفور، خطر على ذهن المفتِّش أنه الشخص الذي كان بحوزته تلك الأوراق! وكان جاهزًا تمامًا للفرار وانتظر أن يأتي لودفيج ليأخذَه بالسيارة، حسبما هو مُتفق عليه مسبقًا بلا شك. عرفت البارونة ذلك، ولو أنها تمكَّنت من الحصول على هذا السلاح دون مُضايقة، لكانت احتجزتهم هنا حتى يَبتعِد خادمها بسلام. وقد تمكَّن هاينريش من الهروب بينما كان رئيس عمال الفحم في الطابق العلوي في ذلك المطبخ؛ إنه على الأرجح

سمع شجار ويذرز مع القزم، وأدرك أنه إما أن يهرب الآن أو لن يهرب أبدًا، هذا إن أراد أن يتمكَّن من إتمام مهمَّته.

ومع صيحة عالية، فتح مكارثي إحدى النوافذ الطويلة التي تطلُّ على الشرفة، واجتازها، ودون تردُّد، قفز فوق الدرابزين وهبط في الحديقة مما نتَج عنه صوت ارتطام ثقيل. والتقط أنفاسه للحظة، ولكن في اللحظة التالية قفَز فوق السياج واندفع يركض عبر الميدان خلف الألماني بالسرعة التي يَركض بها ثعلب أمام كلاب الصيد. كان على مقربة منه عند زاوية جروفينر ستريت عندما استدار الرجل فجأة وسحب مسدَّسًا من جيبه. ودون تردُّد، اندفع مكارثي نحوه بتهوُّر، وطنَّت رصاصة كانت ستُنهي على الأرجح مسيرته الشاقة بجوار أُذنه بينما هو يُمسك بالرجل. ومن ثم تلقى ضربة شديدة على جانب رأسه بالسلاح الثقيل، مما أصابه بالدوار للحظة.

ولكن من خلال قوة الاندفاع الهائلة وقوة هجومه، دفع الرجل إلى الخلف نحو سور منزلٍ كما كان يظن؛ واتضح أنها البوابة المؤدية إلى المنطقة والتي انفتحت ووقع الرجلان على الدرجات الحجرية. ارتطم رأس الألماني مرتَين بشدة أثناء تدحرُجهما على بعضهما البعض وهما يهبطان، وارتطمت رأس مكارثي مرةً بجانب الجدار بقوة كافية لإصابته بالدوار، لكنه تشبَّث مثل كلب بول تيرير، على الرغم من أنه بعد الجهود المُضنية التي بذَلها في ذلك اليوم وجد قوته تتضاءل.

ولكن تصادف أن المساعدة كانت على مقربة منه؛ حيث إن عاملَي الفحم اللذين تُركا في سيارة أجرة ويذرز، شاهدا كل ما حدَث وكانا في طريقهما إلى المكان الذي اختفى فيه الرجلان بأقصى سرعة بإمكانهما.

في ذلك الوقت، انخرط هاينريش والمفتِّش في عراك عنيف لم تُراعَ فيه أي قواعد من قبل أي منهما، حيث استخدم الألماني قدمَيه وكذلك يدَيه للهروب من المصير الذي كان يعلم أنه من المؤكد سيَتبع القبض عليه. وكانت دقيقتان أُخريان ستشهدان هذا الهروب بالفعل؛ إذ إن مكارثي، على الرغم من التمسُّك بالرجل الأثقل منه مثل أحد الطفيليات، كان يترنَّح أمامه مثل رجل «مُغيَّب» يقف على قدمَيه.

وقد تلقى لتوِّه ركلة قوية كادت أن تُغيبه عن الوعي تمامًا عندما نزل أول عامل عبر الدرجات بسرعةٍ شديدة، ولأنه يؤمن بالمبدأ المنطقي القائل بأن العين بالعين حين يتعلَّق الأمر بالقتال فقد ركَل بحذائه الثقيل، الذي مقاسُه عشرة، بطنَ الألماني بدقَّة وقوة لدرجة أن الرجل انثنى مثل مطواة. وفي اللحظة التالية اشترك معه العامل الثاني وثبَّتا

الألماني على الأرض وأبقياه هناك بينما فتَّش مكارثي جيوبه. وفي جيبٍ مَخفي، مخيط أسفل قميص الرجل، وجد الأوراق المُغطَّاة بالمشمع المهمة للغاية.

كان يَقتاد ثلاثتهم الألماني ويصعدون به عبر السُّلَّم مرةً أخرى عندما اقترب شرطي من الزاوية تقريبًا أعلاهم. لقد كان شابًّا ولكنه أُرسِل حديثًا من الريف، وقد أخذ يُحدق في هذه المجموعة الرباعية المُتنوِّعة بنحوٍ مُثير للفضول كما لو كان لا يكاد يُصدِّق عينَيه. ففي الوقت القصير الذي عرف فيه جروفينر سكوير، من المؤكَّد أنه لم يسبق له أن وقعت عيناه على أي شيءٍ مثل هذه المجموعة الغريبة من قبل.

قال أكثرهم تعرُّضًا للضرب في المجموعة بنبرةٍ آمرة: «أعطني أصفادك»، ومدَّ يدَه من أجل الحصول على تلك الأشياء المهمة للغاية في ذلك الوقت.

قال الشرطي المبتدئ الذي من القسم «سي» بتلويحةٍ هادئة من يده وهو يتحدث بلهجة ويلتشير القوية: «ليس بهذه السرعة؛ ليس بهذه السرعة.» وتابع: «يجب أن أسمع المزيد عن هذا قبل أن أعطيَ أي شخصٍ أي شيء. هذه تبدو لي وكأنها قضية اعتداء عادي.»

نهره المفتش قائلًا: «ستُصبح أكثر قضية غير عادية سمعتَ عنها على الإطلاق إذا لم تُعطني هذه الأصفاد عندما تتلقَّى أمرًا بذلك»، وكانت يدُه لا تزال ممدودة من أجل الأشياء المطلوبة.

ساور الشك ذلك الرجل الريفي. كان هناك شيء ما في نبرة هذا الكائن الذي تعرَّض للضرب بشدة يَشي بأنه صاحب سلطة؛ هذا الرجل بدا وكأنه مُعتاد على الطاعة عندما يُعطي الأوامر.

فسأل الشرطي الذي رقم طوقه ١٦٧٤ ويَنتمي للقسم «سي»، وقد ظهر الشك الذي كان يشعر به بقوة على صوته: «مَن عساك أن تكون؟»

أجاب مكارثي، بشفتَين مجروحتين: «حسنًا، قد أكون أي شخص، ربما أكون رئيس الوزراء، أو، حتى قد يَصل الأمر لأن أكون قداسة البابا مُتنكرًا. يُمكنني حتى أن أكون أحد السلاطين الذين يسافرون في تخفٍّ. لكن تصادَف أنني لستُ كل هؤلاء. إن اسمي مكارثي، وأنا مفتش في إدارة التحقيقات الجنائية. هل تُريد رؤية بطاقة العمل الخاصة بي؟»

أجاب على عجل: «كلَّا، يا سيدي»، ومِن ثم أخرج الأصفاد ووضعها على معصمَي الألماني في غمضة عين.

فنظر مكارثي إلى الشرطي، مع نظرة ساخِرة على جانب فمه.

وسأله بهدوء: «وكيف تَعرف أنني حقًّا المفتش مكارثي؟» وتابع: «لقد سلمتَ أصفادك دون أدنى دليل على أنني من أدَّعي. لقد رأيتُ رجالًا يُسرَّحون من الخدمة بسبب أخطاء أقل من هذا.»

تلعثم الشرطي الذي رقم طوقه ١٦٧٤ والمنتمي إلى القسم «سي» وهو يقول: «أنا ... أنا وثقت في كلمتك يا سيدي»، وأخذت نظرة اضطراب تَرتسِم بسرعة على وجهه.

قال مكارثي: «أحسنتَ صنعًا.» وتابع: «أحسنت صنعًا يا فتى. خُذ كل ما يُقال لك في لندن على محمل الصدق تمامًا! إنها المدينة الأكثر صدقًا في العالم. اتبع هذه الفكرة وستُصبح أحد شيئين. إما أنك ستَبحث عن وظيفةٍ أخرى، أو سيجعلونك مفتشًا، وحينها فليَرعَك الله برحمته لأن أحدًا آخر لن يفعل.»

هنـــداوي